

أحمد مسنغانمي



26/8/2012



فوضى الحواس

رواية



دار الآداب



أحلام مستغانمي

فوضى الحواس

- رواية -



دار الآداب - بيروت

فوضى الحواس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة

١٩٩٨

إهداء..

إلى محمد بوضياف... رئيسًا وشهيدًا.
وإلى سليمان عميرات، الذي مات بسكتة قلبية وهو يقرأ فاتحة على
روحه. فاهدوا إليه قبرًا جواره.
وإلى ذلك الذي لم يقاوم شهوة الانضمام إليهما، فذهب ذات أول
نوفمبر، بتلك النكّة المذهلة في اختيار موته، لينام على مقربة من
خبيتهما.
من وقتها.. ورجال أول نوفمبر قهرًا يرحلون.
من وقتها وأنا إلى أحدهم أوصل الكتابة.
إلى أبي... مرة أخرى.

أحلام

بدءاً

هكس الناس، كان يريد أن يختبر بها الإخلاص. أن يجرب معها
متعة الوفاء عن جوع، أن يرى حباً وسط الغام الحواس.
هي لا تدري كيف اهتدت أنوثتها إليه.

هو الذي، بنظرة، يخلع عنها عقلها، ويلبسها شفقيته. كم كان
يلزمها من الإيمان، كي تقاوم نظرتها!
كم كان يلزمه من الصمت، كي لا تشي به الحرائق!

هو الذي يعرف كيف يلامس أنثى. تماماً، كما يعرف ملازمة
الكلمات. بالاشتغال المستتر نفسه.

يحتضنها من الخلف، كما يحتضن جملة هاربة، بشيء من
الكسل الكاذب.

شفته تعبرانها ببطء متعمد، على مسافة مدروسة للإثارة.
تمران بمحاذاة شفتيها، دون أن تقبلاهما تماماً. تنزلقان نحو
عنقها، دون أن تلامساها حقاً. ثم تعاودان صعودهما بالبطء المتعمد
نفسه. وكأنه كان يقبلكها بأنفاسه، لا غير.

هذا الرجل الذي يرسم بشفتيه قدرها، ويكتبها ويمحوها من غير
أن يقيّلها، كيف لها أن تنسى.. كلّ ما لم يحدث بينه وبينها؟

في ساعة متأخرة من الشّوق، يداهمها حبّه.
هو، رجل الوقت ليلاً، يأتي في ساعة متأخرة من الذكرى، يباغتها
بين نسيان وآخر. يضرّم الرّغبة في ليلها.. ويرحل.
تمتطي إليه جنونها، وتدرّي: للرغبة سهيل داخلي لا يعترضه
منطق. فتشوق، وخيول الشّوق الوحشية تأخذها إليه.
هو رجل الوقت سهواً. حبّه حالة ضوئية. في عتمة الحواس يأتي.
يُدخل الكهرياء إلى دهاليز نفسها. يوقظ رغباتها المستترة. يشعل كلّ
شيء في داخلها.. ويمضي.
فتجلس، في المقعد المواجه لغيابه، هناك.. حيث جلس يوماً مقابلاً
لدهشتها. تستعيد به انبهارها الأوّل.

هو.. رجل الوقت عطراً. ماذا تراها تفعل بكلّ تلك الصباحات
بونه؟ وثقة هدنة مع الحب، خرقها حبّه. ومقعد للذاكرة، مازال
شاغراً بعده. وأبواب موارية للترقّب. وامرأة.. ريثما يأتي، تحبّه كما
لو أنّه لن يأتي. كي يجيء..
لو يأتي.. هو رجل الوقت شوقاً. تخاف أن يشي به فرحها
المباغت، بعدما لم يش غير الحبر بغيابه.
أن يأتي، لو يأتي.

كم يلزمها من الاكاذيب، كي تواصل الحياة وكأنه لم يات! كم
يلزمها من الصدق، كي تقنعه أنها انتظرتة حقاً!
لو..

كعادته، بمحاذاة الحب يمرّ، فلن تسأله أيّ طريق سلك للذكرى،
ومن دله على امرأة، لفرط ما انتظرتة، لم تعد تنتظر.
لو..

بين مطار ومطار، انجرف به الشوق إليها فلن تصدّق أنه استدلّ
على النسيان بالذاكرة. ولن تسأله عن أسباب هبوطه الاضطراريّ.
فهو تدري، كنساء البحّارة تدري، أنّ البحر سيسرقه منها وأنّه
رجل الإقلاع.. حتماً.
ريثما يأتي.

هو سيّد الوقت ليلاً. سيّد المستحيلات. والهاتف العابر للقارّات.
والحزن العابر للامسيات. والانبهار الدائم لبيل أول.
ريثما يعود ثانية حبيبها، ريثما تعود من جديد حبيبته، مازالت في
كلّ ساعة متاخّرة من اللّيل تتسأل.. ماذا تراه الآن يفعل؟

اليوم عاد..

هو الرّجل الذي تنطبق عليه، دوماً، مقولة أوسكار وايلد «خلق
الإنسان اللّغة ليخفي بها مشاعره». مازال كلّما تحدّث تكسوه اللّغة،
ويعرّيه الصّمت بين الجمل.

وهي مازالت انثى التداعيات. تطلع وترتدي الكلمات عن ضجر جسدي.. على عجل.

هَيّذي عارية الصوت. تكسو كلمات اللقاء بالتردد بين سؤالين. تحاول كعادتها، ان تخفي بالثرثرة برؤنها امامه.

كادت تسال: لماذا ليس ابتسامته معطفاً للصمت، اليوم بالذات، بعد شهرين من القطيعة؟

ثم فكرت في سؤال آخر: اينتهي الحبّ عندما نبدأ بالضحك من الاشياء التي بكينا بسببها يوماً؟

وقبل ان تسال، بدا لها وكأنه غير مكترث إلا بصمتها امام ضحكتها. لحظتها فقط تنبّهت إلى أنّه لم يكن يرتدي معطفاً.

الحنن لا يحتاج إلى معطف مضاد للمطر. إنه هطولنا السريّ الدائم. وبرغم ذلك، ما هي اليوم تقاوم عانتها في الكلام. وتجرب معه الصمت، كما يجرب معها الآن الابتسام.

الابتسام الغائبة، صمته. أو لغته الأخرى التي يبدو وكأنه يواصل بها الحديث إلى نفسه لا إلى الآخرين. ويسخر بها من أشياء يعرفها وحده.

الذي يخفيه عنها، كثيراً ما اثار حزنها. اما الذي يثير فضولها، فلماذا تخلّى عنها ذات يوم بين جملتين، ورحل؟
تذكر أنّه، يومها، اطبق على الحزن ضحكة ومضى. دون ان تعرف تماماً ماذا كان ينوي ان يقول؟

لا تريد أن تصدق أنه يتخلّى عنها، لأنها رفضت يوماً أن ترافقه
إلى مشاهدة ذلك الفيلم الذي كان يستعجل مشاهدته.

سألته أهو فيلمٌ عاطفيٌّ.. أجاب «لا».

سألته أهو فيلمٌ ضاحكٌ.. أجاب «لا».

- ولماذا تريد أن تذهب لمشاهدته إذن؟

- لأنني أحب كل ما يثير في البكاء.

ضحكت يوماً. استنتجت أنه رجل غريب الأطوار، لا يعرف كيف
يتنبّر أمر حبّ.

وهي لا تصدق أيضاً ما قاله مرة، من أن مشاهدة الحب الكبير، أنه
يموت دائماً صغيراً. بسبب الأمر الذي تتوقعه الأقل.

أيعقل أن يكون حبّها قد مات، فقط لأنها لم تشعر برغبة في أن
تبكي معه، في عتمة صالة سينما؟

وإنما كانت تفضل لو دعاها إلى مكان آمن، بعيداً عن فضول
الآخرين، يمكنهما فيه أن يعيشا اشتعالاً عالياً..

ما تعتقده، هو كونه أراد إذلالها، كي يضمن امتلاكها. وربما ظنّ
أنّ على الرجل إذا أراد الاحتفاظ بامرأة، أن يوهمها أنه في أية لحظة
يمكنه أن يتخلّى عنها.

أمّا هي، فكانت دائماً تعتقد أنّ على المرأة أن تكون قادرة على
التخلّي عن أي شيء. لاحتفاظ بالرجل الذي تحبه.

وهكذا تخلّت ذات يوم عن كلّ شيء وجاءته.
فلم تجده.

تذكر جلست وحيدة في تلك الزاوية اليسرى، من ذلك المقهى الذي
كان يعرف الكثير عنهما، والذي أصبح منذ ذلك اليوم يحمل اسمه
خطأً «الموعد».

أحياناً، يجب على الأماكن أن تغيّر اسمها، كي تطابق ما
أصبحنا عليه بعدها، ولا تستفزّنا بالذاكرة المضادة.

الهذا، عندما طلبته البارحة هاتفياً، قال «انتظريني هناك» ثمّ
أضاف مستدرّكاً «اختراري لنا طاولةً أخرى.. في غير الزاوية
اليسرى» وواصل بعد شيء من الصمت «ما عاد اليسار مكاناً لنا».
الآن الحروب والخلافات السياسية طالت كلّ شيء، ووصلت حتّى
طاولات الغشاق وأسرتهم؟

أم لأنّه لا يريد إذلال الذاكرة، أراد لها طاولةً لا يتعرّف الحبّ فيها
إليهما، كي يكون بإمكانهما أن يضحكا، حيث لم يستطيعا يوماً البكاء؟
ها هما جالسان إلى الطاولة المقابلة للذاكرة.

هناك.. حيث ذات يوم، على جسد الكلمات أطفأ سيجارته
الأخيرة. ثمّ عندما لم يبق في جعبته شيء، نَحَنَ كلّ أعقاب الأحلام
وقال...

لا تذكر ماذا قال بالتحديد. قبل أن يحوّل قلبها مطفأةً للسجائر،
ويمضي.

منذ ذلك اليوم وهي تتصدى لشوقها الذي فحّخه بالتحدي.

تلهي نفسها عن حبه، بكراهيته، في انتظار العثور على مبرّر مشرف للاتصال به، مناسبة ما، يمكن أن تقول له فيها «الو.. كيف أنت؟» دون أن تكون قد انهزمت تمامًا.

في تمويه لإخفاقات عشقيّة، عرضت عليه يومًا أن يصبح صديقين.

أجابها ضاحكًا «لا أعرف مصافحة جسد أشتهيه». كادت تسعد، لولا أنّه أضاف «أنتِ أشهى عندما ترحلين.. ثمة نساء يصبحن أجمل في الغياب».

ولم تفهم ما الذي كان يعنيه.

أمّا الذي كان يعنيها، فأن تستمع إليه.

هوذا، لم يتغيّر. مازال يتوق إلى الكلام الذي لا يقال بغير العيين. وهي لا تملك إلّا أن تصمت، كي ينصت معنا إلى صخب الصمت بين عاشقين سابقين.

بين نظرتين، يتابع الحب تهريبه العايب. وذاكرة العشق ترتبك.

مع عاشق آخر، كان بإمكانها أن تخلق الآن ضجة وضجًا.

أن تخلق الآن للصمت صوتًا، يغطّي على صمتها. أن تخلق الآن أجوبة لكلّ سؤال.

ولكن معه، هي تحتفظ بالأسئلة، أو تطرحها عليه دفعة واحدة، دون صوت، بل بذبذبات صمت وخذّة يعرفها.

وهو، دون أن يطفى سيجارته تمامًا، دون أن يشعل رماد الأحلام،
دون أن يقول شيئًا بالتحديد، دون أن يقول شيئًا إطلاقًا، كان يعترف
لها بأنه تغير كثيرًا منذ ذلك الحين.

هو رجل يشي به سكوته المفاجئ بين كلمتين.
ولذا يصبح الصمت معه حالة لغوية، وأحيانًا حالة جوّية، تنحكم
فيها غيمة مفاجئة للذكرى.

هتمًا.. كان به شيء من الساذجة.
واللحظة أيضًا تراه. مغربًا وموجعًا في أن واحد. ولم تسأله لماذا
هو كذلك.

أيمكن للإغراء أن يكون طيبًا؟ هو الذي يوقظ شراسة الأحلام
فيها...

هي كانت تريد أن تسأله فقط : كيف هو؟
ولكن قبل أن تقول شيئًا، سرق منها السؤال نفسه الذي لن يطرح
غيره بعد ذلك، وقال: كيف أنت؟.

بين ابتسامتين لفّ حول عنقه السؤال ربطة عُقّق من الكذب
الأنيق. وعاد إلى صمته.

أكان يخاف على الكلمات من البرد؟ أم يخاف عليها هي من
الاستئلة؟

الاستئلة غالبًا خدعة، أي كذبة مهذبة نستدرج بها الآخرين إلى
كذبة أكبر

هو نفسه قال هذا في يوم بعيد، قبل أن..

تذكر قوله «تحاشي معي الأسئلة. كي لا تجبريني على الكذب. يبدأ الكذب حقاً عندما نكون مرغمين على الجواب. ما عدا هذا، فكلّ ما سأقوله لك من تلقاء نفسي، هو صادق».

يومها، حفظت الدرسَ جيّداً. و حاولت أن تخلق لغة جديدة على قياسه، لغة دون علامات استفهام.

كانت تنتظر أن تأتي الأجوبة. وعندما فقط كانت تضعها أسفل أسئلتها، دون أن تنسى أن تتبعها بعلامات تعجب، وغالباً بعلامات إعجاب.

تدريجياً، وجدت في فلسفته في التناور، من دون أسئلة ولا أجوبة، حكمة، وربما نعمةً ما.

وشكرت له إعفائها من أكايب صغيرة أو كبيرة. كانت تقترفها دون تفكير. ويدات تتمنّع بلعبة المائدة المفترضة التي لا سؤال فيها ولا جواب.

ها هوذا اليوم. هو نفسه أمام السؤال.

من الأرجح أنّه يتساءل: أيطرحه أم يجيب عنه. وهو في الحالتين كاذب.

السؤال خدعة. ومباغثة للآخر في سرّه. وكالحرب إنن، تصبح فيها المفاجأة هي العنصر الحاسم. لذا، ربما قرّر الرّجل صاحب المعطف أن يسرق منها سؤالها، ويتخلّى عن طريقته الغريبة في التناور.

تلك الطريقة التي أربكتها طويلاً، وجعلتها تختار كلماتها بحذر كل مرة، سالكة كل المنعطفات اللغوية، للهروب من صيغة السؤال، كما في تلك اللعبة الإذاعية التي ينبغي أن تجيب فيها عن الأسئلة، دون أن تستعمل كلمة «لا» أو كلمة «نعم».

تلك اللعبة تناسبها تماماً، هي المرأة التي تقف على حافة الشك، ويحلولها أن تجيب «ربما»، حتى عندما تعني «نعم»، و«قد» عندما تقصد «لن».

كانت تحب الصيغ الضبابية. والجمل الواعدة ولو كذباً، تلك التي لا تنتهي بنقطة، وإنما بعدة نقاط انقطاع.

وكان هو رجل اللغة القاطعة.

كانت جملة تقتصر على كلمات قاطعة للشك، تراوح بين «طبعاً» و«حتماً» و«دوماً» و«قطعاً».

وبإحدى هذه الكلمات، بدأت قصتهما منذ سنة. تماماً كما بإحداهن انتهت منذ شهرين.

تذكر أنه يومها، قطع المكالمة فجأة، بإحدى هذه الكلمات المفصلة، وأنها بقيت للحظات معلقة إلى خيط الهاتف، لا تفهم ماذا حدث.

اكتشفت، بعد ذلك، أنه لم يكن بإمكانها أن تغير شيئاً. فتلك الكلمات، ما كانت لغته فحسب. بل كانت أيضاً فلسفته في الحياة، حيث تحدث الأشياء بتسلسل قدرّي ثابت، كما في دورة الكائنات، وحيث نذهب «طوعاً» إلى قدرنا، لنكرّر «حتماً» بذلك المقدار الهائل من

الغباء أو من التذاكبي، ما كان لابد «قطعاً» أن يحدث. لأنه «دوماً»
ومنذ الأزل قد حدث، معتقدين «طبعاً» أننا نحن الذين نصنع أقدارنا!
كيف لنا أن نعرف، وسط تلك الثنائيات المضادة في الحياة، التي
تجاذبنا بين الولادة والموت.. والفرح والحزن.. والانتصارات
والهزائم.. والآمال والخيبات.. والحب والكراهية.. والوفاء
والخianات.. أننا لا نختار شيئاً مما يصيبنا.

وأننا في مدنا وجزرنا، وطلوعنا وخسوفنا، محكومون بتسلسل
دوريٍّ للقدر. فصلنا عن دوراته وتقلباته الكبرى، مسافة شعرة.

كيف لنا أن ننجو من سطوة ذلك القانون الكوني المعقد الذي
تحكم تقلباته الكبيرة، تفاصيل جد صغيرة، تعادل أصغر ما في
اللغة من كلمات، كتلك الكلمات الصغرى التي يتغير بها مجرى حياة!

يوم سمعت منه هذا الكلام، لم تحاول أن تتعمق في فهمه. فقد
كان ذلك في زمن جميل اسمه «بدءاً».

ولذا كم كان يلزمها من الوقت لتدرك أنهما أكملتا دورة الحب،
وأنه بسبب أمر صغير لم تدركه بعد، قد دخل الفصل الأخير من
قصة. وصلت «قطعاً» إلى نهايتها!

عندما ينطفئ العشق، نفقد دائماً شيئاً منا. ونرفض أن يكون هذا
قد حصل. ولذا فإن القطيعة في العشق فن، من الواضح أنه كان
بتمدد تجنب الاستعانة به، لتخفيف ألم فقدان.

تذكر الآن ذلك اليوم الذي قالت له فيه «أريد لنا فراقاً جميلاً...»
ولكنه أجاب بسخرية مستترة «وهل ثمة فراق جميل؟».

أحياناً، كان يبدو لها طاغية يلهو بمقصلة اللّغة.
كان رجلاً مأخوذاً بالكلمات القاطعة، والمواقف الحاسمة.
وكانت هي امرأة تجلس على أرجوحة «ريّما».
فكيف للّغة أن تسمعها مقاً؟

هو لم يقل سوى «كيف أنتِ؟» وهي قبل اليوم لم تكن تتوقع أن
يربكها الجواب عن سؤال كهذا.

وإذ بها تكتشف كم هي رهيبة الأسئلة البديهية في بساطتها، تلك
التي نجيب عنها دون تفكير كلّ يوم، غريباء لا يعنيتهم امرنا في
النهاية، ولا يعنينا أن يصنّفوا جواباً لا يقلّ نفاقاً عن سؤالهم.

ولكن مع آخرين، كم يلزمننا من الذكاء، لنخفي بالّغة جرحنا؟
بعض الأسئلة استدراج للشماتة، وعلامة الاستفهام فيها، ضحكة
إعجاز، حتّى عندما تأتي في صوت دافئ كان يوماً صوت من
أحبينا.

«كيف أنتِ؟»

صيفة كاذبة لسؤال آخر. وعلينا في هذه الحالات، أن لا نخطئ
في إعرابها.

فالمبتدأ هنا، ليس الذي نتوقعه. إنّه ضمير مستتر للتحدّي، تقديره
«كيف أنت من دوني أنا؟».

أما الخبر.. فكلّ مذاهب الحبّ تتفق عليه.

من الأسهل علينا تقبّل موت من نحبّ، على تقبّل فكرة فقدانه،
واكتشاف أنّ بإمكانه مواصلة الحياة بكلّ تفاصيلها دوننا.
ذلك أنّ في الموت تساويًا في الفقدان، نجد فيه عزّاخًا.

كانت تفاضل بين جواب وآخر، عندما تنبّهت إلى أنّ جلستهما قد
أصبحت فجأة معركة عاطفية صامتة. تدار بأسلحة لغوية متفاحة
بعناية فائقة.

وإد بالطاولة المريّعة التي تفصلهما، تصبح رقعة شطرنج، اختار
فيها كلّ واحد، لونه ومكانه. واضعًا أمامه جيشًا.. وأحصنة وقلاعًا
من الغام الصمت، استعدادًا للمنازلة.

أجابته بنية المباغنة:

- الحمد لله..

الأديان نفسها، التي تحكّنا على الصدق، تمنحنا تعابير فضفاضة
بحيث يمكن أن نحمّلها أكثر من معنى. أوليست اللغة أداة ارتياب؟
أضافت بزهو من يكتسح المريع الأول:

- وانت؟

ها هي تتقدّم نحو مساحة شتّى، وتجركه من حصانه الأول. فهو
لم يتعوّد أن يراها تضع الإيمان برنسًا لغويًا على كتفيها.
ظلّت عينها متابعتها.

هل سيخلع معطفه أخيرًا، ويقول إنه مشتاق إليها. وإنّه لم يحدث
أن نسيها يومًا؟

أم تراه سيرفع قبة ذلك المعطف، ويجيبها بجواب يزيدُها برداً؟
 أي حجر شطرنج تراه سيلعب، هو الذي يبدو غارقاً في تفكير
 مفاجئ، وكأنه يلعب قدره في كلمة؟
 تذكرت وهي تتأمله، ما قاله كاسباروف، الرجل الذي هزم كل من
 جلس مقابلاً له أمام طاولة شطرنج.
 قال: «إنَّ النقلات التي نصنعها في أذهاننا أثناء اللعب، ثم
 نصرف النظر عنها. تشكّل جزءاً من اللعبة، تماماً كتلك التي ننجزها
 على الرقعة».

لذا تمنّيت لو أنّها أدركت من صمته، بين أيّ جواب وجواب تراه
 يفاضل. فتلك الجمل التي يصرف القول عنها، تشكّل جزءاً من
 جوابه.

غير أنّه أصلح من جلسته فقط. وأخذ الحجر الذي لم تتوقّعه.
 وقال دون أن يتوقّف عن التدخين.

– أنا مطابق لك.

ثمّ أضاف بعد شيء من الصمت.

– تماماً..

هو لم يقل شيئاً عدا أنّه استعمل إحدى كلماته «القاطعة» بصيغة
 مختلفة هذه المرة. فانقطع بينهما التحدّي.

وهي لم تفهم. فعلاً.. لم تفهم كيف أنّ صمتاً بين كلمتين أحدث
 بها هذا الأثر، ولا كيف استطاع أن يسرّب إليها الرغبة دون جهد

واضح، عدا جهد نظرة كسلى، تسَلَّقت ثوبها الاسود. مشعلة حيث
مرّت فتيلة الشَّهوة.

بكلمة، كانت يده تعيد الذكرى إلى مكانها. وكأنّه، بقفا كلمة، دفع
بكلّ ما كان امامهما ارضًا. ونظف الطاولة من كلّ تلك الخلافات
الصغيرة التي باعدتهما.

هي تعرف أنّ الحبّ لا يتقن التّفكير. والأخطر إنّّه لا يملك ذاكرة.
إنّّه لا يستفيد من حماقاته السابقة، ولا من تلك الخيبات الصغيرة
التي صنعت يوماً جرحه الكبير.

وبرغم ذلك، غفرت له كلّ شيء.

«قطعاً» كانت سعيدة، بهزيمتها التي أصبح لها مذاق متأخر
للنّصر.

سعادته «حتمًا» بنصر سريع، في نزال مرتجل، خاضه دون أن
يخلع «تمامًا» معطفه!

* * *

أحببت هذه القصة، التي كتبها دون أن اعني تمامًا ما كتبت.
فأنا لم يحدث. أن كتبت قصة قصيرة. ولست واثقة تمامًا من أنّ
هذا النّص تنطبق عليه تسمية كهذه.
كلّ ما كان يعنيني، أن اكتب شيئًا. أي شيء. اكسر به سنتين من
الصّمت.

لا أدري كيف ولدت هذه القصة. أدري كيف ولد صمتي. ولكن..
تلك قصة أخرى.

منذ يومين، فاجأت نفسي اعود إلى الكتابة. هكذا.. دون قرار
مسبق، ودون أن يكون قد طرأ على حياتي أيّ حادث بالذات، يمكن
أن يكون سبباً في إثارة مزاجي الحبري.
ربّما لا شيء، عدا كوني اشتريت منذ أيّام دفترًا، أغراني شكله
بالكتابة.

حدث ذلك عندما ذهبت كي أشتري من القرطاسية، ظروفًا وطوابع
بريدية. ورأيت ذلك الدفتر مع حزمة من الدفاتر. كان البائع يفردها
أمامي وهو يقوم بترتيبها، استعدادًا لاقتراب الموسم الدراسي.
كما يتوقّف نظري أمام رجل، توقّف عند ذلك الدفتر. وكأنتني
وقعت على شيء لم أكن أنتظر العثور عليه في ذلك المحلّ البائس
الذي لا أدخله إلّا نادرًا.

البست الكتابة كالحب: هدية، تجدها فيما لا تتوقّع العثور عليها؟

ثمّة بيوت لا تستطيع أن تكتب فيها سطرًا واحدًا، مهما سكنتها،
ومهما كانت جميلة. وهذا أمر يبقى دون تفسير منطقيّ.

وثمّة أقلام، تدري منذ اللحظة التي تشتريها فيها.. والكلمة الأولى
التي تخطّها بها، أنك لن تكتب بها شيئًا يستحقّ الذكر. وأنّ مزاجها
الكسول، ونفّسها المنقطع، لن يوصلاك إلى الانفاق السريّة للكلمات.
وثمّة دفاتر، تشتريها بحكم العادة. فتبقى في جواريرك أشهرًا

دون أن توقف فيك مرة، تلك الشهوة الجارفة للكتابة، أو تتحرش بك كي تخط عليها ولو بضعة أسطر.

ولأنني أعرف هذا، كلما تقدمت بي الكتابة، ازدادت قوة عندي، تلك الحاسة التي تجعلني منذ اللحظة الأولى، أحكم على هذه الأشياء أو لها بحس قلما يخطئ.

ولذا توقفت أمام ذلك الدفتر، مدفوعة بإحساس يتجاوزني. مأخوذة بهذا «شيء» الذي لا يميزه عن بقية الأشياء في تلك المكتبة، سوى اقتناعي، أو وهمي بأنه سيميدني إلى الكتابة.

منذ اللحظة الأولى، شعرت أن بيني وبين هذا الدفتر، ذبذبات ما، تعذني بكتابة نص جميل. على هذا الورق الأبيض الأملس، الذي تضمه مفاصل حديدية. ويفطيه غلاف أسود لامع، لم يكتب عليه أي شيء.

ركضت به إلى البيت. أخفيت، وكأنتني أخفي تهمة ما. ولم أخرجه سوى البارحة، لاكتب فيه تلك القصة القصيرة، التي قد يكون عنوانها «صاحب المعطف».

كعادتي عندما أنتهي من الكتابة ليلاً، عدت إلى قراءة ذلك النص أول ما استيقظت.

كنت على عجل. أريد أن أعرف إن كانت تلك القصة جميلة حقاً، كما كانت تبدو لي لحظة كتابتها. وربما كنت أريد أن أتأكد فقط، من أنني كتبت فعلاً، شيئاً ذلك المساء.

لهذا قراتها عدة مرّات، بنشوة متزايدة كلّ مرّة. فقد كتبت أخيراً
نصّاً جميلاً. والأجمل أنّه خارج ذاتي. وأتني تصوّرت فيه كلّ شيء.
وخلقت فيه كلّ شيء. وقرّرت أن لا اتدخل فيه بشيء. وأن لا أسرّب
إليه بعضاً من حياتي.

وهذا في حدّ ذاته، إنجاز أدهشني. فانا لم يحدث يوماً أن تعرّقت
إلى رجل يشبه هذا الرّجل، في نفوره الجذّاب، وحضوره المربك،
رجل يفشاه غموض الصّمت والتباسه، وله هذه القدرة الخرافية على
خلق حالة من الارتباك الجميل، كلّما تحدّث، حتّى لو كان ذلك، وهو
يلفظ إحدى تلك الكلمات القاطعة، التي يتسلّى باختيارها حسب
المناسبة.

وتلك المرأة أيضاً لا تشبهني. إنّها تنطق بعكس ما كنت سأقول،
وتتصرّف بعكس ما كنت سأفعل. وهي تعتقد بحماقة أنثى، أنّ الذين
نحبّهم، خلقوا ليتقاسموا معنا المتعة، لا الألم، وأنّ على الرّجل الذي
يحبّها أن يبكي وحده. ثمّ يأتي ليطمئنّ بها، أو معها.

بل إنّها من سذاجتها، وجدت في تيّك الكلمتين اللّتين لفظهما
دليلاً على حبّه لها.

في الواقع، إن يجبها عن سؤالها «كيف أنت؟» بقوله «أنا مطابق
لك... تماماً». فهذا لا يعني سوى أنّه قرّر أن لا يقول لها شيئاً.

وإذا كان ما أسعدني في هذه القصّة، كونها ليست مطابقة
لحياتي، فإنّ مطابقتها للحياة أمر جعلني أنزعج من هذا المنطق

العجيب للأقدار، الذي يجعل دائماً في كلِّ علاقة، بين رجل وامرأة، طرفاً لا يستحق الآخر. وربما تمعّنت سرّاً، لو كان هذا الرجل لي. إنّه على قياس صمتي ولغتي. وهو مطابق لمزاج حزني وشهوتي.

ولكن هذه لم تكن مشكلتي. وهذه القصة لم تكن قصّتي. أو بالأحرى، حتّى الآن، لم تكن كذلك.

ولذا، وضعت لها ذلك العنوان، الذي لم أجهد نفسي كثيراً للعثور عليه. وعدت إلى مشاغلي.

لا شيء كان يهيئني لأصبح طرفاً في هذه القصة. أو للدخول في مغامرة أدبية طويلة النفس.

هذه القصة أردتها قصيرة قدر الإمكان، بعيدة عني قدر الإمكان، سريعة الوقع، سريعة الخاتمة. ولكن كالأعشاب البحرية، ظلّت جُمَلها الأخيرة عالقة بذهني. وعبثاً حاولت أن ألهم نفسي بأمور أخرى. كان موضوع هذه القصة يطاردني. وشيء داخلي يرفض هذه النهاية.

لم يكن يعنيني لماذا افترق هذان العاشقان، وما إذا كانا سيجتمعان ثانية أم لا، ومن منهما خسر رهان التحدي.

قصّتهما التي دخلتها مصافحة، كمن يفاجئ نافذة مقابلة لشرفته مفتوحة، فيتلصّص على من فيها.. لا تأثير فضولي.

وحده ذلك الرجل يعنيني.

بي فضول نسائي لفهمه. بي رهان لجعله يخلع ذلك المعطف.. بي تحدّ ليس أكثر.

قبل هذه التجربة، لم اكن اتوقّع، ان تكون الرواية اغتصاباً لفوقياً
يرغم فيه الروائيّ ابطاله على قول ما يشاء هو، فيأخذ منهم عنوة كلّ
الاعترافات والأقوال التي يريدّها لأسباب أنانية غامضة، لا يعرفها
هو نفسه، ثمّ يلقي بهم على ورق، ابطالاً متعبين مشوّهين، دون أن
يتساءل، تراهم حقاً كانوا سيقولون ذلك الكلام، لو أنّه منحهم فرصة
الحياة خارج كتابه؟

اكتشافي هذا، لم يغيّر نيّتي في إرغام هذا الرّجل على الكلام.
فلا شيء سواه يعنيني. صمته المكابر يريكني. معطفه السّميك
يزعجني. وكلماته القاطعة أصبحت مقصلة لأيّ مشروع نصّ قادم.
ومن الواضح أنّه لن يكون بإمكانني أن اكتب شيئاً قبل أن ينطق هذا
الرّجل.

وهكذا جلست إلى دفتري. ورحت أوصل كتابة القصة وكأنتي لم
اتوقّف بالأمس عن كتابتها.

* * *

ذات مطر.. جاء صوته على الهاتف.
ويرغم البرد، بدا وكأنّه خلع معطفه وهو يسألها:
- كيف أنتِ؟ أما زال لك ذلك الولاء للمطر؟

ولم تدبر، أكان لابد أن تستنتج أن في أسئلته عودة إلى حبها، أم
أن المطر هو الذي عاد به إليها؟

فهي لم تنسَ قوله مرة «الأسئلة تؤرطُ عشقي». تمامًا كما تذكر
ذلك الموعد الذي جمعهما مرة في سيارته، بينما كان المطر يهطل
بغزارة.

اكتشفت يومها جمال أن يكونا عاشقين، لا عنوان لهما سوى
مسكن عابر للحب، له حميمية سيارة.. في لحظة ممطرة.

كانت تشعر أنهما أخيرًا وحيدان. ومختبئان عن كل الناس.
يفطيهما ستار من الأمطار المنزلة على زجاج النافذة.

يومها، كانت تريد أن تقول له أشياء لا تقال إلا في لحظة كذلك.
ولكنه أوقف سيارته إلى جانب الرصيف. وكأنه يوقف لندفاعها
بين جملتين. وقال وهو يشعل سيجارة:

- لا جدوى من الاحتماء بمظلة الكلمات.. فالصمت أمام المطر
أجمل.

لم تناقشه في رأيه.

اكتفت بوهام امتلاكه، مسجونًا هكذا معها في يوم ممطر، داخل
سيارة، تتقاسم معه أنفاسه، ورائحة تبغ، وصوت المفاتيح في جيبه،
وهو يبحث عن ولاعة.

تراقبه في دفء تلمله البطيء جوارها، وحضوره الهادئ المبرك،
بمحاذاة أنوثتها، مأخوذة بكل تفاصيل رجولته.

لطالما دوّختها تفاصيل الرّجولة، تلك التي لها كبرياء الإيحاء،
وذلك الاستفزاز الحميميّ الصامت الذي تشي به ذنوبات لا علاقة
لها بالفحولة، تلتقطها الأنوثة.. وتقع في عبوديتها النّساء.
بعدها عادت إلى البيت باكتشاف صنع في شتاءات أخرى
حزنها.

فقد أدركت، من فرط سعادتها معه يومها، أنّنا لسنا متساوين
إمام المطر. ولذا، عندما يغادرنا الحبّ، ونجد أنفسنا وحيدين في
مواجهته، علينا أن نتجاهل نداهم العشقيّ المرجع، واستفزازه
الساديّ لنا، كي لا يزيد من المأنا، كوننا ندري تمامًا أنّه يصنع، في
اللّحظة نفسها، سعادة عشاق آخرين.
أجل.. أحياناً، ليس أكثر ظلماً من المطر!

ومى ما زالت تتسائل لآية نشرة جويّة تراه يُعدّها.
هل عاد لأنّه يريدّها؟ أم هل جاء استباقاً لرائحة التّراب بعد
المطر؟

هو الذي لا يحبّ من الصّحو سوى تلك التّربة المبلّلة التي يخلفها
الشتاء. فيستنشق رائحتها، بحواسّ متوهّجة، وكأنّه يشتمّ أنفاه بعد
الحبّ.

ولكنّه سألها:

- هل أراك غداً؟ فكّرتُ أنّه يكون جميلاً، لو ذهبنا لمشاهدة ذلك
الفيلم معاً.. في يوم ممطر.

وقبل أن تسأله عن أيّ فيلم يتحدث. وأصل:

- اتدريين أنّه مازال يعرض في القاعة نفسها منذ شهرين؟ إنّها
عمر قطيعتنا.

لم تحاول هذه المرة أن تخرع له اعدارًا. سألته فقط :

- أين نلتقي؟

قال:

- في سينما «أولمبيك» قبل عرض السّاعة الرّابعة.

ثمّ استدرك:

- أو إذا شئت.. انتظريني عند مدخل الجامعة. سامرٌ وأخذك من
هناك، عند السّاعة الثالثة والنّصف.. هذا أفضل.

وقبل أن يمنحها وقتًا تقول فيه شيئًا، كان قد وضع السّاعة
مودّعًا، ليتركها من جديد لأسئلتها.

* * *

سعدت بهذه النهاية، التي لم أجهد نفسي كثيرًا في العثور عليها.
حتّى إنني كتبتها هكذا كما جاءت. دون أن أفاضلها بأخرى، ودون
أن أشتط أيّ سطر فيها، أو أعيد قراتها كعادتي أكثر من مرّة .

وكأنّني أريد بذلك أن أقنع نفسي بأنني لست من كتّبتها.

ولكن أليس ثمة دائمًا أمر ما تخفيه الكلمات، حتّى عندما تأتي

بتلقائية مريبة؟ بل إن تدفقها تلقائياً هكذا، على نحو أو آخر، هو ما يجب أن يدعو إلى الريبة.

يحدث للغة أن تكون أجمل مثلاً. بل نحن نتجمل بالكلمات نختارها كما نختار ثيابنا، حسب مزاجنا، ونوايانا.

هناك أيضاً، تلك الكلمات التي لا لون لها، ذات الشفافية الفاضحة. كامرأة خارجة توءاً من البحر، بثوب خفيف ملتصق بجسدها. إنها الأخطر حتماً، لأنها ملتصقة بنا، حدّ تقمصنا.

وهذا الرجل الذي كان يصرّ على الصمت، وأصرّ أنا على استنطاقه، ويصرّ على إبقاء معطفه، وأصرّ على تجريده منه، ما زال يربكني في كلّ حالاته، حتّى عندما يخلع صمته.. ويلبس صوتي وكلماتي المبلّلة.

ما قد جعلته ينطق أخيراً، يقول كلاماً أردت أنا. فهل هزمت حقاً؟ وبرغم ذلك، بإمكانني أن اعترف أنّه فاجاني. لا لأنّه طلب للمرة الثانية من تلك المرأة أن ترافقه لمشاهدة ذلك الفيلم، وهو امر لا يشبهه، ولكن لأنّه اعطاها اسم قاعة سينما لم اسمع بها من قبل. ولا ادري إن كانت موجودة حقاً. لكنني لم يحدث أن ارتدت السينما في هذه المدينة، أو تابعت حتّى ما يعرض فيها من افلام.

فجأة، خطر ببالي أن ابحت في الجريدة، إن كانت هذه القاعة موجودة حقاً.

وهكذا رحت افتش في الصفحة المختصة لبرامج التلفزيون

والعروض السينمائية، معققة في أسماء قاعات السينما، الواحدة تلو الأخرى، وإذ بي أعر على قاعة (أولبيك) حيث يعرض فيلم أميركي بعنوان "Dead poets society"، من الأرجح أنه يعرض بنسخته الفرنسية: فلا أحد هنا يفهم الإنكليزية.

حاولت أن أجد ترجمة لهذا العنوان، عسى ذلك يفك بعض لغزه. فعثرت على عنوان قد يكون: «حلقة الشعراء الذين اختفوا».

ولأثني لم أصدق تمامًا أن يكون هذا هو الفيلم الذي يعنيه ذلك الرجل، فقد رحت أدقق في كل الجرائد القديمة المكساة أرضًا في مكتب زوجي، والتي يحضرها كل يوم بحكم وظيفته، فتبقى ملقاة هنا أرضًا، قبل أن يضعها بنفسه خارج مكتبه.

رحت أقلب صفحات السينما في كل الأعداد التي صادفتني. وكل مرة، كنت أعر على ذلك الفيلم معروضًا في القاعة نفسها.

آخر جريدة أوصلتني إلى ما قبل الشهر والنصف، وهو ما جعلني استنتج أن عرضه قد يعود إلى بداية الشهرين الماضيين، كما جاء على لسان ذلك الرجل. وهو أمر فاجأني، إلى حد إنهالي. فأنا لا أعرف هذه القاعة. ولم أسمع بهذا الفيلم. وكيف لي بالتالي أن أعرف أنه يعرض منذ شهرين هناك، وأن إحدى فترات عرضه تكون في الساعة الرابعة، كما تؤكد الجريدة أيضًا؟

مفاجأة الاكتشاف جرّدتني من منطق الأجوبة. فأنا لم أعد أدري إن كان قد نزل عليّ وحيّ ما، لكتابة أشياء لا علم لي بها. وهل يجب

أن احذر هذه القصة التي جاءت مخيفة في تفاصيلها، أم هل أجد فيها إشارة من القدر ووعداً بقاء ما؟

كلّ استلتي كانت تدور حول تلك الرجل. لماذا يعنيني أمره إلى هذا الحدّ؟

ولماذا يثير فيّ هذا القدر من الأسئلة؟ وهل الأسئلة حقاً.. تورط عشقي؟

أهو الذي قال هذا.. أم أنا؟

هو الذي لم يطرح سوى سؤال واحد «هل أراك غداً؟»

سؤال طرحه بالتحديد عليها هي. ولكن.. كيف لي أن أخلف، أنا الكاتبة، موعداً كهذا. ألسنت أنا التي أردته.. وحدّته. ولابدّ أن أكون هناك. كي أخلق لهما أحاديث ومواعيد وخلافات، لقاءات جميلة وخيبات، ومتعة ودهشة.. ونهايات!

إنّه امتياز ينفرده به الروائي، متوهماً أنّه يمتلك العالم بالوكالة. فيعبت بأقدار كائنات جبّرية، قبل أن يخلق دفاتره، ويصبح بدوره دمية مشدودة إلى الأعلى بخيوط لامرئية. أو تحركه كغيره في المسرح الشاسع للحياة.. يدُ القدر!

وقتها عبثاً يسبق مشاريعه قائلاً «إن شاء الله». وكأنّه يمنع بذلك رشوة للأقدار، كي تكافئه بتحقيق أحلامه.

أذكر، ذلك الذي كنت أقول له تعلّم أن تقول «إن شاء الله». سألته

يومًا «متى نلتقي؟» كان يعدّ حقيبة حزن على عجل. فاجابني على طريقته ببيت لمحمود درويش:

«نلتقي بعد قليل

بعد عام... بعد عامين وجيل»

ولم نلتق بعد ذلك أبدًا. نسي كلانا يومها أن يقول «إن شاء الله»! الهذا لم يعد؟ أم ترى لأنه ذهب ليدفن أباه بنوايا انتحارية، في ذلك البلد الذي يقتل الشعراء... ويكثر من المهرجانات الشعرية، فدفن جثة مشوهة جواره.

وكان قبلها يقول.. إنه سيفادر الشعر، ويجرّب نفسه في رواية!

اتراهما كانا سيلتقيان حقًا؟ وبماذا تراها كانت ستجيبه لو أنني تركت لها حرية الجواب؟

اتوقع أنها كانت ستردّ عليه بإحدى صيغها الضبابية. كان تقول له «ربّما نلتقي»، وهي تدري تمامًا أنها تعني «طبعًا».. وثماديًا في المراوغة ربّما قالت «قد يحدث ذلك» لِتُوهِمَهُ أَنَّ ذلك «لن يحدث».

وعندها سيرفع التحدي، ويجيبها «قطعًا.. ليس هذا بالمهمّ» ويضع السماعة مغلّقًا أزرار معطفه. مرتديًا صمته من جديد.

الصمّمت لا يزعجني. وإنّما أكره الرّجال الذين، في صمّتهم المطبق، يشبهون أولئك الذين يفلقون قمصانهم من الزرّ الأول حتى الزرّ الأخير كباب كثير الأقفال والمفاتيح، بنيت إقناعك بأهميّتهم.

إنَّه باب لا يوهي إليَّ بالطمأنينة. وما قد يخفي صاحبه خلف ذلك الباب المصحَّح من ممتلكات، لا يبهرني بقدر ما يفضح لي هوس صاحبه، وحدائه ثروته. فالأغنياء الحقيقيُّون، ينسون دائماً إغلاق نافذة، أو خزانة في قصرهم..

إنَّما المفاتيح هوس الفقراء، أو أولئك الذين يخافون إن فتحوا فمهم.. أن يفقدوا وهم الآخرين بهم!

الجميل في هذا الرَّجل أنَّه، ككلِّ أثرياء الحلم، يترك في أعلى معطفه السَّمِيك للضَّمَّت، زُرّاً واحداً مفتوحاً للوهم، كباب موارب. وريماً كان هذا بالذَّات هو الشَّيء الأكثر إغراءً فيه. فهو لا يصمت تماماً، ولا يتكلَّم إلَّا بقدر كسر الضَّمَّت بكلمات قليلة، تختصر اللَّغة. إنَّه بطل جاهز لرواية. يمنحك نفسه بالتقسيط.

وهل الرواية سوى المسافة بين الزرِّ الأوَّل المفتوح، واضر زرٌّ قد يبقى كذلك؟

ولكن، أياكون هذا الرَّجل غير موجود سوى في مخيلتي؟ وإنن، ما تفسير كلِّ تلك التفاصيل المذهلة، التي لم أكن قد سمعت بها قبل كتابة تلك القصة؟

وبرغم كوني لا اصدِّق أولئك الكُتَّاب الذين يدَّعون أنَّ لَمَّة قوَّة خارقة تعلي عليهم ما يكتبون، لا اعتقد أيضاً، أن تكون هذه التفاصيل مجتمعة، هي من حكم المصانفة.

اتراني قد وقعت تحت إغراء الكتابة وفشتنتها لاصدِّق أنَّ هذا الرَّجل هو الذي أملى عليَّ موعداً.. كتيبه بيدي؟

أحبّ تلك اللحظة التي يفاجئني فيها رجل. حتّى عندما لا يشبه
بعد ذلك وهمي به.

إنّ كلّ قصة مع رجل ترسو بك على شاطئ المفاجأة. أمّا إذا كان
هذا الرجل زوجاً، فستوصلك القصة حتماً إلى سلسلة من المفاجآت.
في البدء، نحن ندري مع من تزوّجنا. ثمّ كلّما تقدّم بنا الزّواج، لا
نعود ندري مع من نحن نعيش!

الأكثر غموضاً ومفاجأة، ذلك الجيل من الرّجال، الذين ينتمون
إلى حروب طويلة النّفس، ابتلعت طفولتهم وشبابهم دون رحمة،
وحولتهم رجالاً عنيفين، وسريعي العطب في أن واحد، عاطفيين
وجبابرة في الوقت نفسه.

أولئك يخفون داخلهم دائماً رجلاً آخر، لا أحد يدري متى
يستيقظ وطفلاً لم يكونوا على أيّامه، قد اخترعوا لعبة «الليفو»،
ليتمكّن كلّ الأطفال، من التدرّب على تركيب قطعها حسب مزاجه
الطفولي، ثمّ فكّها من جديد.

أتوقّع أن يكون زوجي قد ولد بمزاج عسكريّ، وحمل السلاح قبل
أن يحمل أيّ شيء. فإين العجب في أن يكسرني أيضاً دون قصد،
تماماً، كما أغراني قبل ذلك بسنوات، دون جهد؟ أليست السكّطة،
كالثراء، تجعلنا نبدر أجمل وأشهى؟

أوليست النّساء كالشّعوب، يقعن دائماً تحت فتنة البذلة العسكريّة
وسلطوتها. قبل أن ينتبهن إلى أنّهنّ يانبهارهنّ بها، قد صنعن قوّتها؟

صحيح أنه فعل ذلك تدريجياً، وبكثير من اللباقة، وربما بكثير من التخطيط، وأنني كنت أمضي نحو عبوديتي بمشيتي، ومن الأرجح.. دون انتباه. سعيدة بسكينتي أو استكانتي إليه. تاركة له الدور الأجل. دور الرجولة التي تأمر، وتقرر، وتطالب، وتحمي، وتدفع.. وبقمادى.

كنت أجد في تصرفه شيئاً من الأبوة التي حُرمت من سلطتها. بينما يجد هو في تسلطه استمرارية لهامه الوظيفية، خارج البيت.

أذكر.. بدأت علاقتنا بانبهار متبادل ويعنف التحدي المستمر. كان لابد أن أتوقع أن العلاقات العنيفة هي علاقات قصيرة بحكم شراستها. وأنه لا يمكن أن نضع كل شيء في علاقة؛ لا يمكن أن نكون أزواجاً، وأصدقاء، وأباء، وأحبة، ورموزاً.

أما هو، فمن الأرجح أنه كان في هذا المجال أيضاً، يفكر بمنطق العسكر الذين، عندما يصل أحدهم إلى السلطة، يصرّ على شغل كل المناصب الرئيسية في الدولة، وكلّ الحفائب الوزارية الهامة، معتقداً أن لا أحد غيره جدير بأن يشغلها، بل وأن وجود شخص غيره فيها هو احتمال دائم للإطاحة به.

ولهذا لم يترك في حياتي مساحة حرّة، يمكن أن يتسلّل منها أحد. فقد سطا على كلّ الكراسي، دون أن يشغل أحدها بجدارة.

تنبّهت بعد ذلك، إلى أن أبوته هي التي كانت تعني لي الأكثر. وأن مهامه السياسية ورتبته العسكرية لم تكن تعينني بوجاهتها، وإنما

لكونها استمرارًا لذاكرة نضالية نشأتُ عليها، وعنفوان جزائر حلمت بها.

كنت أرى في قامته الوطن، بقوة وشموخه. وفي جسده الذي عرف الجوع والخوف والبرد، خلال سنوات التحرير، ما يبرّر اشتغائي له.. واحتفائي به إكرامًا للذاكرة.

كم مرّ من الوقت، قبل أن أكتشف حماسة خلطي عقدة الماضي.. بالواقع المضادّ.

...تمامًا، كخلطي الآن، بين وهم الكتابة.. والحياة، وإصراري على الذهاب إلى ذلك الموعد الذي اقنعت نفسي عبثًا بأنني لست معنية به، وأنه سيتمّ بين كائنات حبرية. لا يحدث أن تغادر عالم الورق؟ ورغم ذلك أمضي..

دون أن أدري أنّ الكتابة، التي هربتُ إليها من الحياة، تأخذ بي منحنى انحرافيّ نحوها، وتزجّ بي في قصة ستصبح، صفحة بعد أخرى، قصتي.

دوماً

بين الرغبات الأبدية الجارفة.. والأقدار المعاكسة.. كان قدري.
وكان الحب يأتي، متسللاً إليّ، من باب نصف مفتوح، وقلب
نصف مغلق.

أكنت أنتظره دون اهتمام، تاركة له الباب موارباً. متسلية بإغلاق
نوافذ المنطق؟

قبل الحب بقليل، في منتهى الالتباس، تجيء أعراض حب
أعرفها. وأنا الساكنة في قلب متصدع الجدران، لم يصبني يوماً،
هلع من ولع مقبل كإعصار.

كنت استسلم لتلك الأعاصير التي تغير أسماءها كل مرة، وتأتي
لتقلب كل شيء داخلي.. وتمضي بذلك القدر الجميل من الدمار.

دوماً..

كنت أحبهم. أولئك العشاق الذين يزجون بأنفسهم في ممرات
الحب الضيقة، فيتعفرون حيث حلوا، بقصة حب وضعتها الحياة في
طريقهم، بعد أن يكونوا قد حشروا أنفسهم بين الممكن والمستحيل،

أولئك الذين يعيشون داخل زويدة الحب التي لا تهدأ، مأخوذون بعواصف الشغف، مذهبون أمام الحرائق التي، مقابل أن تضىء، أيّاماً في حياتهم، تلتهم كل شيء حولهم، جاهزين تماماً.. لتلك اللحظات المضيئة خلسة، والتي ستخلف داخلهم عندما تنطفئ: رماد انطفائهم الحتمي.

أحبهم.. وربما كنت أشبههم.

ولكن هذه المرة، توقعت أنني أذكى من أن اتعثر في قصّة حبٍ وضعها الأدب في طريقي. لا ليختبر قدرتي على الكتابة، وإنّما ليختبر جرأتي على أخذ الكتابة مأخذ الحياة.

كنت، في الواقع، مأخوذة بمقولة لأندريه جيد «إن أجمل الأشياء هي التي يقترحها الجنون ويكتبها العقل».

مأخوذة بها إلى درجة أنني، عندما اقترح عليّ الجنون أن اذهب إلى موعد ضريه بطل في قصتي لامرأة أخرى، أخذت اقتراحه مأخذ الجد، وقررت أن اذهب بذريعة كتابة شيء جميل.

كنت مرتبكة لعدّة ساعات قبل الموعد، ذلك الارتباك الذي يسبق لقاء لا ندري ماذا ينتظرنا فيه، ولكننا نصرّ على الذهاب إليه، لأن شيئاً ما يأمرنا بأن نذهب.

صحيح أنه كان بي فضول لمعرفة ذلك الرجل، وفضول آخر لمشاهدة ذلك الفيلم. فقد يكون الطريق الأقصر لفهمه.. وفهم إصراره على مشاهدته.

ولكن كنت اعمى تماماً أنني ارتكبت حماقة غير مضمونة العواقب،
بذهابي بمفردي لمشاهدة فيلم، في مدينة مثل قسنطينة، لا تتراد فيها
النساء قاعات السينما. فما بالك إذا كانت هذه المرأة زوجة احد كبار
ضباط المدينة، وتصل إلى السينما في سيارة رسمية، لتجد في
انتظارها جيشاً من الرجال الذين لا شغل لهم سوى التحرش بانثى،
على قدر كافر من الحرية او من الجنون، لتجلس بمفردها في قاعة
سينما.

ولهذا، تعمّدت ان اصل متأخرة عن الفيلم بربع ساعة، كي لا أقف
في طابور الانتظار، او ادخل القاعة على مرأى من الناس.

...تماماً كما طلبت من السائق ان يعود قبل موعد انتهاء الفيلم
بربع ساعة، تفادياً لتلك الاضواء التي ترافق نهاية كل عرض، وتجعل
الناس يتفحصون بعضهم بعضاً بفضول كبيراً ما أريكني.

ولأنني وصلت بعد فترة من بدء الفيلم كان لي حرية اختيار
مكاني، وهو الامر الذي مكّنتني من الوقوف لحظات، وإلقاء نظرة على
الجوّ العام للقاعة التي بدت لي نصف فارغة.

كما توقّعت، كان الحضور جميعه رجالاً. ومن الأرجح أن يكون
من الشبان، الذين جاؤوا لإهدار الوقت في قاعة السينما، بدل إهداره
وهم مُتَكِنُونَ على جدار.

وحدهما رجل وامرأة، كانا يجلسان على انفراد في آخر القاعة
ويبدو أنهما كانا هنا لسبب آخر.

استنتجتُ انهما «هما» فاخترتُ لي مكانًا خلفهما تمامًا، وكأنتي
أحتمي بهما، أو أتجسّس عليهما.

أتوقّع أنّ وجودي أزعجهما. ولكنّهما وجدّا في أنوثتي ما يبعد
الرعب عنهما.

ما أتمسّ العشاق في هذه المدينة التي يعيش فيها الحبّ ممسكًا
أنفاسه، جالسًا في عتمة الشبّهات على كراسي مزقّتها بسكينٍ أيدٍ لم
تلامس يومًا جسد امرأة.

انشغل عنهما بمتابعة الفيلم الذي وصلته، مع وصول البطل إلى
الصفّ، في أوّل الموسم الدّراسي.

إنّه أستاذ تجاوز سنّ الأربعين بوضع خيبات. دائم السخرية
بشيء من الرومنطيقية وربما الحزن المستتر. لقد عاد بعد جيل وأكثر
إلى المعهد الذي درس فيه، ليعمل مدرّسًا في مادة الأدب. ومن
الواضح أنّه جاء لينقذ الطلبة من الأخطاء التي سبق أن تعلّمها على
هذه المقاعد نفسها، أو تلك القناعات التي تروى عليها.. وتكفّلت
الحياة بتكذيبها بعد ذلك.

يدخل الصفّ بشيء من الاستفزاز المرح، وهو يصفر، أمام دهشة
الطلّبة الذين لم يتعودوا تصرّفًا كهذا، في مؤسسة دراسية صارمة،
ومشهورّة بمحافظتها على التقاليد العريقة.

يتّجه مباشرة، نحو جدار علّقت عليه صورة تذكارية، بالأسود
والأبيض، لطلّبة شغلوا هذه المقاعد الدراسية نفسها، فوجًا بعد آخر،
وجيلًا بعد آخر، على مدى قرن كامل.

ها هو يشير بيده إلى الطلبة أن يلحقوا به، يطلب منهم أن يتأملوا تلك الصور التي لم تستوقفهم قبل اليوم، ويدققوا في وجوه أصحابها، المجتمع في صور جماعية للذكرى.

يلحق به الطلبة مندهشين، فيباهرهم وكأنه يواصل حديثاً سابقاً، أو كأنه يقنم لهم نفسه، كواحد سيمر الآخرون أمام صورته.. على أحد جدران هذا المعهد دون انتباه:

«كل الذين ترونهم على هذه الصور، بهيئاتهم الرياضية التي تشبه هيناتهم، وعنفوان شبابهم الذي يشبه عنفوانكم، بابتسامتهم العريضة، وطموحاتهم الكبيرة، ومشاريعهم، وأحلامهم، وثقتهم المطلقة في الحياة، كما هي الآن ثقتكم، جميعهم الآن.. عظام تحت قبور فاخرة. لقد ماتوا كما ستموتون!».

وقبل أن يستوعب الطلبة هذا الكلام الغريب، لأستاذ يروونه لأول مرة، يواصل :

«كل واحد فيكم هنا، ذات يوم سيتوقف فيه كل شيء، ويبرد جسده، ثم تأكله الديدان، وكأنه لم يكن.

«انظروا.. إنهم ينظرون إليكم الآن، كأنهم في صورهم هذه، يقولون لكم كلاماً لا بد أن تنصتوا إليه. تعالوا.. اقتربوا.. حاولوا أن تلتقطوا كلماتهم...».

يقترّب الطلبة مذهولين من جدار تغطيه الصور العتيقة، فيأتيهم صوت الأستاذ من الخلف. وكأنه يتحدث على طريقة المهرجين الذين

يحركون بحية بيدهم، وهم يتكلمون على لسانها بصوت باطني، دون أن يحركوا شفاههم.

«استفيدوا من اليوم الحاضر.. لتكون حياتكم مذهلة.. خارقة للعادة. اسطوا على الحياة.. امتصوا نغاعها كل يوم مادام ذلك ممكناً. فذات يوم لن تكونوا شيئاً.. سترحلون وكأنكم لم تأتوا...»

ثم يواصل بصوت عادي:

«كان هذا درسكم الأول. بإمكانكم الآن أن تعودوا إلى مقاعدكم.. وافتحوا كتاب الأدب...»

لم يمنعي انشغالي بمتابعة الفيلم، من التفكير في الرجل والمرأة الجالسين أمامي، واللذين جنّت أصلاً لمتابعتهما.

كانا صامتين. لا أدري أكانا حقاً مشغولين بمتابعة الفيلم، ولكنهما لم يتبادلا أية كلمة.

ورغم ذلك، كنت أشعر كأنّ تعليمات الأستاذ ونصائحه، قد تركت تأثيراً فيهما. وبدا لي كأنّ اليد اليمنى للمرأة، كانت تتحرك ببطء نحو ذلك الرجل، وتتقدّم نحوه بإصرار.

وهو ما شجّعني على الاعتقاد بأنّها هي المرأة «ذاتها». مادامت ليست معنية بهذا الفيلم، بقدر ما هي معنية بالتحرّش بهذا الرجل.

من الواضح أنّها مشتاقة إليه. والأ فماذا عدا الحبّ، يمكن أن يأتي بها إلى هنا، لتكون الأنثى الوحيدة، في قاعة كهذه، لمشاهدة فيلم كهذا؟

شعرت بشيء من الشفقة عليها. وربما بشيء من الشفقة على نفسي أيضاً. مادمتا موجودتين هنا من أجل الرجل نفسه.

هذا الرجل الذي يبدو لي من الخلف، يقارب الأربعين، بشعر مرتّب، وهيأة محترمة مقارنة بـ «بني عريان» وكلّ الذين لا يوحى شكلهم بالأمان في هذه القاعة، من الأرجح أنّه «هو». إنّهُ يرتدي معطفاً، يقف الآن ليخلعه، ويضعه على ركبتيه، بطريقة يغطّي بها ركبتيّ تلك المرأة أيضاً. ولن يكون من الصعب بعد الآن أن أتصوّر ما سيلي ذلك!

في هذه اللحظة، حضر رجل ليأخذ مكانه على الكرسي المجاور لي تماماً. وهو ما زاد في إزعاجي، وجعلني أندم على حماقة مجيئي إلى هذه القاعة، معرضة نفسي للشبهات. فلا أحد هنا سيصدق أو سيفهم أن أكون كاتبة جاء بها الفضول، وأرادت أن تتلصّص على عاشقين، اعتقدت أنّ من حقّها أن تندسّ بينهما، لأنّها خلقتهم!

هما الآن يتبادلان اللّمسات المشبوهة على مرأى منها.

وهي تحاول أن تقنع نفسها بأنّها كاتبة، وكاتبة فقط، وأنّ الذي يحدث أمامها يعنيها لفهم أبطال روايتها، لا أكثر.

وهي تدري أنّها تكذب، وأنّ الذي يعنيها هو هذا الرجل، صاحب المعطف، الذي ربّما جاء بها إلى هنا لتعذيبها بمغازلة امرأة أخرى في حضرتها لا أكثر، بعد أن أغراها كأمراة بشيء غير معلن لا اسم له، وأوهمها ككاتبة، بأنّه يخفي سرّاً ما تحت معطف صمته، شيئاً يبرز هذه المجازفة.

ها قد خلع معطفه. ليس لها، ولا بسببها. ولكن، ليصنع منه غطاءً
يلامس تحته جسد امرأة جالسة إلى جوارها!
إنه في النهاية، ينتمي إلى السلالة الأسوا من الرجال، تلك التي
تخفي خلف رصانتها ووقارها، كلُّ عَقد العالم وقذارته.
كأولئك الذين يجلسون جوار زوجاتهم، بهيبة وصمت. ثم يتركون
لأقدامهم حُرّة مدّ حديث بذّي تحت الطاولة!

ليس هذا الاكتشاف هو الذي صدمني، بقدر ما أزعجني غبائي
في هذه القصة التي تصرفت فيها منذ البدء بحماقة مثالية. واختلقت
مواقف وحوارات ومواعيد، فقط كي أعيش في رومانسيّة الحبّ
الواهمة.

حتّى إنني صدّقت أنّ بإمكان رجل أن يغادر دفاتري، ويضرب لي
موعداً خارج الورق.

من الواضح الآن أنّ ذلك كان ضريباً من الجنون.
في لحظة من الخيبة كدت أهماً بمغادرة القاعة، والهروب من هذا
الجوّ المويوم الذي وضعت نفسي فيه، لولا أنّني تذكرت أنّ السائق لن
يحضر قبل انقضاء ساعة. وأنّني لم أتمكن من متابعة الفيلم الذي
تقول لافتة، عند مدخل القاعة، إنّهُ حصل على عدّة جوائز عالمية.
وهكذا عدت لاتباع الفيلم، محاولةً تجاهلّ ما يحدث حولي.

كان الأستاذ يلقي درساً في كيفية فهم الشّعْر، حسب ما جاء في

مقدمة الكتاب المعتمد للتدريس. والتي كتبها أحد كبار المراجع المختصة في النقد، شارحاً فيها كيف يمكن تقويم قصيدة، ومقارنتها بأخرى، معتمدين على خط عمودي وآخر أفقي، يلتقيان لبشكلاً زاوية مستقيمة، على كل خط فيها درجات نقيس بها عمودياً المعنى، وأفقياً المبنى. وهكذا، بإمكاننا أن نكتشف ضعف الشعاع أو قوته، بين قصيدة وأخرى، ومقارنته بشاعر أو بأخر، حسب مقاييس حسابية دقيقة.

وبينما كان الطلبة منهمكين في رسم خطوط عمودية وأفقية على دفاترهم، ناقلين ما يكتبه الأستاذ على السبورة، إذ به يتوقف فجأة ويمحو كل شيء، ويفاجئهم قائلاً:

- طبعاً.. ليس هذا صحيحاً. لا يمكن أن نقيس الشعر طولاً وعرضاً وكأننا نقيس أنابيب معدنية..

اندهاشنا، انبهارنا، انفعالنا، هو الذي يقيس الشعر. أمام قصيدة، النساء يغمى عليهن. والآلهة تولد. والشعراء يكون كأطفال.

من يقيس دموعنا، فرحنا، وكل ما يمكن أن تفعله بنا قصيدة؟
أندرون لماذا نقرأ أو نكتب الشعر؟ لأننا جزء من الإنسانية. كيف يمكن أن نقيس إنسانيتنا بمقاييس حسابية؟ مرّقوا كل ما كتبتموه على دفاتركم!

يصمت قليلاً، ثم يضيف:

- ولا بأس أن تمرّقوا أيضاً هذه المقدمة!

ينظر إليه الطلبة، متسائلين عن مدى جدية ما يأمرهم به. ولكن
أمام إصراره، لا يملكون إلا أن يقتلعوا الصفحات الأولى من الكتاب،
ليكون كتابًا لا مكان فيه لشيء عدا الشعر.

إثناء ذلك، كان يمرّ أمامهم بسلة المهملات، طالبًا بعد آخر، يجمع
الأوراق الممزقة، بشيء من الغبطة التي وحده يدرك سببها.

إنه لم يعطهم درسًا في فهم الشعر. وإنما درسًا في فهم الحياة.
وشجاعة التشكيك في كل شيء حتى ما يروونه مكتوبًا في كتب
مدرسية، تحت توقيع اسم كبير.

وخاصة، الجراءة على تمزيق كل ما يعتقدونه خاطئًا، وإلقائه في
سلة المهملات!

لا أدري إلى أي مدى تجاوزت القاعة مع هذا المشهد الجميل،
وهل وجد فيه البعض ما يبرّر مواصلة تمزيقه للكراسي.

أما ذلك الرجل الجالس أمامي فكان منهمكًا في البحث عن قلم
ورقة، ما كاد يعثر عليهما، حتى راح يكتب شيئًا، توقّعتة خاطرة
يسجلها على ورقة.

لم أقاوم فضول استراق النظّر إلى ما كتب. مصطنعة حركة
تقربني إلى الأمام.

ماذا لو كان يكتب شيئًا بنية أن أطلع عليه؟ فلقد لاحظ وجودي
خلفه، ونجسّسني عليه.

وقبل أن الملح على الورقة رقمًا، من الأرجح أنه رقم هاتفني، شعرت

أَنْ شَيْئًا قَدْ وَقَعَ مِنِّي. تَحَسَّسْتُ أَنَّنِي، وَإِذَا بِهِ قَرطِي قَدْ سَقَطَ أَرْضًا.
انحنيت لأبحث عنه، مستعينة بشمع ضوء قائم من الشاشة، وإذا
بولاعة تشتعل على مقربة مِنِّي، ورجل ينحني ليضيء لي المكان.

فاجاني وجود هذا الرجل، الذي كدت أنسى أَنَّهُ جالس جوارِي.
وربَّما كان عطره، أو رائحة تبغه هو ما فاجاني الأكثر. فقد شعرت
أَنَّهُ يباغطني، وأنَّ رجولته تفتحمني في تلك العتمة. وهو هنا، على
بضعة أنفاس مِنِّي، يتابع بحثي عن شيء ما، دون أن يقول شيئًا،
وحَتَّى دون أن يسألني عمَّا كنت أبحث عنه. وكانَ تلك الشَّملة التي
يمسكها بيده، ليست سوى لإضاءة وجهي.

رفعت عينيَّ عن الأرض، متسلِّقة بنظرات بطيئة صدره. ثمَّ عندما
وصلت إلى وجهه، كانت عيناه مفاجئتي.

كانت لهما تلك النظرة التي أعطتها العتمة عمقًا مريبًا، بقدر ما
هو مُفَرِّق.

لم يكن بإمكانني أن أدرك، ما لونهما بالتحديد. ولكن أدركت أَنَّهُ لم
يكن بإمكانني أن أواصل النَّظر إليهما.

فجأة قرَّرت أن أكفَّ عن البحث.

لم يعد أمر القرط يعنيني. ولا ضياعه يزعجني. كلَّ الذي يشغلني
نظرات هذا الرجل، أو على الأصحَّ حضوره المريب.

أصلحت من جلستني، بعد أن قلت له بصوت خافت بضع كلمات
من باب اللياقة:

- اعتذر.. لقد أزعجتك.

ولكنّه اطفأ ولأعته وقال وهو يعيدها إلى جيبه:

- قطعاً..

وعاد إلى مشاهدة الفيلم.

. كلمته الفريدة شدتني. وسمرتني في مكاني. فقد لفظها وكأَنَّه يلفظ كلمة السرّ التي لا يعرفها سوانا.

ألقي بها في وجهي وكأنه يرمي إليّ ببطاقة تعريفه، بنبرة موجزة فيها شيء من الاستفزاز المهدّب.. أو السخرية المستترة. ولم يصف شيئاً إليها.

هل صمت كي يقنعني بحجة قاطعة، أنّه رجل اللّغة القاطعة؟

مذ تلك اللّحظة، لم يعد بإمكانني أن أركّز على أيّ شيء ممّا يحدث حولي..

الحبّ يجلس دائماً على غير الكرسيّ الذي نتوقّعه. تماماً، بمحاذاة ما نتوقّعه حبّاً.

وأنا التي خبرت طويلاً هذه الحقيقة، كيف جلست أكثر من ساعة، جوار رجل لم أُولِ اهتماماً لوجوده. مشغولة عنه برجل آخر، يجلس أمامي. جاء دون أن يدري، متنكراً في زيّ الحبّ، فقط لأنّه يرتدي معطفاً ويجلس صحبة امرأة!

وهذا الذي قال «قطعاً» وصمت، ماذا لو لم يكن هو؟ لو أنّه قال

هذه الكلمة دون تفكير؟ لو أنه جلس هنا، فقط لأنه المكان الأقرب في الصف الأخير؟ لو أن الحياة أرادت أن تسخر منّي، ككاتبة، مركّبة؟

تسألت ذاتها: ما هي نوعية المسافة التي تفصلنا عما نشتهي؟
أتراها تقاس بالمكان؟ أم بالوقت؟.. أم بالمستحيل؟
وأي منطق هو منطق الرغبة؟ أ يكون منطقاً لغوياً أم منطقاً زمنياً..
أم منطق ظرف تضعك فيه الحياة؟

وهذا الرجل الذي انتقل بكلمة واحدة، من خانة الغرياء إلى الرجل المشتبه، كيف تمكّن من التنقل في سلم الركب بهذه السهولة؟
ترى تواطت معه اللّغة؟ أم العتمة؟ أم هذا المكان الملتبس بين الوهم والحقيقة. بين النهار والليل. بين الحلم والواقع. بين الأدب والحياة؟

لو أنه تحدّث لمساعدني بعض الشيء، على فهم ما يحدث. ولكنّه لم يفتح آية نافذة للكلام. وظلّ مشغولاً عنّي بمتابعة ذلك الفيلم. دون أن يتوقّف أثناء ذلك عن بثّ زبذبات حديث يقال صمتاً، في عتمة الحواس.
وأنا نفسي، لم أجد معه شيئاً يمكن أن يقال، وقد انطفا معه الكلام، لتشتعل به مساحات الصمت.

لا أدري كم قضينا من الوقت على هذا النّحو. هو يتابع الفيلم، وأنا أتابعه هو. أو أسترق النظر أحياناً، إلى عاشقين، لم يعد أمرهما يعنيني، ولا ما يقولان يسعفني في شيء، مذ قال هذا الرجل، كلمة واحدة.. وصمت!

اثناء انشغالي به، مرّت مشاهد واحداث، حاولت عبثاً ان اركز عليها، غير ان احدها استوقفتني.

كان الاستاذ يشرح درساً ما. عندما راح يوضح للطلبة ان وجهة نظرنا في أي امر، تختلف حسب موقعنا، والزاوية التي نقف فيها. ولذا طلب منهم ان ياتوا صوبه، ويصعدوا الواحد تلو الآخر فوق مكتبه، كي يروا من حيث هم كيف ان قاعة الصف نفسها تبدو مختلفة، عندما نراها من فوق مكتب الاستاذ، من الجهة المقابلة لنا.

فالطريقة الصحيحة لفهم العالم. هي في التمرد على موقعنا الصغير فيه، والجرأة على تغيير مكاننا وتغيير وضعيتنا، حتى بالوقوف على طاولة، عوض الجلوس امامها والالتكاء عليها.

كان يتحدث. بينما كان الطلبة يتتالون على مكتبه صعوداً ونزولاً. يستبقي بعضهم قليلاً، طالباً منهم اخذ مزيد من الوقت، للنظر إلى الاشياء من حيث هم، فينظرون إلى مقاعدهم الفارغة دونهم.. ثم ينزلون، مندهشين.

وفجأة، وبعد اجواء مرحة. يأخذ الفيلم منحى مأساوياً، بانتحار طالب قرّر ان يخوض تجربة مسرحية سرّاً، وضدّ مشيئة ابيه، الذي بعث به إلى هذا المعهد الراقي والباهظ التكاليف، كي يصبح طبيباً.. ولا شيء غير هذا.

يحدث ذلك في الليلة التي يقدم فيها عرضه المسرحي ببراعة جعلت القاعة تقف لتصفّق له طويلاً، بينما يحضر أبوه الذي يسمع بالأمر، ليؤنّبه ويهينه امام الجميع، ويعود به إلى البيت.

عندها، اتجهت اصابع الاتهام نحو الأستاذ الذي غدّه الأهل سبباً
لانتحار ابنهم. وقررت إدارة المعهد طرده لأنه أفسد تفكير الطلبة
وحرضهم، بطريقته الغريبة في التعليم، على التمرد.
وطالبت الإدارة الطلبة بتوقيع عريضة أعدتها ضده، مهددة كل
من يرفض توقيعها بعقوبة الطرد.

كانت بي رغبة في مشاهدة نهاية الفيلم، ومعرفة ما إذا كان
الطلبة سينتخلون عن الأستاذ الذي علّمهم كل شيء بما في ذلك
الدفاع عما يعتقدونه حقيقة، أم هل تراهم سينهزمون، أمام أول
مساومة دنيئة تضعهم أمامها الحياة، لولا أنني تنبّهت إلى مرور
الوقت، واقترب نهاية الفيلم، الذي سيفاجئني الضوء بعده، ويحرق
شريط حلمي ويحوّلني كما في قصة سندريلا من سيّدة المستحيل،
إلى امرأة عادية، تجلس في قاعة بائسة، جوار رجل قد لا يستحق
كل هذه الأحاسيس الجميلة التي خلقها داخلي.

وكنت قد ينسّت من مباغته هذا الرجل لي بكلمة، تؤكّد أو تنفي
ظنوني. ولذا قرّرت أن أباغته بانصرافي. فوقفت وتوجّهت إليه
بكلمات أردتها عادية قدر الإمكان:

- عفواً.. هل تسمح لي بالمرور؟

وجاء جوابه كلمة واحدة:

- حتماً..

ووقف، ليلتصق بكرسيه، تاركا لي ما يكفي من المسافة، ليلامس جسدي جسده من الخلف، دون أن يحتك به تماما.

مسافة، لم اعد ادري اَعْبَرْتُهَا في لحظة، ام في ساعات. ولكنها المسافة الصغيرة، والكبيرة في آن واحد، تلك التي عندما نقطعها، نكون قد تجاوزنا عالم الحلم، إلى عالم الحقيقة.

اكانت كافية.. ليلتصق بي عطره، ويخترق حواسي حدًا يقاقي بعد ذلك اشهرًا، أمام رجولة لن استدلّ عليها سوى بعطرها؟

أعتقد أنّ نظراته قد رافقتني حتّى مغادرتي القاعة. فقد أحسست بها تودّعني بصمت، ولكن دون أن يكلف نفسه مشقة استبقائي بكلمة.. أو بسؤال.

من الأرجح، أنّه كان مأخوذاً بنهاية الفيلم. فلحظة غادرت القاعة، كان الأستاذ يجمع أشياءه من الصفّ. بينما كان ينوب عنه المدير العجوز في إعطاء درس الأدب، في انتظار تعيين أستاذ جديد.

كان المدير يبدو صارماً ومتحمّساً لإصلاح كلّ ما أفسده هذا الأستاذ. حتّى أنّه طلب من التلاميذ أن يفتحوا كتبهم على الدرس الأوّل. لأنّه يريد تعليمهم كلّ البرنامج الدّراسيّ منذ بدايته.

ولكنّه فوجئ بهم، بملكون نسخة مختلفة عن نسخته؛ تنقصها تلك المقدّمة النقدية.

فقد ذهب الأستاذ، ولكن بعد أن القى إلى سلّة المهملات، كلّ ما كان يعتقدّه غير صحيح. ولم يعد بإمكان أحد بعد الآن يقنع الطلبة بشيء مزقوه ورموه.

كان الأستاذ يراقب المشهد بصمت. وهو يغادر الصف محملاً
بأشياءه الصغيرة، على مرأى من المدير.

وعندما وقف ليلقي نظرة أخيرة على طلبته، نهض أحدهم وصعد
على مكتبه ليودعه من علوه، دون أدنى كلام، بذلك القدو من صمت
البكاء.

لحظتها.. كانت عدوى الشجاعة تنتقل إلى بقية الطلبة، الذين
راحوا يصعدون الواحد بعد الآخر على طاولاتهم ليودعوا صمتاً ذلك
الأستاذ الذي طرد من وظيفته، لأنه علمهم الوقوف على المنوعات
والنظر إلى العالم بطريقة مختلفة.

وكما في الحياة، كان هناك قلة فضلكوا البقاء جالسين على
كراسي الخسوع، تملقاً للمدير.

ولكنهم في انحنائهم، لم يكونوا ليستوقفوا النظر، فقد قصرت
قامتهم. وسط صف أصبح واقفاً كله على الطاولات!

كان الأستاذ يغادر الصف. وكنت أغادر القاعة، واثقة من أنني
تقاسمت مع ذلك الرجل الغريب لحظة بكاء، بعدما تقاسمت معه
لحظات من الرغبة الصامتة.

ولم يكن مهماً لحظتها أن تكون تلك المرأة التي جلست إلى جواره
«هي» أم «أنا»؛ فقد حدثت الأشياء بيننا كما أرادها في عتمة قاعة
سينما.

ما كدت أرى السائق في انتظاري عند الباب، حتى القيت بنفسي داخل السيارة على عجل، وكأني أريد أن احتفظ بتلك الأحاسيس الجميلة، في مكان مطلق.

خفت على ذلك الشيء الجميل، الذي عشته بصمت جوار رجل غريب، أن ينطفئ داخلي بسرعة، أن يقتله أو يبعثه الشارع، بضوئه، وضجيج، وفضول ماركه، ويؤس واقعه.

كان شيئاً شبيهاً بتلك اللحظات التي نعيشها مع شخص لا نعرف شيئاً عنه. نتقاسم معه كرسيّاً مجاوراً أو مقابلاً في عربة ميتر، أو في مقطورة، مسافة من الزمن، دون أن نتبادل شيئاً، عدا النظرات المتواطئة. ثم نزل مكتفين بمتعة الصمت، ولحظات شفافة مرّت بنا كشال من دانتيل الشهوة. وخلفت داخلنا كل تلك الفوضى الجميلة. وإحساساً غريباً بأننا قد لا نرى هذا الوجه بعد ذلك أبداً، وأنه كان يكفي قليلاً من الشجاعة.. وكلمات فقط.. كي يصبح لذلك الوجه اسم وعنوان.

ولكن، ماذا نفعل بمتعة المجهول.. إذن؟

* * *

في المساء، كنت أرتب حقيبة يدي عندما عثرت على ذلك القرط الذي توقّعت قد ضاع مني. كان قد وقع داخلها.

تسألت.. أيمن لشيء صغير إلى هذا الحد أن يغيّر مجرى

قصّة؟ وهل كان لي أن أتنبّه لوجود تلك الرّجل إلى جوارِي - وليس أمامي - لولا تلك الحادثة الصغيرة التي دونها كنت على الأرجح، عدت إلى البيت، واثقة من حماقة مراهنتي على الأوهام؟

نعم.. اليست حياتنا في النهاية إلّا نتيجة مصادفات، وتفاصيل أصغر من أن نتوقّعها على قدر من الأهميّة، بحيث تغيّر أقدارنا أو قناعاتنا؟

تفاصيل، في حجم تيّك الكلمتين، اللّتين على صفرهما، جعلتاني أصدّق أنّ الأحلام الأكثر جنونًا قابلة للتحقيق، وأنّه لا حدود بين الكتابة والحياة.

منذ البدء، أخذت بجماليّة تلك العلاقة الغريبة، والمستحيلة، وبذلك الحبّ الافتراضيّ الذي قد يجمع بين رجل من حبر وامرأة من ورق، يلتقيان في تلك المنطقة الملتبسة بين الكتابة والحياة، ليكتبا معًا، كتابًا خارجًا من الحياة وعليها في أن واحد.

أكثر من انبهارِي بشخصيّة ذلك الرّجل، ومساحة الظلّ فيها، كنت مبهورة بلقائنا المحتمل بين عتمة الحبر.. وعتمة الحواسّ.

كلّما تعمّقت في هذه الفكرة، كنت أزداد تصديقًا أو تورطًا في مقولة أندريه جيد، واثقة تمامًا بكتابة قصّة حبّ من الجمال إلى درجة لم يعبُد بها الجنونُ أيّة كاتبة قبلي! الجنون.. بدايته حلم.

وحلمي اللّيلة، أن أسكن جسد تلك المرأة التي ذهبت، نيابة عنها، لمشاهدة فيلم.

أودّ لو استعمرت جسدها لمدة كتاب، كما تستعير النساء عادة مصاغاً، أو ثوباً يرتدينه لغرس.

في هذه المدينة التي تستعير فيها النساء من بعضهن بعضاً كل شيء، ويتبادلن كل شيء، أنا التي اعرت الجميع كل ما في خزانتي، ماذا لو استعمرت الشيء الوحيد الذي لا املكه حقاً؟

جسد امرأة غيري، وجهها، ملامحها، ذاكرتها العشقية، قصتها مع رجل يعنيني أمره، وعنيني أكثر أن اتأكد من كوني لم احلم.. ولم اجن. وأنتي جلست فعلاً إلى جواره لمدة ساعتين.. وأنه قال لي خلالهما كلمتين!

أودّ لو كان بإمكانني أن أنتكر في زيتها، ليكون لي حق رؤيته في الضوء، لا في العتمة.

أن نتبادل كلاماً طبيعياً، لا كلمات قاطعة، أو متقاطعة كذلك التي تبادلناها.

أن نجلس متقابلين، لا متجاورين، في الزاوية اليسرى أو اليمنى، في أي مكان كان.

ولكن كيف؟ وأين؟

تستدرجني هذه التفاصيل، إلى فكرة على قبر من الجنون، فأركض نحو مكتبي، أحضر الدفتر الأسود. وأشرع في قراءة تلك القصة، قافزة على الأسطر، لاهثة النظرات، بحثاً عن شيء محدد، ما أكاد اعثر عليه، حتى اتوقفت عن القراءة، بفرحة من عثر على شيء. أضاعه في البحر.

أغلق الدفتر، وأتنفّس الصّعداء. فقد عثرت على اسم المقهى الذي
كانا يلتقيان فيه.

وهذه المرّة أيضاً.. لم أكن قد سمعت به من قبل!

سائق الأجرة الذي طلبت منه مرافقتي إلى مقهى «الموعد»، بدأ
عليه شيء، من الاندهاش، جعلني أعتقد أنّ لا وجود لهذا المقهى.

غير أنّه سلّني، وهو يراني محمّلة بالجرائد والأوراق، بنية
التمويه، إن كنت أقصد المقهى القائم بجوار حيّ الفويور. أحبّته
بالإيجاب، تفادياً لمزيد من الأسئلة.

ولكنّه راح يمدّ معي حديثاً عن الأوضاع الأمنيّة، وعن شرطيّ
القوا به ليلة البارحة من الجسر، وعن فتاة ورفيقتهما اختطفنا أثناء
عودتهما من المدرسة.. ودُبحتا.

كنت أستمع إليه وهو يسرد عليّ أخبار الأقارب والجيران
والزبائن. وكلّ ما سمع به من مصائب. ولا أدري أكان من الأفضل
أن أسايره بالحديث، فأشغله عن فضوله تجاهي، أم أصمت، كي لا
أشجّعه على تكثير مزاجي. فانا أدري تماماً أنّ الوضع الأمنيّ سيئ
هذه الأيام. وهو أحد أسباب زيارة زوجي للعاصمة. ولست في حاجة
إلى مزيد من التفاصيل، في هذا الصباح بالذات..

كنت أعني أنني اقترب حمافةً أخرى، بذهابي إلى مكان لا أعرف
شيئاً عنه. حتّى إنّي لست واثقة من وجود ذلك الرّجل فيه. ولم احتط،
سوى في ذهابي إليه صباحاً، في ساعة لا يكون مكتظّاً فيها

بالزيائن. وهو الوقت الذي أتوقع أن يلتقي فيه الثنان، لو أنهما أرادا التلاقي في مقهى.

أما الجرائد والأوراق التي أحملها، بنية الترميم، فيبدو أنها قد تكون سبباً إضافياً للمتاعب، ولن تقيني من شبهات أخرى.

في النهاية.. لم يكن لي من شيء احتمى به في ذلك الصَّبَاح، سوى مقولة للشاعر الإيرلندي شينماس هيني «امشي في الهواء.. مخالفاً لما تعتقده صحيحاً»

ومكثدا.. رحلت أمشي نحو قدرتي، عكس المنطق.

كان المقهى أكثر هدوءاً مما توقعت. وبرغم ذلك دخلته بارتباك واضح. فانا لا أدري عَمَنْ جئت أبعد، ولا أين يجب أن أجلس، ولا ماذا يجب أن أطلب، وهل أخفي أوراقتي أم هل أفردها على الطاولة.. وكائنتي جئت هنا لأكتب.

وقبل كل هذا.. أية زاوية يجب أن أختار للجلوس. كي لا أخطئ باختيارها قصدي.

هو قال «احجزني لنا طاولة أخرى.. في أية زاوية عدا الزاوية اليسرى.. ما عاد اليسار مكاناً لنا».

أيعني أنني يجب أن أجلس في الزاوية اليمنى من المقهى وانتظر؟ أم أجلس في الزاوية اليسرى، ترفقاً لمن سيأتي ويجلس إلى يميني؟! بدا لي المكان شاسعاً. يجلس في ركن أيسر منه شابٌ وفقاة،

مأخوذين بنقاش حول أمر ما. وفي زاويته اليمنى رجل بقميص أبيض دون ربطة عنق، منهمك في الكتابة. أمامه أوراق.. وجراند.. وكثير من أعقاب السجائر.

٦

جلست في الزاوية المقابلة له. محافظة على مسافة ثلاث طاولات بيننا، تحسبًا للخطأ.

بدت منه التفاتة فضولية. نظر إليّ بعض الشيء. وإلى الجراند التي وضعتها على الطاولة. ثم عاد إلى الكتابة.

لم أفهم يومًا، كيف يكون بإمكان البعض أن يكتب هكذا في مقهى أو في قطار. دون أي اعتبار لحميمية الكتابة.

أن تجلس لتكتب في مكان علني، كأن تمارس الحب على وقع أزيز سرير معدني. وبإمكان الجميع أن يتابعوا عن بعد، كل أوضاعك النفسية، وتقلباتك المزاجية، أمام ورقة.

حاولت أن أنشغل عن ذلك الرجل، ولكنني لم أتوقف عن متابعته.

أنهلني غيابه لحظة الكتابة. وذهلني أكثر أنه يكتب كلامًا في صيغته النهائية. دون تفكير، أو تردد، أو شطب.

كان يتوقف أحيانًا. يأخذ نفسًا من سيجارته. ثم يعود إلى الكتابة.

في لحظة ما، بدا لي وكأنه على وشك أن يبادرني بالكلام. فقد توقف بين جملتين. وراح ينظر إليّ دون أن يقول شيئًا. توقعت التفاتة تفضحه. ولكنه كان وكأنه ينظر إلى شيء وحده يراه. ولم أجد شيئًا

أهرب إليه من نظرتك تلك، سوى فتح جريدة كانت معي.. ورحلت
أطالعها كيفما اتفق.

بدأت منه لحظتها، ابتسامة مريكة، لم أفهمها تماماً! أكان يسلم
عليّ بها؟ أم يشفق عليّ من وحدتي؟ أم يسخر مما أقرأ؟ أم يقول
لي فقط إنه تعرف إليّ!

ربما كانت تلك المرة الأولى التي أطلت فيها النظر إلى ملامحه.
كان على قدر من الوسامة. وكنت أشعر بموجة غامضة تجاه هذا
الوجه، وضعف، تجاه هذا الحضور الرجالي الصامت الذي لا يشبه
في شيء التصرفات الذكورية في هذه المدينة.

إحساس ما، كان يقول لي إنني في زمن ما، أحببت رجلاً يشبهه،
أو إنه يشبه تماماً رجلاً ساحبه يوماً.

ورغم ذلك لم أجرو على القول إنه «هو»، قبل أن تصدر عنه أية
التفاتة تشي به.

أكان منشغلاً عني حقاً؟ أم كان فقط يتحرش بي بصمته. يجلس
أمامي هكذا على مرمى قدر. ينتظر سؤالاً يأخذنا إلى شيء قد يحضر؟
أنا المرأة الجبانة التي لم تبادر يوماً رجلاً بالكلام، كيف لي أنا
أشأغه، أن أشعل تلك الإشارات الصغيرة التي ستجعله يوقف الكتابة
ويقول لي شيئاً؟

كم تمنيت لحظتها أن ينطق! ولكنه كان يعبث بي، بكلام لا يقال إلا
صمتاً... ويدخلني في حالة من الارتباك الجميل.

اثناء تفكيري، جاء النادل وسألني ماذا أريد. لا أدري لماذا أجبته على غير عادتي «قهوة».

ربما لأنسيه أنوثتي. مادام الرجال يطلبون عادة قهوة. ذهب ولم يعد.

ولم يعنني كثيراً أنه لم يأت بقدر ما كان يعينني قدوم رجل مميز المظهر، يرتدي قميصاً أسود ونظارات شمس سوداء، في العقد الرابع من عمره. له خطى واثقة، وأناقـة رجولة، في غنى عن أي جهد. بدا على الرجل وكأنه يعرفني، أو كأنه فوجئ بوجودي هناك؛ فقد ألقى نحوي نظرة مندهشة، ثم سلاماً ودياً بإشارة من رأسه. وذهب للجلوس جوار ذلك الرجل، الذي توقف أخيراً عن الكتابة. وراها يتبادلان حديثاً، لم يصلني منه شيء.

داهمني شعور بالندم. وربما بالضالة، كلما طال حديثهما، وكلما طال انتظاري لشيء لا يأتي.

عندما تنتظر أحداً، أنت لا ترى شيئاً بعينه، ولا تتأمل شيئاً بالتحديد؛ نظراتك مبعثرة كمزاجك. والذي تنتظره قد يأتي من اللامكان، ويفاجئك وسط ذهولك، وفوضى أفكارك... واستلثك.

من هو هذا الرجل؟ هل تعرف إلي؟ بل كيف أتعرف إليه؟ وهذه المرأة التي سطوت على هويتها، ما شكلها؟ ما لون شعرها؟ ما هي عاداتها في السلام... عاداتها في الكلام... عاداتها في الانتظار؟ وهذا الرجل الذي بادرني بالسلام ومضى، تراه يعرفني؟ أم

يعرف أخي.. أو زوجي؟ أم تراه يعرفها؟ ولماذا يتألمني هكذا؟ تراني
أشبهها؟ تراه كان ينتظرني أم كان ينتظرها؟ أم مره كان موجوداً
هنا للتحدث إلى هذا الصديق لا أكثر . وماذا لو كان «هو»؟

أبحث في عينيه عن شيء ما، عن ذكرى.. عن شوق مؤجل، عن
بقايا حزن سرّي، عن حبّ مات في هذا المكان.

ولكنّ عينيه المختلفتين خلف نظارات سوداء، لا توصلاني إلى أيّ
جواب. بينما يطالعني هو عن بعد، دون أن تفضحه نظراته.

أن يسترق النظر إليّ أثناء حديثه، هذا لا يعني شيئاً؛ أي رجل
غيره، كان تصرف كذلك، على الأقلّ من باب الفضول، إن لم يكن من
باب التحرش الصامت بأنثى تجازف بالجلوس بمفردها في مقهى
بمدينة كهذه.

وماذا لو كان صديقه، هو الرجل الذي جئت من أجله، وأنّه يمثل
معي دور التجاهل كما فعل طوال عرض الفيلم، إنّ هذا النور يشبهه
تماماً. إنّ رجل يشي به الصمت، وتلك الزاوية اليمنى التي اختارها
للجلوس مقابلاً للذاكرة.

أخيراً جاء النادل بفنجان القهوة، وضعه أمامي، أو بالأحرى رمى
به أمامي، وذهب.

انتبهت لعدم وجود السكر جواره، كما هي العادة. رفعت يدي
لأناسيه، ولكنني عدلت؛ فقد كان بعيداً، ولم أشأ أن أرفع صوتي لأقول
كلاماً ثافهاً مثل «يا خويا.. يعيشك.. جيبلي سكرية..».

شعرت أنّ صمتي أجمل من أن أكسره لأقول شيئاً لنادل،
خاصّة أنّ عواقب ما سأقوله قد لا تكون محمودّة، حسب ما توهي
به لحيته.

فقد يرفض أن يعطيني السكر. وقد يطلب منّي أن أذهب إلى
بيتي، وأشرب قهوة بالسكر أو بالقطران.. إذا شئت. هذا إذا لم يقلب
عليّ فنجان القهوة.

فمنذ الأزل، الجزائر بلد يمكن أن يحدث لك فيه أيّ شيء مع
نادل!

كذلك الحادثة التي روتها لي صديقة صحافيّة كانت موجودة في
السبعينات في نزل فخم بالعاصمة، مع وفد من الصحافيين الأجانب،
بمناسبة الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة. وبعد انتظار طويل، وبعد أن
ينست من إحصار طلباتها، استدعت النادل، وقالت له على طريقة
الشرقيين:

- نحن ننتظر منذ نصف ساعة، عليك أن تولينا اهتماماً خاصاً.
إنّنا ضيوف لدى الرئاسة!

ولكنّه ردّ عليها بطريقة لا يتقنها غير الجزائريين:

- مادمت ضيفة عند الرئاسة.. روي لعند بن جديد «يسريلك».
ومضى ليتركها مذهولة.

طبعاً عندما عادت إلى سوريا وروت هذه الحادثة، لم يصنّفها

أحد. فعندنا فقط، يطلب التّادل من رئيس الجمهورية أن يخدم ضيوفه.. بنفسه!

امام ما اعرف من قصص. عدلت عن طلب أي شيء من ذلك التّادل. خاصة أنّني في وضع «مشبوه» بالنّسبة إليه.

حتّى إنّني، لم تكن بي رغبة في النّهاية لاحتساء تلك القهوة. ولكن.. فجأة وقف ذلك الرّجل ذو القميص الأسود، واتّجه نحوي، وفي يده صحن عليه بعض قطع من السّكر.

لا ادري كيف انتبه لما كنت سأطلبه، رغم كونه كان يبدو منشغلاً بالحديث إلى صديقه.

إحساس غامض انتابني وهو يقترب منّي. ويمدني بذلك الصحن الصغير. عطره الذي اخترق حواسّي، أعادني إلى العطر الذي شمعته في السّينما، عندما اقترب ذلك الرّجل منّي ممسكاً ولّاعة. فانتابني مزيج من الخوف والاندھاش.

وحدها نظرتّه كانت تنقص، ليكتمل المشهد. ولكن كان باستطاعته أن يثير داخلي الأحاسيس نفسها، ويقول الشّيء نفسه، دون أن يخلع نظاراته السّوداء؛ فقد أصبح لهذا العطر ذكرى تفودني في عمّة الحواس.. لاستدلّ عليه.

ولذا لم أقاوم رغبة في استدراجه، أو في اختباره، وأنا أكرّر معه المشهد نفسه، مستعملةً الكلمات نفسها:

- أسفة.. لقد أزعجتك..

وجاءني الرّد، مذهلاً في تطابقه:

- قطعاً..

وكما في المرة الأولى قالها ومضى، دون أن يضيف شيئاً.
أما أنا، فمن ذهولي بقيت لحظات أتابع عودته إلى تلك الطاولة.
وجلوسه بالتلقائية نفسها التي غادرها بها:
لحظات.. أتأمله، قبل أن اصنّق رداً لفرط ما ازدته بدا لي كأنني
توهّمته.

لم يكن قرطبي هو الذي وقع منّي هذه المرة. وإنما قلبي الذي
أصبح بكلمة واحدة يقع مغنى عليه كلما خطر للحب أن يلعب معي
لعبة الغميضة، ويضعني أمام رجلين، عليّ كلّ مرة، أن أتعرف بكلمة
واحدة إلى أحدهما!

كنت ما أزال تحت وقع تلك الكلمة، عندما رأيتهما ينهضان. بدت
من الرجل صاحب القميص الأبيض إشارة من رأسه كأنه يودّعني
بها، رافقتها نظرة غائبة تُعدّ بشيء ما. ومضى.
لاحظت أنه كان يرتدي بنطلوناً أبيض أيضاً، بينما توجه نحو
الأخر، ممسكاً جريدة، لم تكن معه عند مجيئه.
وقف برهة أمامي.. ثم سألني:

- أسمحين لي بالجلوس؟

كان يجب أن أقول «لا». أو في حالة أخرى «تفضل» ولكنني
أجبت:

- طبعاً ..

لكنّه لم يجلس. قال وهو مازال واقفاً:

- في الحقيقة .. أنا أكره هذا المكان .. وأفضل أن نذهب لتناول شيء معاً في مقهى آخر .. أيزعجك هذا ..؟
أجبتّه:

- قطعاً ..

طبعاً، كان يجب أن أقول العكس. ولكن وجدّني لا أملك من لغة سوى لغته، خاصة أنني وجدت في عدم حبه لهذا المكان، دليلاً آخر على كونه «موه».

أخرج من جيبه قطعة نقدية، تركها على الطاولة، ثم قهوتي. ثم بلياقة فاجائتي، سحب الكرسي الذي أجلس عليه، ليساعدني على مغادرة المكان.

ولم أملك سوى أن اتبعه. أو بالأحرى أن أتبع شيماس هيني وأواصل مشي في الهواء، مخالفة لما اعتقده .. صحيحاً!

أمام باب المقهى أوقف سيارة أجرة بإشارة من يده وجلس جوار السائق. ووجدتني الحق به، وأجلس خلف سائق شاب، فاجائتي طبيته. ممّا جعلني أغفر له ضيق سيارته، وحرارتها القائلة.

كنت سأفتح النافذة. ولكنني خفت أن يزيد هذا من احتمال رؤية الآخرين لي. فرحت أنتظر أن ينطق هذا الرجل .. لتتعلق بنا السيارة أخيراً.

- هل تعرف مكانًا يمكن أن نذهب إليه؟

التفت السائق دهشًا نحوه؛ فلم يحدث أن طرح عليه راكب سؤالاً كهذا.

تأمّله بشيء من السخريّة. ربّما أشفق علينا، أو بارك جنوننا..
قال:

- أين تريدان الذهاب؟

اجاب اللون الاسود:

- إلى أيّ مكان لا يزعجنا فيه أحد. هل هناك مقهى، أو قاعة شاي هادئة؟

ابتسم الرّجل ساخرًا من طلبه. من الأرجح أن يكون قد استنتج أنّنا غرباء.

أدار محرك سيّارته وطار بنا.

كان الطريق بعيدًا بعض الشيء. ورغبة لم تفارقني أثناءه، بالجلوس أخيرًا إلى هذا الرجل. أن أكون جواره أو مقابلة له، لا خلفه كما أنا الآن. يصلني منه بعض عطره، تحمله نحوي نسمات سيّارة مسرعة. فأتفاسم معه مجرى الهواء.. وكثيرًا من صمت الأسئلة.

أوّلها: لماذا جلس جوار السائق؟ الیضع بیننا مسافة ما.. لسبب أو لآخر، أم لأنّ أيّ سائق (أجرة) في الجزائر يشترط عليك أن تجلس جواره لا خلفه؟ وقد يذكرك بهذا، صارخًا في وجهك «ياخو.. مانیش خدام عندك!..»

أما السؤال الأهم فهو ليس سبب جلوسي وراءه وإنما طبعاً سبب وجودي معه.

ما الذي أوصلني إلى هنا؟ ترى فضولي الأدبي هو الذي جعلني ادخل مغامرة على هذا القدر من الغرابة؟

أم تراني أذهب نحو الحب بذريعة الأدب؟

وكيف يمكن لرجل لم يقل لي سوى بضع كلمات، أو بالأحرى كلمة، أن يأتي بي حتى هنا، دون أن أسأله حتى من يكون، وكأن كل قدراتي العقلية قد تعطلت، لتتوب عنها حواسي. فالحق رجلاً اختزن جسدي رائحته؟

في لحظة ما، كدت أسأله «ما اسم عطرك يا سيدي؟» ثم ترددت.

جنون أن أسأل رجلاً عن اسم عطره، قبل أن أسأله عن اسمه.

أما أن أسأله عن اسمه الآن، فسيأخذ السؤال بُعد الإهانة للحلم.

الحلم لا اسم له.

وهو، تراه يعرف اسمي؟ وأي الأسماء تراه يعرف.. اسمي أم

اسمها؟ ورفقة من هو جالس.. برفقتي أم برفقتها؟ ومع من هو ذاهب

إلى هذا العنوان الذي لا يعرفه، معي، أم معها؟

عند «سيّدة السلام» توقفت بنا السيّارة، أمام مقهى شاهق

الموقع، هادئ الأجواء، يطلّ على أودية لا نهاية لعمقها.

مضى السائق محملاً بشكرنا اللّغوي.. والنّقدي ليتركنا أمام

الأسئلة.

اجبنا عن سؤال النادل بالجواب نفسه: «نريد كوكا». وكائننا
نقول، نريد أن نتركنا وشأننا.
وصممتنا لنترك المجال لأسئلة أكبر.

كنت أعدّ نفسي لكلام كثير. ولكنه لم يقل شيئاً. أشعل سيجارة،
وراح ينامكني في نظرة تطالعني بين غيابين. ثم قال وهو يسكب لي
المشروب، بيد ما زالت ممسكة بالسيجارة:
- أخيراً أنت!

كان في نبرته شوق، أو اندهاش جميل. كأنما لفرطه، لا يمكن أن
تختصره أكثر من كلمتين.

شعرت أنه يواصل الحديث إلى امرأة غيري. ربّما تلك المرأة التي
لم يكن يقول لها شيئاً، عدا صمته. وربّما امرأة أخرى غيرها.
ذهلت لاستنتاج كهذا. أيعقل أن يأخذني مأخذها؟
ولكنّه واصل بما يؤكّد ظنّي:

- غريب حقاً.. أن أصادفك في ذلك المقهى. لولا صديقي لما
حضرت إلى هناك.

صمت قليلاً ثمّ واصل:

- شيء فيك تغيّر منذ ذلك الوقت. ربّما تسريحتك... أحبك
بشعرك الطويل هذا. أتدريين.. كدت لا أتعرف إليك لولا ثوبك الأسود.
سألته دهشة:

- وهل تعرف هذا الثوب؟

اجاب ضاحكًا:

- لا.. ولكنني أعرف لك طريقة في ارتداء الأسود.. لكأنه معك لون خلق للفتنة.. لا للزهد.

لم أدر كيف أردّ على غزل لم أكن مهيةً له، ولا اظنني كنت المقصودة به.

قلت وأنا أسايره في خطاه:

- أمّا أنا.. فأعترف أنك فاجأتني.. قبلك لم أر رجلاً يلبس الأسود في هذه المدينة، حتّى لو كان ذلك حدادًا. لكنّ الرجال يخافون هذا اللون أو يكرهونه.

- وأي لون توقّعت أن ارتدي؟

- لا أدري.. ولكنّ الناس هنا يرتدون ثيابًا لا لون لها.

ثمّ واصلت بعد شيء من التفكير:

- صديقك أيضًا.. يبدو غريبًا عن هذه المدينة.

ردّ ضاحكًا:

- لماذا؟ لأنّه يرتدي قميصًا.. وينطلونًا أبيض؟

- بل لأنّه يرتدي الأبيض باستفزازيّة الفرح، في مدينة تلجس النّوى بياضًا.

ابتسم وقال:

- صديقي فرحه إشاعة. إنّه باذخ العزن لا أكثر. والأبيض عنده لون مطابق للأسود تمامًا!

وامام صمتي واستغرابي لكلام من الواضح أنني لم افهمه،
واصل:

- الأبيض هو خدعة الألوان.. الا تعرفين هذا؟

قلت كمن يعتذر:

- لا.. لا اعرف.

وغرقت في لحظة صمت.

كيف لي ان اواصل الحديث مع رجل، يبدو هو نفسه كاذب
الفرح.. بقدر ما صديقه باذخ الحزن؟

وانا التي، جنث مصافحة لهذا اللقاء.. في ثوب اسود.

كيف أبعد هياتي، ولم يحدث ان اقمعت علاقات لونية مع الأشياء.

حاولت ان اغادر سيرة الألوان، كي لا ينفصع جهلي بها؛ قلت:

- عجيبة علاقتنا التي بدأت في العتمة؛ منذ ذلك اليوم وانا اريد
ان ادخل الضوء إلى هذه القصة.

ابتسم واجاب:

- ولكننا لم نلتق في العتمة..

كدت اسأله أين التقينا إذن؟ ولكن سؤالا كهذا بدا لي غريبًا.

وقد يفضخني في حال أنه يتوقعني «هي».

رحت استدرجه لاعتراف ما؛ قلت:

- أحب قصص التلاقي.. في كل لقاء بين رجل وامرأة.. معجزة

ما؛ شيء يتجاوزهما، يأتي بهما، في الوقت والمكان نفسه، ليقعا تحت

الصَّاعِقَةُ إِيَّاهَا. ولذا يظلُّ العشاق حتَّى بعد افتراقهما.. وقطيعتهما، مأخوذِينَ بجمالِيَّة لقائهما الأوَّل. لأنَّها حالة انخفاف غير قابلة التكرار، ولأنَّها الشَّيْء النقيَّ الوحيد الذي ينجو ممَّا يلحق الحبَّ من دمار.

توقَّعت أن يقول ما يشي ببقاء، أو بقصة ما. ولكنَّه قال:

- كلَّ البدايات جميلة في الحبِّ.. وأجملها بدايتها:

قلت بمراوغة الاندهاش:

- حقًّا؟

أجاب:

- طبعًا.. لأنَّها معجزة تتكرَّر معنا كلَّ مرَّة.

لم يقل أكثر من هذه الجملة، التي جعلتني أستنتج أننا التقينا قبل عرض ذلك الفيلم. ولكن أين.. ومتى؟ تلك أسئلة لم يبد مهيمًا للجواب عنها! فقد دخل في حالة صمت، واضعًا بيني وبينه جملًا من ضباب الدخان.

رحلت أتملَّه للحظات، وهو مشغول عني، بنا.. أو بها.

ثمَّ كسرت الصمت، بأوَّل جملة خطرت بذهني.

قلت:

- إنَّ رجلاً يرتدي الأسود.. هو رجل يضع بينه وبين الآخرين مسافة ما. ولذا ثمة أسئلة، لا أجروا على طرحها عليك، رغم بساطتها. إنَّك تبدو لي رجلاً يكره الأسئلة..

قاطعني شبه مندهش:

- أنا اكره الأسئلة؟ من قال هذا؟

توقّعت للحظة أنّي أخطأت. ولكنّه واصل:

- أنا أحبّ الأسئلة الكبيرة.. الأسئلة المخيفة التي لا جواب لها.

أمّا تلك الفضوليّة، فهي تزعجني بسذاجتها. وأظنّها تزعج آخرين غيري..

- وكيف تردّ إذن على أسئلة الناس حولك؟

سحب نفساً عميقاً من سيجارته وكأنّه لم يتوقّع سؤالاً.. وردّ
بنبرة لا تخلو من مسحة تهكّمية:

- الناس؟ إنهم لا يطرحون عليك عادة، إلّا أسئلة غبيّة، يجبرونك
على الردّ عليها بأجوبة غبيّة مثليها..

يسألونك مثلاً ماذا تعمل.. لا ماذا كنت تريد أن تكون. يسألونك
ماذا تملك.. لا ماذا فقدت. يسألونك عن أخبار المرأة التي تزوّجتها.. لا
عن أخبار تلك التي تحبّها. يسألونك ما اسمك.. لا ما إذا كان هذا
الاسم يناسبك. يسألونك ما عمرك.. لا كم عشت من هذا العمر.
يسألونك أيّ مدينة تسكن.. لا أيّة مدينة تسكنك. يسألونك هل تصلّي..
لا يسألونك هل تخاف الله. ولذا تعودت أن أجيب عن هذه الأسئلة
بالصمت. فنحن عندما نصمت نهجر الآخرين على تدارك خطايهم.

مذهل هذا الرّجل، بكلامه المربك كصمته، ومنطقه المعقّد والبسيط

في الوقت نفسه، وأجوبته التي ليست سوى رؤوس أقلام.. لأسئلة أخرى.

وبرغم أنه لم يترك لي مجالاً لطرح أي سؤال «طبيعي»، فقد اكتشفت في قوانين منطقته شرعية إهراجه، واستدراجه لقول حقيقة.. لن تؤخذ منه إلا بالقلوب!

ولذا بادرته قائلة بشيء من السخرية:

– أنت رجل يفري بطرح الأسئلة معكوسة.. فهل لديك شجاعة كافية للردّ على استنّتي؟

أجاب: بتحدّ مازح:

– هذا عائد إلى ذكائك!

رفعت التحدي. وطرحته سؤالي الأول:

– أي اسم كنت تريد أن تعمل؟

وجاء جوابه مدهشاً:

– الاسم الذي اخترته لي في كتابك.. إنه يناسبني

كان يضحك وهو يجيبني.

ولم أصدّق ما سمعت. جوابه كان يعني أنه يدري من أكون. ولكن، من نراه يكون هو.. ليتحدّث إليّ وكأنه خارج توأ من قصتي؟

أجبت كمن يمزح:

– ولكن.. أنا لم اختر لك اسماً بعد..

ردّ بالسخرية نفسها:

- فليكن.. يناسبني تمامًا أن أبقى بلا اسم!
 - ولكنَّ هذا يزعجني.. ألا يمكنك أن تطلع قليلاً غموضك؟
 - وحده الحب يعرفنا يا سيّدي..
 - هل أفهم أنك لست عاشقاً..
 بقي سؤالي معلّماً إلى صمته، فتداركت خطأي، وأعدت طرح
 السؤال بصيغة أخرى.

- هل حدث للحب أن عرّاك؟
 - حدث ذلك مرّة واحدة. بعدها لبست خيبيتي ولم اخلعها بعد.
 قلت بنشوة أنثى:

- إذن ليس في حياتك امرأة؟
 أجاب:

- كم يلزمني من الصمت يا سيّدي.. لأردّ على استلتك؟
 كان عليّ أن أفهم «كم يلزمني من الصبر يا سيّدي لأردّ على
 فضولك» أو ربما «لأردّ على استلتك الغبية...»
 ولكن هذه الإهانة المهدّبة ليست ما استوقفتني. وإنّما كلمة أخرى
 شديدة التهذيب.

سألته:

- لماذا تناديني «سيّدي».. من أخبرك أنني متزوجة؟
 ابتسم وقال:

- ثمة نساء خلقن هكذا بهذا القلب. جنن العالم بهذه الرتبة. وآية تسمية أخرى هي إهانة لاثنتين.

وقبل أن أسعد بجوابه، وأصل بعد شيء من الصمت:

- ما عدا هذا فحالتك المدنية لم تعد تعنيني..

صيفة النفي في جملة الأخيرة، فاجأتني. شعرت أنها تخفي سوابق ما، أو أمرًا لا يريد الإفصاح عنه.
سألته:

- لماذا قلت «لم» تعد تعنيني.. وليس لا تعنيني؟

ردّ بسؤال كاذب:

- أقلت هذا حقًا؟

وصمت.

كان واضحًا أنه يعرف شيئًا عني. والمزعج، أنني لم أكن قد عرفت بعد شيئًا عنه. ولذا قرّرت أن أواصل التحدي مستعملة طريقه المقلوبة، في طرح الأسئلة.
قلت:

- لم يحدث أن التقيت بشخص يشبهك في هذه المدينة، بي فضول لمعرفة أي مدينة تسكنك؟

ولكنه ردّ ساخرًا وكأنه اكتشف الهدف من سؤالي:

- لن يفيدك جوابي في شيء. أنا كالكتاب الذين يسكنون مدينة، كي يكتبوا عن أخرى. أسكن مدينة، لأتمكّن من حبّ أخرى. وعندما

اغادرها، لا أدري أيهما كانت تسكنني.. وأيهما سكنت. أنا حالياً
شفقة شاعرة غادرت قسنطينة عن حب.. وغادرتني هي عن خيبة!

- أنت من قسنطينة؟ عجيب.. توقعت أن تكون غريباً عنها.

- لنقل إنني كذلك.

- وماذا تعمل في الحياة؟.. أقصد ما كنت تريد أن تكون؟

قال ضاحكاً لاستدراكي، وللنبرة الساخرة التي صححت بها

سؤالي:

- في الواقع كنت أريد أن أكون ممثلاً.. أو روائياً، كي أعيش

أكثر من حياة.. إن حياة واحدة لا تكفيني. أنا أنتمي إلى جيل يعاني

ازمة عمر، وانفق حياته حتى قبل أن يعيشها.

وأضاف:

- ما عدا هذا.. أنا رسّام، وراضٍ تماماً عن مهنتي، لأنني لا أفعل

بيدي إلا ما أريد.

قاطعت مندهشة:

- أنت رسّام؟!

- وماذا توقعت أن أكون؟

- لا أدري.. ولكن..

- ولكن ماذا؟..

- كنت أعرف في السابق رسّاماً من قسنطينة.. تذكرته اللحظة.

أذكر كان مهووساً بها إلى درجة أنه لم يكن يرسم سوى..

قاطعني قائلاً:

- سرى الجسور!

صحت:

- هل عرفته أنت أيضاً؟

أبتسم وقال:

- لا... ولكن، اتوقع لرسم يحب هذه المدينة، أن يرتكب حماقة كهذه.

- لماذا تسمي هذا حماقة؟

- لنقل إنني لا أحب الجسور..

- عجيب... لقد قضى هو أشهراً في إقناعي بالعكس. توقعت أن يحب الرسّامون المعالم نفسها.

أطفاً سيجارته وكأنه يريد أن ينتهي من موضوع مزعج وقال:

- ما أدراك... ربما يكون قد غيّر رأيه منذ ذلك الحين.. وحدهم الأغبياء لا يغيرون رأيهم!

استنتجت أن حديثي عن قسطنطين يزعجه؛ فرحت أبحث عن موضوع استدرجه به إلى الكلام. وقبل أن أنطق قال وهو يتأملني:

- أحبك في هذا الثوب... الأسود يليق بك..

- حقاً؟

- حقاً. ولكن أكثر من هذا اللون. أحب المصانفة التي جعلتنا نرتدي اللون نفسه اليوم أيضاً. مازلت أذكر ذلك الثوب الذي كنت

ترتدينه يوم رأيتك أول مرة. حتى إنني كما في قصة ذاك الأمير الذي لم يبق له من (سندريلا) سوى حذاء ليتعرّف به إلى فتاة لا يعرف سوى مقاس قدمها، أتوقّع أنني لو رأيت امرأة ترتدي ثوبًا من المسلمين للحتت بها، متأكدًا من كونها أنت.

نفض سيجارته ببطء وواصل:

- الذي أحزنني يومها. هو أنني لم أستطع أن أتبادل معك ولو كلمة واحدة. كلّ الأضواء كانت ضدنا. ربّما لأننا كنّا الأجمل في زفاف كان لغيرنا. أذكر.. كانت الفرقة الموسيقية تعزف أغانيّ للفرح، عندما توقفت فجأة، وراحت تعزف موسيقى الدخلة إيمانًا بقدوم العروسين. واصطفّ على الجانبين نساء في كلّ زينتهن التقليدية، يضربن على البندير والدفوف. في تلك اللحظة بالذات، كنّا ندخل مصافحةً معًا، مرتدين اللون الأسود نفسه، عندما انطلقت زغاريد النساء حولنا. لم نكن العروسين، وجدنا هناك خطأ في تلك اللحظة، وذلك المكان بالذات. فقد كنّا سابقين للعروسين بخطوات فقط. ولكن كان مرورنا معًا في تلك اللحظة هو الخطأ الأجمل. فبعدنا بدا الموكب الشرعيّ أقلّ تألقًا في بياضه. لم يفادرنى هذا المشهد أبدًا بعد ذلك لسنوات. لكنهم زفّوك إليّ وهما في ذلك الثوب الأسود.

سحب نفسيًا من سيجارته ثم واصل:

أذكر، يومها تبعثرنا ارتباكًا في تلك القاعة. رحلت تحدثين آخر، وأحداث أخرى باهتمام مقصود. أخذ كلّ واحد منّا مكانًا في مجلس مختلف، تفاديًا لمزيد من الأضواء والأخطاء. ولكنّا لم نذهب أبعد من

بعضنا بعضاً. لقد كنّا متقابلين حتى في تجاهلنا المتعمّد أحدهنا
للاّخر. لا اعتقد أن تكوني قد اشتيتيني في البدء، ولا أنا اشتيتيك.
الحبّ هو الذي اشتهاننا معاً، وحلم ببطلين يشبهاننا تماماً، ليمثلاً
دوراً على هذا القدر من الغرابة.

كنت أستمع إليه. دون أن أجروّ على مقاطعته بكلمة. وجدت في
صمتي ملاذاً، وإيهاماً له بأنني أعرف كلّ هذا، إضافة إلى تلك
الحالة الجماليّة التي يضيفها الصمت في مواقف كهذه.

شعرت أنّه يتحدّث عن امرأة غيري. فانا لا أنكر أنّي ذهبت إلى
زفاف بمفردي ولبست ثوباً كهذا، لأنني لا املك أصلاً في خزانتي
أيّ ثوب من الموشلين الأسود. ولو حدث هذا، ودخلت قاعة زفاف
خطأً، صحبة رجل غريب على هذا القدر من التمييز، لما كنت نسيت
ذلك. ولا كانت هذه المدينة التي تحترف الإشاعات، منحنتي فرصة
النسيان.

خفت أن أصارحه، فاكسر كثيراً من جماليّة وهم كلّ منّا بالآخر.
فبقيت صامتة، كي أستمع بوضعي الملتبس بين امرأتين، واحدة
يطاردها لأنّها ترتدي الأسود، والأخرى تطارده لأنّه قال «قطعاً».

في النهاية.. كان كلانا بالنسبة إلى الآخر سنديلا والأمير في
الوقت نفسه. وكان هذا أغرب ما في قصّتنا

لم أجد شيئاً أعلّق به على كلامه. سوى جملة أردتها أن تحمل
أيّ تفسير:

قلت:

- كم لنا من البدايات لقصة واحدة!

اجاب:

- ولهذا كنت واثقاً تماماً، اننا سنتلقي.. بل إنني تصوّرت لنا لقاءً مشابهاً لهذا..

ثم توقف قليلاً وواصل:

- اتدري لماذا تركت لسائق التاكسي حرية اختيار مكان لنا، وجازفت بموعدينا الأول؟

وقبل أن أسأله «لماذا؟» واصل:

- لأنه في الحب أكثر من أي شيء آخر، لابد أن تكون لك علاقة ثقة بالقدر. أن تتركي له مفود سيارتك. دون أن تعطيه عنواناً بالتحديد. أو تعليمات صارمة، بما تعتقدينه أقصر الطرق. والآن فستسلي الحياة بمعاكستك، وتتعلّل بك السيارة. وتقعين في زحمة سير.. وتصلين في أحسن الحالات متأخرة عن أحلامك!

قلت:

- إنّ امرأ كهذا يتطلّب كثيراً من الصبر. وأنا امرأة لا تعرف الانتظار.

اجاب:

- انت لم تعرفي الحب إذن!

قلت:

- بل عرفته.. ولكن معرفتي به لم تزديني إلا عجلة. ولهذا ربما..

كثيراً ما أخطأت. علّمني الحبّ أن لا أصدقّه فما استطعت. وعلّمني أن اتعرّف إليه قبل أن احتفي به، فما استطعت. مازلت أمام قطار الحبّ. أرى في كلّ نازلٍ قدومه. فأحمل عنه أمتعته، وأسأله عن رحلته، وعن مهنته، وعن أسماء المدن التي مرّ بها، والنساء اللاتي مررن به. ثمّ أكتشف وهو يحادثني، أنّه أخطأ بين قطارين وجهته.. فانهب نحو حبّ آخر. وأتركه مذهولاً من أمرٍ جالساً على حقييته!

كان يستمع إليّ بشيء من الاهتمام، الذي قد يكون سببه احتمال أن يكون هو أيضاً. في تلك اللحظة جالساً على حقييته.. دون علمه.

الهذا قال وهو ينفذ رماد سيجارته في المنفضة ببطء مدروس:

- اتّمنّى أن تغادري بعد الآن هذه المحطة

ساد بيننا شيء من الصمت، الذي لم أعرف كيف أكسره سوى بسؤال بدا لي ساذجاً بعد جملة كهذه.

كان الأصح أن أقول «كيف؟» ولكنني سألته:

- لماذا؟

وجاء الجواب مباغتاً في صرامته:

- لأنني آخر راكب ينزل من هذا القطار. لقد كان الطريق إليك طويلاً. بعدي توقّفت كلّ الرّحلات. فلا تنتظري شيئاً يا سيّدتي.. لقد أعلنتك مدينة مغلقّة!

كيف يمكن لامرأة أن تقاوم رجالاً ثملأ بهذا القدر من الكبرياء؟

وهل ثمة أجمل من حبّ يولد بشراسة الغيرة، واقتناعاً بشريّة امتلاكنا لشخص ليس لنا.. نراه لأول مرة!

كان على قدر من إغراء الرّجولة في تلقائيتها . وهو يلفظ هذا
البلاغ العشقيّ الأوّل، يهدوء مريك في ثقته، بحيث لم يبق من مجال
لسؤال منطقيّ مثل «بأيّ حقّ تقول هذا؟» فقد وقعتُ بجملته، تحت
سطوة الحبّ وجنونه، ورحت أبادل معه حوارًا خارج المنطق:

- ولكنّني لا أعرف عنك شيئاً..

- هذا أجمل..

- ولا تعرف عنّي أكثر من وهم المسلمين..

- لا بهم..

- وتعتقد أنّك تستطيع إيقاف صفيّر القطارات.. وندائها السريّ
داخليّ؟

- قطعاً..

- وهل تظنّ أنّه من السّهل أن تكون عاشقين.. في هذا الزّمن
المضادّ للحبّ؟

- طبعاً

- ولكنّنا نذهب نحو تورط عشقيّ..

- حتماً يا سيّدي!

وقبل أن أجمع دهشتي لأضيف شيئاً. كان يرفع يده، ويطلب من
النادل الحساب.. وسيّارة أجرة.

وما هي إلاّ دقائق حتّى كنّا متّجهين معاً صوب فراق، ونحن بعدُ
مقبلان على حبّ.

عطره كصوتي. لم يكن هذه المرة مرتفع النبرة.

سألته:

- متى نلتقي؟

أجاب:

- سأصل بك.

لم يترك لي من فسحة سوى لعلامة تعجب.

— تتصل بي؟ كيف؟!

وجاء الجواب هادئاً:

- لا تقلقي.. أعرف كل شيء..

- ولكن..

- أعرف.

كانت السيارة تنزل بنا نحو ضجيج قسنطينة الاعتيادي.

وكنّا، منعطفًا بعد آخر، نتسلّق حباً شاهقاً في صمته التصاعدي.

فجأة، طلب من السائق أن يوقفه أمام ضوء أحمر، ومده أمام

دهشتي بورقة نقدية.. وبعنواني كاملاً، طالباً منه أن يوصلني حتى

الباب. ثم انحنى نحوي وكأنه سيضع قبلة على خدي.. ولكنه لم

يفعل. همس في أذني: «من الأحسن أن لا نعود معاً؛ هذا أكثر أماناً

لك» ثم أضاف كمن نسي شيئاً: «سأشتاقك».

وغادر السيارة.. ليتركني تحت وقع المفاجأة.

* * *

هو الحبّ إذن..

دوماً.. يقدّم لي أوراقه الثبوتية على هذا النحو.

في حالة من انسياب العواطف، يأتي رجل لا احتياط من بساطته،
أطمئن نفسي بكونه ليس هو الأجمل، ولا هو الأشهى، وفي تلك
اللحظة التي أتوقعها الأقل، يقول كلاماً مربكاً، لم يقله قبله رجل. وإذا
به يصبح الأهم.

غالباً.. وأنا الهو باند هاشي به تبدأ الكارثة.

الحبّ ليس سوى الوقوع تحت صاعقة المباغثة!

مرةً أخرى.. ها هوذا يذهب ويتركني معلّقة إلى علامات
الاستنفهام. تتتابني حالة لم أعرفها من قبل: مزيج من أحاسيس
عجيبة تفاجئني وأنا أغادر تلك السيّارة، وأسرع نحو البيت ببراءة
امراة عائدة من السّوق، أو من زيارة، لا من موعد في مكان لا تعرفه
مع رجل لا تعرفه.. ولكنه يعرفها!

أغلق باب غرفتي. أخلع بسرعة ثوبي الأسود، وكأنتني أخلع تهمةً
على عجل.

أجلس على طرف سريري منهكة، مبعثرة، تأنه النّظرات. أحاول
أن أفهم ما حدث لي تماماً، أن أستعيد كلّ الذي قاله ذلك الرّجل في
ساعة ونصف، كلّ تفاصيل حوارنا الذي لم يسألني فيه سوى سؤال
أو سؤالين، بينما طارده أنا بالأسئلة دون جدوى، مادمت قد عدت
في النهاية بأسئلة أكثر، لم أكن أتوقّع معظمها. ليس أقلّها: من يكون

هذا الرجل؟ ومن أين له كل تلك المعلومات؟ وكيف يعرف حتى عنوان بيتي؟

طبعاً، في منطق الأشياء كان يجب أن أعرف عنه أكثر مما أعرف عني، مادام ليس إلا بطلاً في قصتي.

ولكن، أصبح إبداعي الآن يقتصر على التحايل عليه، لاكتشاف قصتي الأخرى وهي تُروى على لسانه. كنتك اللحظة التي حدثني فيها عن موعدنا الأول، وعن ثوب المسلمين الأسود الذي كنت ارتديه يومها. وكان يمكن أن أصدق احتمال لقاء كهذا.. لو أنه كان يوجد في خزانتي ثوب من المسلمين الأسود.

ولم أقاطعه عمداً، ولا علّقت على كلامه؛ اكتفيت بالاستماع إليه باندھاش مستتر، وربما بغيرة سرّية من تلك المرأة التي فجّرت فيه يوماً كل هذه الأحاسيس الجميلة.

قادتني هذه الفكرة إلى اكتشاف ما جاني.

لقد ولدت قصتي معه، أيضاً في لحظة غيرة. فقد كان هو الرجل الذي كنت أبحث عنه لأقيس نفسي به. ولذا منذ البدء، لم يفارقني إحساس بالغيرة منه والغيرة عليه، ورغبة في قتل تلك المرأة والحلول محلّها، دون أن أترك بصماتي على عنق الكلمات.

منذ البدء، لا هاجس كان لي سواها. حتّى إنني سألته مرتين إن كان في حياته امرأة، وأجابني في المراتين بالنفي. وربما كان هذا أجمل ما قال لي.

طبعاً، لم يكن هناك من مبرر لسعادتي؛ فلنا ما زلت أنكر ذلك الذي سألته في أول موعد لنا: «هل في حياتك امرأة؟» وأمام فرحتي بجوابه، أضاف «لا تفرحي.. من الأفضل أن تحبّي رجلاً في حياته امرأة.. على أن تحبّي رجلاً في حياته قضية». فقد تنجمن في امتلاك الأول، ولكن الثاني لن يكون لك.. لأنه لا يمتلك نفسه!..

ولم امتلكه. أخذت منّي تلك القضية إلى الأبد. ولا استفدت برغم ذلك من نصيحته: ما زلت في الحياة أحبّ الرجال الذين في حياتهم قضية، وفي الزوايا، أحبّ الأبطال الذين في حياتهم امرأة. وكان أجدر بي.. لو فعلت العكس!

ذات لحظة، راودني احتمال أن يكون في حياة هذا الرجل ايضاً قضية ما، تبرّر حزنه الباذخ، ونوبات صمته، ونزعتي إلى التهرّب من الاسئلة. وهي صفات كثيراً ما خبرتها في هذا النوع من الرجال. ولكنني استبعدت احتمالاً كهذا. فقد انتهى زمن القضايا الكبيرة، والقضايا الجميلة، التي كانت تجعل جيلاً كاملاً من الرجال يبدو أكثر عنفواناً وثاقاً ممّا هو.

في الدكاكين السياسية، التي يديرها حكام زائدوا علينا بدهاء في كلّ قضية... باعونا «أمّ القضايا» وقضايا أخرى جديدة، معلّبة حسب النظام العالمي الجديد، جاهزة للالتهام المحلي والقومي. فانقضضنا عليها جميعاً بغياض مثالي. ثمّ متنا متسمّين بلواهمنا، لنكتشف، بعد فوات الأوان، أنّهم ما زالوا هم وأولادهم على قيد

الحياة، يحتفلون بأعياد ميلادهم فوق أنقاضنا.. ويخططون لحكمتنا
للأجيال القادمة.

ولذا.. منذ «تلك القضية» انقرض الحالمون، ويسقط فرسان
الرومانسية من على خيولهم!

توصلني هذه الخواطر إلى زوجي الذي لم امتلكه أيضاً. لا لكوني
اقتسمه مع امرأة أخرى «شرعية». ولكن لأنه ملك للمسؤولية. ولأن
الكرسي هو قضيتي الوحيدة.

في النهاية، أكاد أصل إلى نتيجة مخيفة: الحب قضية محض
نسائية. لا تعني الرجال سوى بدرجات متفاوتة من الأهمية، بين
عمرين أو خيبتين، وعند إفلاس بقية القضايا «الكبرى».

أمن هنا يأتي حزن النساء.. أمام كل حب؟

فجأة، ينتابني إحساس بالخوف من هذه القصة التي ستؤلني
هتماً. ورغم ذلك أتوقع أن أنجرف نحوها دون رادع، ودون
الاستفادة من كل ما تعلمته في الحياة.

في مواجهة الحب، كما في مواجهة الموت، نحن متساوون لا
يفيدنا شيء: لا ثقافتنا.. ولا خبرتنا.. ولا ذكاوتنا.. ولا تذاكيننا.

نذهب نحو الاثنين. مجردين من كل الأسلحة.. ومن كل الأسئلة.

وأنا التي واجهت الحب عزلاء دائماً، أتوقع أن يأخذ بعين
الاعتبار، شغفي بهزائمه. ويعرضني عن كل خسارة معه بخسارة
جميلة أخرى.

ولذا لم يعنني يوماً، أين هو ذاهب بي حصلن الحبّ الجامع.
مادامت حرّكتي معه تقتصر على الموت بسببه.. أو الموت بونه!
ما يشغلني حقاً هو كيف أواصل كتابة هذه القصة بالإنزامة
نفسها.

كيف لي بعد الآن، أن أكون الراوية والروائية لقصة هي قصّتي.
والروائي لا يروي فقط. لا يستطيع أن يروي فقط. إنّه يزوّد أيضاً. بل
إنّه يزوّد فقط. ويلبس الحقيقة ثوباً لاتقاً من الكلام.

ولذا فإنّ كلّ روائي يشبه أكاذيبه، تماماً كما يشبه كلّ امرئ بيته.
وصلت إلى هذه الفكرة وأنا أتذكّر ما قرأته عن الكاتب
الأرجنتيني بورخيس الذي أصبح أعمى تدريجياً، والذي كان عندما
يصل إلى مكان، يطلب من مرافقه، أن يصف له لون الأريكة، وشكل
الطاولة فقط. أمّا الباقي، فكان بالنسبة إليه «مجرد أدب». أي بإمكانه
أن يؤنّثه في عتمته.. كيفما شاء.

عندما تعمّقت في منطقه، اكتشفت أنّ كلّ رواية ليست سوى شقّة
مفروشة بأكاذيب الديكور الصغيرة، وتفصيله الخادعة، قصد إخفاء
الحقيقة، تلك التي لا تتجاوز، في كتاب، مساحة أريكة وطاولة. نفرش
حولها بيتاً من الكلمات، منتقاة بنوايا تضليليّة، حدّ اختيار لون
السجّاد.. ورسوم الستائر.. وشكل المزهريّة.

ولذا.. تعلّمت أن أحذّر الروائيين الذين يكثرّون من التفاصيل:
إنّهم يخفون دائماً أمراً ما!

تماماً، كما يحلو لي أن أتسلّى بقراء يععون في خدعتها، بحيث لا

ينتبهون لتلك الأريكة التي يجلسون فوقها طوال قراتهم لذلك الكتاب،
مترجمين على الحقيقة.

منذ الأزل.. وأنا أبحث عن قارئ يتحدّثني، ويدلّني أين توجد
«الطاولة» و«الأريكة» في كلّ كتاب!

زوجي مثلاً، لم يوفّق يوماً في تمييز «الأثاث الحقيقي» عن «الأثاث
المزيف» في أيّ نصّ كتبتّه. ولذا، أصبح يبدّي انزعاجه من جلوسه
لساعات أمام طاولة الكتابة، بدل تخصيص هذا الوقت لطفل لا يأتي،
دون أن يعترف تماماً بأنّ ما يزعجه، هو الكتابة في حدّ ذاتها. كعمل
مواجهة، ومراوغة صامتة. لم يستلمع - برغم إمكانيّاته البوليسية -
التجسّس على مصداقيّتها.

وبدل أن يواجهني بحقيقة افكاره، راح يوجّهني من طبيب إلى
آخر. ويبعث بي من مدينة إلى أخرى، ليحوّل الاسومة مشكلتي
وقضيّتي الأولى.

لم اعد اذكر كم زرت من الأطباء بتوصيات خاصّة، وكم من
أضربة للأولياء أجبرتني أمي على التبرّك بها.

سنتان وأنا أرافقها دون اقتناع. وحتى دون رغبة حقيقية في
«الشفاء» من عمي.

يمكنني أن اعترف بأنّني كنت أذهب فضولاً.. وربما استسلاماً لا
أكثر.

أحياناً، أحبّ استسلامي. يمنحني فرصة تأمل العالم دون جهد.
وكأنّني لست معنية به.

في الواقع، أثناء ذلك أكون في حالة كتابة.. صامتة.
كهذا المساء، أتوقع أن أمارس عانيتي في الكتابة، صمناً، وأنا
أنتزع على زوجي، وهو يخلع بذلته العسكرية، ليرتدي جسدي
للحظات، ثم.. يفرق في النوم.

دوماً، كان ضابطاً يحب الانتصارات السريعة حتى في سرير.
وكنت أنشئ تحب الهزائم الجميلة، والفارات العشقية التي لا تسبقها
صفارات إنذار... ولا تليها سيارات إسعاف، وتبقى إثرها جثث
العشاق أرضاً.

بي افتتان بقصف عشوائي، يموت فيه الأبرياء عشفاً.. على مرمى
اشتباه، دون أن يكون لهم الوقت ليسألوا: لماذا؟
تمنيت أحياناً، لو أنه مارس الحبّ معي دون أن يخلع بذلته. ربّما
كان ببذلته تلك، فتح له طريقاً إلى جسدي بالقوة.
فقد كنت دائماً مأخوذة بقوّته.

ولكنّه هذه الليلة أيضاً لن يفعل. لأنّه يخاف عليها أن «تجعلك».
وربّما - فقط - لأنّه رجل بلا خيال. بل بالأحرى هو ينفق خياله
وذكاءه خارج هذا السرير.

في النهاية، الرجال الذين خلقوا لكرسي، لم يخلقوا بالضرورة
لسرير. والذين يبهروننا بشبابهم ليسوا الذين يبهروننا بدوننا.
والمشكلة، أننا نكتشف هذا في ما بعد.
الليلة أيضاً، ساسترق النظر إليه وهو يخلع قوّته ويرتدي منامته.

واستعيد دون قصد ذلك الحوار الجميل في مسرحية البير كامو
«حالة حصار».

- اخلع ثيابك!.. عندما يغادر رجال القوة بذلتهم لا يكونون
جميلين للرؤية.

ويأتي الجواب:

- ربما.. ولكن قوتهم تكمن في اختراعهم لتلك البذلة!

طبعاً.. فاللباس ليس سوى «الإشعار» الذي نريد إيصاله إلى
الآخرين. ولذا، ككل إشاعة، هو يحمل دائماً نية التضليل، حسب
منطق ذلك الرجل الباذخ الحزن، والذي يرتدي الفرع إشاعة.

وهكذا، تكمن عبقرية العسكر، في اختراعهم البذلة العسكرية
التي سيخيفوننا بها.

ويمكن دهاء رجال الدين، في اختراعهم لثياب القُلُوب التي
سيبدون فيها وكأنهم أكثر نقاءً وأقرب إلى الله منّا.

ونكاه الأثرياء، في اختراعهم توقيعات لكبار المصممين. كي يرتدوا
من الثياب ما يميزهم عنّا، ويضع بيننا وبينهم مسافة واضحة!

وهو.. لماذا تراه اختار الأسود؟

اليعطيني إشعاراً واضحاً بكونه «هو»؟

أم ليأتي مطابقاً للون جنته فيه مصادفة. واختارته لي الحياة بنية
التضليل، كي أعطيه إشعاراً كاذباً.. بأنني «هي»!

* * *

عشرة أيام من الترقب الصامت.

حاولت خلالها أن اتجاهل أنني أنتظر شيئاً. ولكنني لم استطع أن أفعل غير ذلك.

كنت لسبب غاوض، واثقة تماماً من أنه سيحصل بي، بطريقة أو بأخرى. ولكن الحياة كانت تكذب حدسي يوماً بعد آخر.

وهو نفسه لم يقل شيئاً وهو يودعني عدا «ساشتاك».

كان رجلاً يعيش خارج الزمن. فكيف وجدت في هذه الكلمة وعداً بشيء ما؟

كان اليأس يتسلل إليّ تدريجياً، ليكتسح مساحات شاسعة، ملأتها أملاً. حتى أنني أصبحت لا أغادر البيت، خوفاً من أن يلتي هاتفه أثناء غيابي.

ولكن الهاتف لم يكن يحمل لي سوى ثروة أمي ومشاريعها العادية.

منذ قليل طلبتني لتخبرني بأنها ستحضر لقضاء اليوم معي، مستفيدة من تغيب زوجي ليومين.

ما إن فتحت لها الباب.. حتى أطلقت عليّ وابل أسئلتها وهي تتماكني مذعورة كعادتها:

- واش بيك يا بنتي.. زيك ما عجيبش..

«ماذا بي؟» اكاد أضحك لسؤال كان لابد أن تطرحه عليّ بالقلوب، على طريقة ذلك الرجل، كي أجيبها عما ليس بي. فذلك أسهل عليّ.

أصمت، لأنها في جميع الحالات لن تفهم.

تواصل:

- راني جبت لك معاي شوية «بسياسة» حنّصتها لك البارح..
ترك ندير لك بيها صحن «طمينة».. غير تاكليها تولّي زيّ الحصان..
من قال لامي إنني أريد أن أصبح مثل الحصان؟

هذه المرة، لا أمنع نفسي من الابتسام وأنا أراها تهجم على
المطبخ، معتقدة أنّ مشكلتي هي الأكل لا غير؛ وأنّ لا أحد يهتمّ بي
ووطبخ لي ما أحبّ.

ولأنّ حدث أن أحببت يوماً هذه «الطمينة»، فستظلّ أُمّي تطارديني
بها حتّى آخر أيّامي، أو آخر أيّامها.

والطمينة هي صحن مكوّن من خليط من العسل والسمن وطحين
الحمص. وهي تقدّم للنفساءات ليستمدن قوّتهنّ بعد الوضع. وتقدّم
أيضاً للضيوف الذين ياتون ليطمئنّوا إلى النّفساء. وريّما يكون
اسمها قد جاء من هنا.

ولا أنكر كم من كمّيات أكلت من هذه «الطمينة»، مع فطور
الصباح وقهوة بعد الظهر، دون أن اتسائل مثل اليوم أكانت أُمّي
تعديها لي كلّ فترة، بنية تفنّيتي، أم بنية استدراج القدر كي تحلّ
البركات في هذا البيت، وتسعد يوماً بتقديم «طمينتها» لضيوف
سياتون ليطمئنّوا إليّ.. وإلى حفيديها!

حول فتجان قهوة، وصحن طمينة، ها نحن نجلس لنطمئنّ إلى

بعضنا بعضاً، وكائننا لم نتحدث يوماً على الهاتف، أو كأن في هذه المدينة ما يستحق الحديث كل يوم.

تسألني عن أخبار زوجي. أجيب أنه جيد. وأكاد لا أجيب مرة أخرى أتذكر فلسفة ذلك الرجل الذي كان يجيب بالصمت عن الأسئلة الغبية. لأن الناس يسألونك عن أخبار زوجتك.. لا عن أخبار المرأة التي تحب.

ولكن كيف لأمي أن تسألني عن أخبار رجل لا أعرف أنا نفسي اسمه، ولا تعرف هي أنه حبيبي.

وماذا تراها ستجيب لو قلت لها في نوبة جنون، إنني أحب رجلاً آخر.. غير زوجي؟

تراها عرفت الحب لتفهمني. هي التي لم تعرف حتى معنى الزواج. وتعلمت نتائجه فقط.

كم مرة تراها مارست الحب في حياتها؟ خمس سنوات من الزواج. كانت خلالها تسكن في بلد وأبي في آخر. ولم يكن يعود من الجبهة إلى تونس، إلا مرة كل بضعة أشهر، ليقضي معها بضعة أيام لا أكثر، يعود بعدها إلى قواعد المجاهدين. حيث كانت تنتظره مسؤولية إدارة العمليات في الشرق الجزائري.

ذات يوم، ذهب ولم يعد. كان له أخيراً شرف الاستشهاد، ولها قدر الترمل في العمر الذي تتزوج فيه الأخريات.

في الثالثة والعشرين من عمرها، خلعت أمي أحلامها. خلعت شبابها ومشاريعها، ولبست الحداد اسماً أكبر من عمرها ومن

حجمها. لقد وقعت في فخ الرموز الكبرى، بعدما وقعت قبله في فخ الزواج المدبر. وهذه المرة أيضاً لم يستشرها احد، إن كان هذا الاسم الكبير يناسبها ثوباً اسود حتى آخر عمرها، وإن كانت تفضل أن تكون زوجة لرجل عادي، أو أرملة لرمز وطني. لقد وجدت نفسها امام الأمر الواقع، بطفلين صغيرين.. واسم كبير!

ومنذ ذلك الحين، وهي تواصل طريقها هكذا، بجسد ليس لها، ويقدر يرضي كرامة الوطن، الوطن الذي يملك وحده، متى شاء، حقّ تجريدك من أي شيء، بما في ذلك أحلامك، الوطن الذي جرّدها من أنوثتها، وجرّدها من طفولتي.. ومشى.

وها هوذا، يواصل المشي على جسدي وجسدها، على أحلامي وأحلامها، فقط بحذاء مختلف. إذ لبس معي جزمة عسكرية.. ومعها حذاء التاريخ الأنيق.

أتأملها في أنوثتها المعطوبة، في جمالها المسالم، في مرحها البسيط الذي يجاور الحزن. ها هي ذي غامضة وهائلة كالجوكوندا. وأنا أكره الجوكوندا. أكره الملامح الهادئة، والأنوثة المسالمة، والأجساد الباردة. فمن أين جاء أمي كلّ هذا الصقيع؟ أمن استسلامها للقدر أم من جهلها؟

ومن أين جاعتي أنا كلّ هذه الحرائق؟ أمن تمرّدي على كلّ شيء؟ أم من براكين الكلمات التي تنفجر داخلي باستمرار؟ وكيف يمكن لهذا الرّماد الجالس أمامي ملتقاً بملاءة سوداء.. أن يلد كلّ هذه النيران التي تسكنني؟

يقول مثل: «النَّارُ تُلْدُ الرَّمَادَ» وكثيراً ما تكذب الأمثال! ها هوذا مستحق الرَّمَاد. يلد كلُّ هذا الجمر، كل هذه السيول النارية التي أحرقته في داخلي كلَّ شيء، كلَّ القناعات الجاهزة، كلَّ الأكاذيب التي توارثتها النساء.

توصلني أفكارني من جسيد إلى ذلك الرَّجُل. وتراودني فكرة حاولت مقاومتها منذ عشرة أيَّام. فاستفيد من وجود أُمِّي لأقترح عليها مرافقتها صحبة السَّائق حتَّى البيت. وهكذا يمكنني أثناء العودة أن أطلب منه التجوَّل بي في المدينة.

وأدري أنَّ إمكانيَّة العثور على ذلك الرَّجُل في مدينة كهذه، ضئيلة جدًّا. ولكن لماذا لا أحاول؟ فانا لا أخسر شيئاً سوى بعض الوقت. وهو الشَّيء الوحيد الذي أملك من رتابته، ما يفوق قدرتي على الإنفاق.

وهكذا بسرعة، كنت قد ارتديت فستاناً جميلاً. وتزيَّنت تهيؤاً للقاء محتمل.

ها أنا في سيَّارة رسمية. أجلس جوار سائق سلَّمته مقود القدر. أشعر براحة، لأنني لم أجهد نفسي في البحث عن مكان لهذا الموعد. مادامت التفاصيل الصغيرة، مهمَّة القدر، فلأترك للقدر إنَّ حقَّ التصرف، أو التسلِّي ببرنامجي.

لن أتحك هذه المرة إطلاقاً لأختار وجهة السَّائق، أو أقترح عليه بالتحديد، الطريق الذي سيسلكه ليوصلني إلى قدرتي

تركض بي السيّارة نحو المجهول. والسائق الذي يعرفني،
ويعرف هذه المدينة جيّداً، يعجب لأمرى. ولا يفهم طلبى العجيب
«خذنى حيث شئت.. أريد أن أتفرّج على المدينة».

إنّه مجرد جنديّ متقاعد، تعود أن يتلقّى الأوامر فينفّذها، وليس
مؤهلاً لأداء دور القدر. وإذا لا يفهم أن أجرب معه وصفة ذلك الرّجل
نفسها، عندما طلب من سائق غريب أن يأخذنا حيث شاء، ويمنح
القدر فرصة قيادة سيارتنا.

فجأة، سألني وقد لفّ بي نصف شوارع المدينة، متوقّفاً أنّي
أريد أن أتفرّج على واجهات المحلات:

- وئرك.. وين نروحو؟

حاولت أن استدرجه لاختيار مكان بالتحديد؛ قلت:

- واللّه ماني عارفة يا عمّي أحمد.. راني شوية قلقانة إذا عندك
بلاصة تحبّها أنت.. أديني ليها.

أجاب وقد فاجأه طلبى:

- أنا نحب كلّ شيء في قسنطينة.. راني ولد البلاد.

رحت الح في حشره:

- وواش تحبّ أكثر في قسنطينة؟

أجاب بعد شيء من الصمت:

- نحب القناطر.. ما كان حتّى بلاد عندها قناطرها..

أصابني جوابه بشيء من الخيبة. ولكنني احترمت قانون اللعبة.

وقلت:

- إني نوحس في كاش قنطرة تحبها ..

وراحت السيارة من جديد، تسرع بي من جسر وهم إلى آخر،
معلقة بين السماء والأودية التي يتدحرج نحوها ويتها أمني الضئيل
في العثور على تلك الرجل.

لقد قال إنه لا يحب الجسور. وربما قال إنه لم يعد يحبها. فلماذا
جئت أبص عنه فوقها؟

أتماديا في نزاهتي مع القدر، كي أثبت له حسن نيّتي وثقتي
المطلقة به؟

أم لأنني اعتقدت أنه برغم ذلك - أو بسبب ذلك - قد أجده هناك،
وأنه يحدث أن نتردد على الأماكن التي لم نعد نحبها، فقط لنبرّر
كراهيتنا لها، ونتأكد من أننا على حق؟ وهو تصرف يشبهه تماما!
في الواقع، كنت لا أصدق كراهيته لهذه الجسور. وبرغم ما قاله
أحسّه مشابهاً لذلك الرسام الذي عرفته في الماضي.. والذي كان
مهوساً بها حدّ الجنون.

أذكر أنه كان يحبني بقدر حبه لها، ويصرّ على كوني أشبهها
كلّما رسمها.

وأنا لم أكن أحبها، ولا كنت أشبهها. كنت أحبه، وأشبهه صديق
الشاعر لا غير.

أو ربما بالعكس، كنت أشبهه هو، وأحبّ صديقه. أو على الأصح،
كنت أشبه نفسي.. وأحبها معاً.

فافترقنا. كان هناك حبٌّ زائد في قصتنا وكان ثمة قدر مضاد.
مات الشاعر ميتة فلسطينية.

وتزوجت تلك الفتاة.. زيجة قسنطينية.

واختفى الرسام، وكأنه قرّر أن يموت أيضاً على طريقته غريباً.
كان من الممكن أن يعود، تحت أي مبرر؛ فقد كان رجلاً لا يفلق
في وجهه باب. ولكنه لم يعد.

مضى كما جاء، دون ضجيج. وترك لي لوحة معلقة على جدار
غرفة الاستقبال. عليها جسر معلق كقصتنا.. بحبال من حديد.

قبل هذه اللوحة لم أكن أحبّ الجسور الحديدية. تلك الشاهدة،
كسؤال لا يطاله جواب. والآن أيضاً، وأنا أرى هذا الجسر خارج تلك
الألوان الزيتية التي تعودتها، تعاودني كراهية غامضة له.. لم أجد لها
يوماً سبباً منطقياً.

طلبت من السائق أن يتوقّف، عساني أعثر على جواب لهذا الإحساس،
أو ربّما عثرت على ذلك الرجل هنا وسط عشرات الناس العابرين.

يحدث للحياة أن تهدي إليك الشيء الذي تحبّه الأكثر، في المكان
الذي تكرهه. فلطالما أذهلتني الحياة بمنطقها غير المتوقع.

أفتح باب السيارة من الجانب المطلّ على الجسر. أقترّب من
سوره الحديديّ، فتفاجئني قسنطينة كما لم أراها يوماً من جسر: هوة
من الأودية الصخرية المخيفة، موجلة في العمق، تزيدها ساعة الغروب
وحشة.

أتذكر وأنا أرى الناس حولي يسرعون في كل الاتجاهات، وكأنهم
يخافون الجسور، أو كأنهم يخافون ليل قمسطينة، تلك القصيدة
للوولت ويتمان (على جسر بروكلين):

«المدّ الصّاعد تعتي، وأراك وجهًا لوجه!
غيوم من الغرب
والشمس ماتزال هناك لنصف ساعة أخرى
وأراك وجهًا لوجه
حشود من الرّجال ومن النّساء يتنكّرون
في ثيابك العادية،
ما أغريكم في عيني!»

يعاودني فجأة إحساسي الدائم بالدوار. وقدماي تكادان لا
تحملانني. وأنا أقف مذعورة على علوّ سبعمئة متر، استعيد رجلاً
رحل.. وانتظر آخر لن يأتي.

أسعد لأنّ السائق غادر السيّارة، ووقف ليرافقني حتى لا تثير
وقفتي العجيبة فضول المارة، الذين لم يتعودوا رؤية سيّارة رسميّة
تقف وسط الطّريق، لتخرج منها امرأة غريبة الأطوار تريد التفرّج
على جسر!

أشعر برغبة في مدّ حديث مع السائق الذي أشعل سيجارة
ووقف بدوره يتأمل الجسر.. وكأنّه يكتشفه.

رحلت أحنثه وكأنتني أريد أن أبرر جنونني هذا.

قلت:

- تعرف يا عمي أحمد.. هاذي أول مرة نجني فيها هنا.. كل ما
نؤقف قدام قنطرة.. تجيني الدوخة.. القناطر تخوفني.

رد بنبرة الأبوة:

- ما تخافيش يا بنتي.. المومن ما يخاف غير من ربّي.

واصلت وكأنتني أعاتبه على اختياره هذا المكان:

- ما على باليش علاش تحب القناطر.. نقولك الصبح.. أنا نكرها.

أجابني بمنطق البسطاء:

- حتّى واحد ما يكره بلادو.. واش تكون قسنطينة بلا قناطرها..

إيه لو تنطق هاذ القنطرة يا بنتي..

وصمت، فتركته لصمته.

قررت أن لا أجادله: منطق المسنّين والبسطاء يجركك من منطقك.

من الأفضل ألا تجادلهم في عمر من القناعات. لأنهم في جميع

الحالات، أصبحوا أكبر من أن يغيروا رأيهم!

فجأة.. قال وكأنّه تنبّه لشيء:

- هيا نروحوا..

تنبّهت بدوري إلى تقدّم الوقت بنا. فأجبت:

- صبح.. راح يطيح اللّيل!

سبقني كعادته، بينما رحلت ألقى نظرة أخيرة على تلك الأودية

القاحلة، وكأنتي أوتّعها بعدما تلّكّد لي الآن تمامًا أنني أكره هذا
الجسر، وأنّ فضولي تجاهه قد مات تمامًا، كالملي في لَباء ذلك
الرّجل الذي قضيت أكثر من ساعتين، وأنا أجوب هذه المدينة في
البحث عنه دون جدوى.

شعور عارم بالخيبة، كان يزيد حزني. وقد خسرت تلك المراهنة
الجنونية التي أبرمتها مع القدر.

أجثت هنا سابقة أم متلخّرة عن الحبّ، فلم أجد أحدًا؟
أم لست أنا التي تقدّمت أو تأخّرت، بل القدر هو الذي كان دقيقًا
هذه المرّة في توقيته.. كما هو الموت؟!

فجأة، خطفتني من أفكاري طلقات نارية انطلقت على مقربة مني.
وهزّني دويّها بقوة مباغته، حتّى لكانَ رصاصها اخترقني.

انتفضت. والتفتُ مذعورة خلفي. فلم ألع سوى شابّ، أصبح
على عدّة أمتار منّي، يركض كسهم وسط الفأس، ويختفي عند زقاق
يتفرّع من الجسر.

بحثت عن عمّي أحمد. فلم أره داخل السيّارة. ولا خارجها.
تقدّمت خطوات نحو الجهة الأخرى. وإذا بجسده ممدّد على الأرض
ودم ينزف من رأسه، ومن صدره.

شعرت أنّه يكاد يغمى عليّ، أو أنّني أريد أن يغمى عليّ، كي أفقد
وعيي ولا أرى شيئًا ممّا يحدث حولي.

كانت رقعة الدّم تتّسع أمامي، وصوتني يصيح منّي.
تجمّع حولي المارّة. سالّني بعضهم ما الذي حدث. بينما البعض

الآخر لم يكن في حاجة إلى سؤال أو تساؤل؛ لقد رأى بنفسه كل شيء، أو استنتج ذلك.

كنت أستمع إليهم يتحاورون. بعضهم يستغفر الله، عاتبًا على دولة يتنقل فيها المسلحون بهذه الحرية. بعضهم يلقي نظرة دون تعليق ويبقى واقفًا للفرجة. أما أنا فأصبت بخرس الذهول. ولم انطق إلا عندما وصلت أخيرًا سيارة الأمن، لينزل منها شرطيان يشقان طريقهما بصفارة.

لم أجد ما أقول لهما وهما يسالانني عما حدث، سوى «خذوه إلى المستشفى.. أرجوكم خذوه».

راحا يتفحصان حالته. رصاصة في الرأس وأخرى في الصدر. طلبا سيارة إسعاف، برغم كونه «لن يعيش» حسب رأي أحدهما.

كان يبدو على سلوكهما توتر واضح. كانا في مستقبل العمر، ويمسكان بمسدسيهما بعصبية، وكأنهما منذ اللحظة التي اكتشفا فيها أنه ليس هناك من أمل في إنقاذه، أصبح هتّما أن ينجوا بنفسيهما من تلك الحلقة البشرية التي التفت حولهما، والتي قد يكون بينها قاتل آخر، يحلم باقتناص رأس أي شرطي كان.

تأمل أحدهما السيارة، ثم رقمها بإمعان. استنتج بسرعة رتبة صاحبها ووظيفته. فذهب نحو ذلك الجسد المعدّد أرضًا، وأخذ المفاتيح من تلك اليد التي انفلقت عليها، وكان عمي أحمد كان يريد أن يفتح هذه السيارة على عجل، ويهرب بي من خطر توقّعه بحدسه

العسكريّ، أو كأنّه أراد أن يموت كأيّ جنديّ أثناء قاذية واجبه
ممسكًا سلاحه.

فجأة، أصبحت تلك السيّارة الرسميّة أهمّ من ذلك الرّجل الذي
قادها سنوات. والهروب بها، أهمّ من إنقاذ هذا الرّجل الممدّد في
بركة دم.

لا أدري كم مرّ من الوقت، قبل أن تحضر سيّارة الإسعاف
المنتظرة. وقت بدا لي طويلًا وغير منطقيّ.

أثناء ذلك كان أحد الشرطيّين يقف على مقربة من الجريح شاهراً
سلاحه، مطالباً النّاس بأن يتفرّقوا.

بينما كان الثاني يتفكّد السيّارة ومحتوياتها. ثمّ ما كادت تصل
سيّارة عسكريّة حتّى حسم الأمر. فنقل عنيّ أحمد على عجل في
سيّارة الإسعاف. بينما تكفّل أحد العسكريّين، بقيادة السيّارة
والعودة بها إلى البيت.. دوني.

جامني أحدهم بعد ذلك طالباً منّي مرافقته إلى المخفر، لأقدّم
شهادتي عن الحادث بكلّ ملابساته وتفصيله.

وعبثاً حاولت إقناعهم بالسّماح لي بمرافقة السّائق في سيّارة
الإسعاف، ولكنهم رفضوا، موضحين أنّه ليس ثمة من ضرورة لوجودي.

سألت «إلى أين تذهبون به؟». أجابني أحدهم بشيء من العصبية
«إلى المستشفى العسكريّ». فهمت أنّه ليس هناك من مجال لأيّ
نقاش أو جدل.

كنت اراهم ينقلونه نحو سيارة الإسعاف، يضعونه على ناقلة
جرحي ويوشكون أن يمضوا به. انتابني شعور بأنني لن أراه ثانية
بعد الآن، وأن ذلك الباب ربما سينفلق عليه إلى الأبد.

ركضت نحو السيارة. ارتعيت على يده الثمها، أغرق وجهي
ودموعي فيها، وكنتني أنقل إليه شيئاً من الحياة. كأنتني أنقاسم معه
حياتي مادمت لم أنقاسم معه موته، أنا التي جنت به حتى هنا.

شعرت بأنني أقبل يد الموت، الموت الذي سيأخذه، والذي ينتظر
الآن فقط بأدب، أن أرفع شفتي عنه ليسجبه ويمضى به.

سمعته يتمتم بكلمات لم أفهمها. وحنلني منها شيء شبيه بعدما
عليهش يا بنتي، أو ربما «ما تبكيش يا بنتي...» وكنتني كنت أبكي،
فبإمكاني الآن أن أبكي في هذه السيارة القبر.. بعيداً عن الأنظار.

استمجلني العسكري الذي كان ينتظر نزولي ليفلق الباب. ولم
يعد بإمكاني إلا أن أغادر السيارة، ونظراته الفارغة تلاحقني، ويده
التي تركتها تواء، بقيت متدلّية تشير سبابتها بالشهادة.

تقدفني السيارة أمام باب المخفر.

تنتابني حالة لم أعرفها من قبل: مزيج من الحزن والذهول والذعر
والغثيان، وأنا أواجه رهطاً من الناس، لم أصادف مثلهم في حياتي؛
أناس بمظهر مخيف، ووجوه مفلقة، ونظرات عدوانية، بعضهم في
ثياب عادية، وآخرون ملتحون، يرتدون شعاراتهم داخل زِي أفغاني.
أحدهم حليق الرأس في بذلة رياضية، ويدها مشدودتان خلف ظهره

بسلاسل حديدية. وأخرج جالس دون وجه ولا ملامح، وأثار ضنوب واضحة عليه.

بينما يتنقل العسكريون بلثام أسود، شبيه بجوارب صوفية تخفي رأسهم. فلا يبدو من وجوههم سوى ثلاثة ثقوب يتحدثون ويرون بها، دون أن يُعرفوا.

أي كابوس هو هذا؟

استنتج أن هذه القاعة العارية الجدران، المتسفة البلاط، البائسة المظهر، تجمع دون تمييز بين المجرم، والطالب المشبوه، والمواطن الذي جاء لسبب ما، والسارق الذي قبض عليه توثاً.. وأنا!

أنا آتني هنا، لأنني أحبّ رجلاً وهمياً، وأكره الجسور الحديدية. وأردت أن أتأكد من كراهيتي لها، وإذا بي في قاعة كلّ أثنائها من حديد. يجلس خلف مكاتبها رجال من حديد، يستجرون رجالاً آخرين، مكبلين بسلاسل حديدية.

* هذا زمن الحديد إذن. وكان لابد أن أغادر بفكري لاكتشف هذا.

بعد لحظات من الوقوف، انتبه شرطيّ إلى وجودي الشاذّ في ذلك المكان. فرافقني إلى مكتب جانبيّ صغير كي أنتظر فيه.

سعدت بوحديتي، وباختلائي بنفسي للحظات، والهروب من تلك النظرات الفضولية التي كانت تنفّحني بشيء من العدوانية، التي لم أجد لها من مبرّر، سوى أنوثتي أو اختلافي.

هذه مدينة ترصد دائماً حركاتك، تترصّص بفركك، تؤوّل حزنك، تعاسبك على اختلافك.

ولذا عليك أن تراجع خزانة ثيابك، وتسريحة شعرك، وقاموس
كلماتك، وتبدو عادياً، ويانس المظهر قدر الإمكان، كي تضمن حياتك.
فهي قد تغفر لك كل شيء، كل شيء عدا اختلافك.

وهل الحرية في النهاية سوى حقك في أن تكون مختلفاً!

ما لم أجد له من مبرر أيضاً، هو طول انتظاري في ذلك المكتب
الصغير. وكان أمري لا يعني أحداً، أو كان الجميع مشغولون عني
بأمر أهم.

بين حين وآخر، كانت تصلني صرخات شاب، أتوقع أنهم يقومون
باستجوابه على طريقتهم، وهو ما زاد حزني وشعوري بالعجز..
والآلم.

في لحظة ما.. توقعت أنهم ألقوا القبض على القاتل. ولكن كنت
أشك في أمر كهذا. فلم يحدث أن ألقوا القبض على قاتل بهذه
السرعة.

ثم حضر فجأة شرطي، وطلب مني مرافقته.

هذه المرة كان ينتظرنني مكتب مؤتت بلياقة أكثر، تتناسب مع رتبة
الضابط الجالس خلفه، تعلوه صورة الرئيس الشاذلي بن جديد.
نهض الضابط لمصافحتي وطلب مني الجلوس.

بادرته بالسؤال:

- هل عثرت على القاتل؟

اجاب وهو يرتب بعض أوراقه:

- لا.. نحن نعتمد على شهادتك لمساعدتنا في ذلك.

ابتلع ريتي. يواصل:

- كل التفاصيل تعيننا. حاولي ان تتذكري كل شيء..

اجيب:

- سأحاول..

ياخذ ورقة استعداداً لتسجيل اجوبتي.

يسأل:

- أولاً.. هل رايت القاتل؟

اجيب:

- لا.. أنا كنت أنظر نحو الجسر.. عندما سمعت طلقات نارية.

وعندما التفت.. رايت شاباً يركض ويختفي في الزقاق المتفرع عن الجسر.

- اتعتقدين أنه كان وحيداً.. أم أن أحداً كان بصحبته؟

اجيب:

- أنا لم ار إلا رجلاً واحداً يركض. ولا ادري إن كان اخرون في

انتظاره، أو في صحبته.

- كم تتوقعين ان يكون عمره تقريباً؟

- ربما بين العشرين والخامسة والعشرين..

- أيمن ان تصفيه لي؟

- لا اعرف كيف اصفه.. انا لمحتة من الخلف.
- هل لاحظت اثناء مشواركم ان سيّارة اودراجة نارية تتبعكم؟
- لا ادري، فقد كنت مشغولة بالنظر امامي. ادري فقط انه اثناء وقوفنا عند الجسر، كان هناك زحمة سيّارات، وزحمة مارة، وانّ البعض كالعادة، كان يلتفت بفضول وينظر إلينا.
- هل اطلتما الوقوف على الجسر؟
- لا اعتقد.. ربّما بقينا هناك ما يقارب العشر دقائق لا اكثر.
- اذكر انّ السائق قال لي فجأة «هيا نروحوا» وكأنّه تنبّه لشيء. ثمّ اتّجه نحو السيّارة.. وما كدت الحق به حتّى اطلقوا الرصاص عليه.
- هل من عادتك ان تتردّي على هذا المكان؟
- لا.. إطلاقاً.
- هل اخبرت احداً بمشوارك هذا؟
- لا
- الشفّالة مثلاً.. اما قلت لها اين انت ذاهبة؟
- لا.. اخبرتها كالعادة أنّني ساعاد البيت لا اكثر.
- يتوقّف قليلاً وهو يقبّل ورقة صغيرة امامه. ثمّ يسألني:
- واخوك.. هل هو على علم بتنفّلاتك؟
- اجيبه ذهبت:
- اخي..؟ ولكنّه لا يقطن معي.
- يجيب:

- أعرف ذلك.

ثم يواصل:

- هل لاحظت في الآونة الأخيرة تغييرًا في سلوك السائق، شيئًا من العصبية أو شيئًا من القلق الواضح في تصرفاته؟

- لا.. إنه رجل هادئ ومسال�. وكان اثناء مشوارنا الأخير يتحدث إلي بروحه المرحّة ذاتها.

يواصل تسجيل بعض ملاحظاته على ورقة. ثم ينهض ويصافحني قائلاً:

- قد نتصل بك مرة ثانية إذا كان من ضرورة للتدقيق في بعض التفاصيل

ثم يواصل:

- لقد علمت أنّ زوجك موجود في مهمّة بالعاصمة. سأرسل له خبرًا عن طريق الوزارة.. وأقدّم له تقريرًا حال عودته.

يرافقني نحو الباب، ويطلب من عسكري مرافقتي إلى البيت، فأصافحه. ويصوت لم يعد صوتي أقول «شكرًا» وأغادر عالم الحديد.. إلى عالم الذّهل والفجيعة -

* * *

مخيفة هي الكتابة دائمًا. لأنّها تأخذ لنا موعدًا مع كلّ الأشياء التي نخاف أن نواجهها أو نتعمّق في فهمها.

يوم بدأت هذا الدفتر ما كانت نيّتي أن أفلسف الأمور حولي. ولذا
أكتشف اليوم، أن موت هذا الرجل أكبر منّي، يتجاوز حدود فهمي،
يتجاوز منطقي، لأنّه حدث خارج دفتري. أو بالأحرى على هامش
صفحتي. في ذلك الخطّ الأحمر الدقيق الذي يفصل بين الحياة
والكلمات.

العجيب، والمؤلم في موته، أنّه مات بسبب بطلٍ وهميٍّ وكأنّ
حيثيّ، ولم يحدث للموت أن كان في متناول الكلمات، في متناول
الوهم، إلى هذا الحد!

ذلك الرجل الذي يكره الجسور، ويكره الأسئلة. أوصلني حبه إلى
أسئلة لا جواب لها.

لماذا مات ذلك الرجل؟ لماذا اليوم؟ لماذا الآن؟ لماذا هناك بالتحديد؟
لماذا هو بالذات؟

كنت أستدرجه ليختار عنواناً لقدرتي، فاختر عنواناً لقدره.
قلت له خذني إلى المكان الذي تحبه الأكثر في هذه المدينة، فسرق
الموت سؤالي، وأوصله إلى جوابه الأخير.
منّ منّا المتهم الأول الآن في جريمة كهذه؟
القدر الذي سلّمته مفود السيّارة وأبرمت معه معاهدة ثقة..
فضّانني؟

أم أنا التي رحت أطارد رجلاً وهمياً، خارج حدود الورق، وإذا
بي أحول لعبة الكتابة إلى لعبة موت؟

أم ذلك الرجل الوهمي، الذي اقنعني بأن أثق بالقدر، ثم تخلى عني، كي يلقّني درسًا في كتابة القصص؟

كل الأسئلة أصبحت تختصر عندي في سؤال واحد:

موت هذا الرجل جريمة قدر..؟ أم جريمة أدب؟ وبالتالي إلى أية درجة أنا مسؤولة عن موته؟

ولكن الأمور بالنسبة إلى زوجي، الذي عاد على عجل في صباح اليوم التالي، لا يمكن أن تكون مبسطة إلى هذا الحد. ليس فقط لأنه يجهل القصة التي أكتبها وأعيشها، والتي أوصلتني إلى ذلك الجسر. ولكن لأنه قبل كل شيء رجل عسكري. والأسئلة التي تعنيه أسئلة محض بوليسية، لا مكان فيها للقدر، ولا للأدب. وما هي تنهال عليّ مشابهة لتلك التي سبق أن أجبت عنها البارحة. ولكن بنبرة عصبية مختلفة، وبإضافات جديدة هذه المرة.

- لماذا ذهبت إلى هناك؟ أجننت لتوقفي سيارة رسمية وسط الطريق، وتنزلي لتتفرّجي على جسر.. وتتبادلي الحديث مع السائق على مرأى من الناس؟

- أردت أن أرى الجسر عن قرب لا أكثر.. لأنني أراه دائمًا على تلك اللوحة المعلقة في الصالون.. تلك التي أهداها إلينا الرّسّام خالد بن طويال يوم زواجنا. وصادف أن مررت من هناك، فقلت لا بأس أن أنزل واقفّرّج على الجسر، ما دمت أتجول وما دام أمامي بعض الوقت.

- تتجولين؟ اهذه مدينة للفسحة؟ او هذا زمن للتجوال؟ البلد يعيش حالة حصار معلنة على كل التراب الوطني، وانت تتجولين؟ الا تقارير الجرائد؟ الا تتحدثين إلى الناس؟ كل يوم يقودون رجال الشرطة، يذبحونهم كالنعاج ويلقون بهم من الجسور..

- ولكن لا أفهم ما ذنب عمي أحمد في كل هذا؟

- إنه يقود سيارة عسكرية.. أي أنه عسكري!

- ولكنه لم يكن يرتدي زياً عسكرياً..

- لا بهم.. كان في خدمة الدولة.. وهذه تهمة كافية. إلا إذا توقعوا أنه أنا. وفي هذه الحالة كان لهم أكثر من سبب لقتله.

يصمت قليلاً ثم يطرح سؤاله الأهم:

- أين كنت تجلسين؟

أُثَمِّمُ:

- جواره كما افعل أحياناً.. (في الواقع كما افعل دائماً).

نفرق معاً في صمت فاضح، تذهب افكارنا معاً إلى الشيء نفسه. في البدء، كان زوجي يحتج على جلوسي جوار السائق. ولكنني كنت، مع عمي أحمد بالذات، عاجزة عن الجلوس خلفه. فقد كان يعيش معنا معظم الوقت كفرد من العائلة. وكان في حضوره شيء من الوفاء والطيبة التي تجعلني أخجل من إعادته خارج البيت، إلى مرتبة سائق وخادم يحمل أشيائي لا أكثر، هو الذي كان يوماً يحمل سلاحاً.

كنت احترم ذاكرته الوطنية. احترم يديه، وشعيرات راسه الرمادية. ولم يكن يعني ان تكون قامته الفارعة توحى بأنه أصغر من عمره، حتى يبدو أحياناً قريباً في مظهره من زوجي. كما لم تعني يوماً نظرات التعجب التي كانت تقابلني بها زوجات الضباط عندما يفاجئني جالسة إلى جواره.

في النهاية، خلافي مع زوجي قد يتلخص في هذا المقعد. فقد كان طموحه الجلوس خلف سائق في سيارة رسمية، وطموحي كان الجلوس جوار رجل في سيارة.

كان بين أحلامنا مسافة مقعد، لا أكثر. ولكن كانت المسافة أكثر شساعة مما توقعت. فانا لم اكن اعرف قبل اليوم ان اختيارنا الجلوس في مقعد بالذات دون غيره قد يفصح اقتناعاتنا وطموحاتنا إلى هذا الحد، ولا أنه قد يتسبب في قتل رجل بريء، لأنه دون ان يغير مكانه، غير صفته ورتبته.

وها أنا إذن، أمام شرح آخر لموته، شرح لا يبرئني ايضاً من دمه، مادمتم بجلوسي جواره، حوكتي في نظر الآخرين من سائق إلى ضابط، وجعلته بالتالي هدفاً مفضلاً لرصاصهم.

افكر فجأة في غرابية القدر الذي ابدع هذه المرة في كتابة نهاية لحياة هذا الرجل، الذي عاش جندياً بسيطاً.. خمسين سنة. ثم مات برتبة ضابط كبير.

لقد بلغ أحلامه في اللحظة الأخيرة من عمره. ومات بتهمة

احلامه. وربما سعيداً بها. الم يمّت ضابطاً في المكان الذي يحبّه
الأكثر في قسنطينة؟ الجسور!

المكان نفسه الذي من الأرجح، أن يكون قد حارب فيه منذ ثلاثين
سنة، وجازف فيه بحياته أكثر من مرة. ولكنّ الموت لم يأخذه يومها،
لأنّه لم يرده جندياً متنگراً في برنس المجاهدين، أو شهيداً في عملية
فدائية. تلك مئة عادية.

أراده بعد ثلاثين سنة، جندياً يجلس في مقعد ضابط جزائري..
ليموت برصاص جزائري.

إنّ مئة كهذه، وحدها مئة استثنائية!

تذهب بي الافكار بعيداً. بين السخرية والالم، اتوقّف في محطات
للندم.

لقد قتلت ذلك الرجل، لا بجنوني فقط، وإنما بطيبيتي ايضاً.
وتواضعي المبالغ فيه الذي يجعلني أصرّ على الجلوس جواره،
لاهدي إليه وهم التساوي بي.

في الواقع، التواضع كلمة لا تناسبني تماماً. أن تتواضع يعني أن
تعتقد أنك مهمّ لسبب أو لآخر، ثمّ تقوم بجهد القتال والتساوي
لبعض الوقت بالآخرين، دون أن تنسى تماماً أنك أهمّ منهم.

هذا الشعور لم أعرفه يوماً. لقد كنت دائماً امرأة، لفرط بساطتها،
يعتقد كلّ البسطاء، وكلّ الفاشلين حولها، أنّها منهم.

ولم يكن من امل في تغيّري: لقد ولدت إقتناعاتي معي. أنا أحبّ

هؤلاء النَّاسِ، اتعلَّم منهم أكثر ممَّا اتعلَّم من غيرهم، ارتاح لهم أكثر ممَّا ارتاح لغيرهم، لأنَّ العلاقات معهم بسيطة، واكاد أقول جميلة. بينما العلاقات مع النَّاسِ المهمِّين - أو الذين يبدوون كذلك - هي علاقات متعبة ومعقَّدة.. أي علاقات فاشلة!

ولذا كانت لي مع ذلك الرَّجل علاقة، اكتشف الآن جماليَّة تلقائيتها.

* * *

موت عمِّي أحمد قلب حياتنا رأسًا على عقب.

فأمام التَّنازع زوجي بأنَّه هو الذي كان معنيًا بذلك الاغتيال، قرَّر أن يأخذ تدابير أمنيَّة جديدة. أولها الاستغناء عن سيَّارته الرُّسميَّة. والتَّنتقل من الآن فصاعدًا في سيَّارة عاديَّة يغيِّرها بين الحين والآخر.

ثانيًا إحضار سائق جديد.. لن يرافقني إلَّا للمشاورير الضروريَّة، على أن أجلس خلفه هذه المرَّة، ولا أفتح معه أيَّ حديث.

أمَّا تنقَّلاتي فستقتصر هذا الأسبوع على زيارة بيت عمِّي أحمد، لتقديم التَّعازي لأهله. بينما تكفَّل زوجي بإرسال خروف. واثوَّق أن يكون قد زارهم هذا الصَّبَّاح.

أمَّا مشواري الثَّاني، فسيكون لزيارة أمِّي وتوديعها، قبل ذهابها إلى الحجِّ، للمرَّة الثَّالثة.. أو الرَّابعة.. لا أدري بالتَّحديد. فلا أحد يدري هنا عدد حجَّات الآخر. مذ شاعت ظاهرة المزايدة في كلِّ ما له علاقة بمظاهر التَّقوى.

فهل من عجب أن أصاب هذا الأسبور بإحباط شبيه بالانهيار العصبي، وأنا أتنقل من بيت بئس يعلو منه صوت القران، وعريل نسوة مرتديات السواد، مات فيه المميل الوحيد لسبعة أشخاص، إلى بيت تنقل فيه أمي بثوبها وشالها الأبيض، وحولها نسوة من كل الأعمار، لبسن كل ما في خزانتهن من صيغة وأثواب أنيقة، وجئن يودعنها للمرة العاشرة. أو بالأحرى جئن ليقنعنها للمرة العاشرة، بأنهن لا يقلن عنها ثراء، وبإمكانهن الذهاب إلى الحج أكثر من مرة لو شئن.

وطبعًا سيكون بينهن بعض نساء الضباط، اللاتي جئن مجاملة لي. واللّاتي سيطاربنني بالأسئلة عن «الحادث» تحسبًا لما قد ينتظر أزواجهن من مفاجآت.

ولكنني كنت منذ عدة أيام، قد فقدت رغبتني في الكلام، وكان حضورهن الباذخ استفزازًا لحرزني

كن نساء الضجر، والبيوت الفائقة الترتيب، والأطباق الفائقة التعقيد، والكلمات الكاذبة التهذيب، وغرف النوم الفاخرة البرودة، والأجساد التي تخفي تحت أثواب باهظة الثمن.. كل ما لم يشعله رجل.

وكنت أنثى القلق، أنثى الورق الأبيض، والأسرة غير المرتبة، والأحلام التي تنضج على نار خافتة، وفوضى الحواس لحظة الخلق. أنثى عباتها كلمات ضيقة، تلتصق بالجسد، وجمل قصيرة، لا تغطي سوى ركبتني الأسيطة:

منذ الصَّغَر كنت فتاة نحيلة بأسئلة كبيرة. وكانت النساء حولي
ممثلةً بأجوبة فضفاضة.

ومازلن نجاعات، ينمن باكراً. يَفْقَنَ كثيراً، وَيَقْتَنُ بفئات الرِّجولة،
وبقايا وجبات الحبِّ التي تقدِّم إليهنَّ كيفما اتَّفَق. ومازلت أنثى
الصَّمْت، وأنثى الأرق.

فمن أين أتى بالكلمات، كي أتحدَّث إليهنَّ عن حزني؟
يومها، لم ينقذني سوى مرور ناصر مصادفةً بالبيت. فتحبَّجت
به. لأترك مجلس النساء وأخلو به.
هوذا ناصر أخيراً..

لا أذكر كم مرَّ من الزَّمن على آخر لقاء لنا. فلم يحدث خلال
سنوات زواجي الخمس أن زارني أكثر من مرَّة في العام.
أمَّا بقيَّة لقاءاتنا، فكانت تتمُّ هنا في بيتنا، خلال الأعياد أو
المناسبات العائليَّة.. أو مصادفةً مثل اليوم. وكائنًا لا نسكن المدينة
نفسها.

لقاؤنا الأخير، كان في عيد الفطر الماضي. بدا لي يومها على غير
عادته قلبيًا وصامتًا. عادة، يقبكني بشوق. تتبادل بعض أخبارنا.
ونضحك أحيانًا ونحن نستعيد بعض ذكرياتنا المشتركة. ولكنني
احترمت وقتها صمته، ومضيت.

ناصر يصغرنني بثلاث سنوات. ولكنه كان دائمًا توأم حزني
وفرحي، وتوأم رفضي أيضًا.

ثمَّ انكسر شيء بيننا فجأة، منذ زواجي. حلَّ محلُّه شيء من

العقاب الصّامات، الذي فسّرتّه في البدء بالغيرة. فقد كان ناصراً متعلّقاً بي. كنت كلّ عائلته، كلّ اقتناعاته، كلّ مفخرته. هو الذي فشل في الدّراسة وتحول تاجرًا في عمر مازال فيه الآخرون يواصلون دراستهم. وكان يرفض أن يأتي رجل غريب ويسرق منه كلّ شيء. كان ينفرد بامتلاكه. حتّى أنّه قلّمَا لفظ اسم زوجي أمامي. وكأنّه لا يعترف بوجوده.

انكر منذ سنتين، حاولت أن اناقشه في هذا الموضوع. قلت له: «لقد مرّ على زواجي ثلاث سنوات.. وحان لك أن تتقبّل هذا الأمر.. إنّهُ مكتوب».

ولكنّه فاجاني متمدّنًا:

- مكتوب؟ أن ينهبوا البلاد.. أن يفرغوا أروصتنا.. ويسطوا على أعلامنا.. ويستعرضوا ثرواتهم على مرأى من بؤسنا. ربّما كان هذا مكتوبًا.. أمّا أن يتزوّج هؤلاء السّفلة بناتنا.. ويمرّغوا أسماء شهدائنا في المزابل.. فليس هذا مكتوبًا.. أنت التي كتبتِه وحده!

ناصر عمره سبع وعشرون سنة. يصغّرني بثلاث سنوات، ويكبّرني بقضية.

لقد جاء العالم هكذا حاملًا قضيةً معه، كما نحمل أسماء لا نختارها، وإذا بنا نشبهها في النهاية. ربّما لأنّ أبي الذي كان مأخوذًا بشخصيّة عبد الناصر، أثناء حرب التحرير، أراد أن يعطيه

اسمًا مطابقًا لأحلامه القومية. وإذا به دون أن يدري يعطيه اسمين:
اسمه كواحد من كبار شهداء الجزائر، وإلقبًا لأكبر زعيم عربي.

ناصر تقاسم كل شيء مع الوطن، يتمه... واسمه الذي لم يعد
اسمه. ناصر عبد المولى، كان الطفل المدلل لذاكرة الوطن. ولكن ليس
بالضرورة طفل الوطن المدلل. ولد باسم أكبر منه، وُضع على كتفيه
برنسًا للوجاهة.

وكانت تلك مصيبتته.

ليس سهلاً أن تكون ابن رمز وطني. دون أن تشعر بالبرد تحت
ذلك المعطف الفاخر السميك.

فماذا تراه كان يلبس، تحت ذلك المعطف. ليتدفأ في زمن
الخيبات؟

ماذا تراه كان يخبئ تحت برنس الصمت؟

أقبله بشوق. إبادره كعادتي بلهجة قسنطينية، مسروقة كلماتها
من قاموس الأمومة:

- واش راك.. يا اميمة توخشتك..؟

يجيب:

- مليح.. يمشيك.

ويجلس في جبته للبيضاء مقابلاً لي. استنتج أنه عائد من
الصلاة، أو ذاهب إليها. فلم يحدث أن التقيت به، إلا وكان بين
صلاتين.. أو بين قضيتين.

كما الآن، عندما أقول له، وكأنني أبحث عن موضوع أبادره به:

- لقد جئت لأودع «ماء».. يبدو أنها لن تشبع من الحجّ..

فيجيبني:

- لقد قلت لها إنّ أجورها سيكون أعظم، لو تصدّكت بثمن حجّتها

إلى فقراء العراق ولكنّها لم تصدّقني...

فأصمت ولا أدري كيف أواصل معه الحديث.

ناصر لم يشف بعد من حرب الخليج. عند بدء الاجتياح العراقيّ

كان يعيش مشتتاً.. مضطرباً. ينام وهو من أنصار صدام حسين،

ويستيقظ وهو يدافع عن الكويت.

ثمّ ما كادت الأحداث تأخذ منحى المواجهة العسكريّة والتحالف

العالميّ ضدّ العراق، حتّى انحاز نهائياً إلى العراق مأخوذاً به «أمّ

المعارك».

كان مثل الجميع يراهن على المستحيل، ويحلم بمعركة كبرى..

نحرّرها فلسطين!

ولكنّه عند سقوط أول صواريخ عراقية على إسرائيل ووقوعها

على أراضٍ قاحلة، طلبني ليلاً ليقول لي «هَذَا هو السكود الذي كان

يهدّد به صدام العالم.. إنّهُ ليس أكثر من «تحميلة» وضعتها إسرائيل

في مؤخّرتها...!».

ضحكت.. ولم أتوقّع أن يكون لهذه الحرب كلّ ذلك التأثير في

ناصر.

كانت تلك الفترة هي الوحيدة التي كان خلالها ناصر يترنّد عليّ،
ربّما ليجد أحداً ينقل إليه تدمّره وسخطه لا أكثر. فقد كان يدري، أنّ
بإمكانه أن ينقل إليّ أية عدوى من هذا القبيل.

كذلك اليوم الذي زارني فيه وفاجاني جالسة أمام أوراقي. وكنا
في عزّ تلك الفجائع، وما تلاها من إهانات. فراح يؤذّيني، وكأنتي
ارتكبت ننبأ في حقّ أحد. مرّداً:

- لا أفهم من أين لك القدرة على مواصلة الكتابة وكأنّ شيئاً لم
يحدث. لا هذه الأرض التي تتحرك تحت قدميك.. ولا هذا الدمار
الذي ينتظر أمة بكاملها منعاك من الكتابة.. توقّفي.. تأملي الخراب
حولك. لا جدوى ممّا تكتبين..

قلت كمن يعتذر:

- ولكنني كاتبة..

صاح بي:

- ولأنك كاتبة عليك أن تصمتي.. أو تنتحري. لقد تحولنا في
بضعة أسابيع من أمة كانت تملك ترسانة نووية.. إلى أمة لم يتركوا
لها سوى السكاكين.. وأنت تكتبين. وتحولنا من أمة تملك أكبر
اجتياطيّ ماليّ في العالم، إلى قبائل متسوكة في المحافل الدولية..
وأنت تكتبين. هؤلاء الذين تكتبين من أجلهم.. إنهم ينتظرون أن
يتصدّق عليهم النّاس بالرّغيف وبالأدوية.. ولا يملكون ثمن كتاب. أمّا
الآخرون فماتوا. حتّى الأحياء منهم ماتوا.. فاصمتي حزناً عليهم..!

لا أظنّ أنّ ناصر كان يتوقّع، أنّه بهذه الكلمات التي ربّما غير رأيه

فيها بعد ذلك، قد غيّر مساري في الكتابة، وارغمني على الصمت
سنتين.

... سنتين كاملتين، تعلّمت فيهما أن أحتقر كلّ أولئك الكتاب،
الذين في الجرائد والمجلات واصلوا الحياة دون خجل، أمام جثمان
العروبة.

كنت أرى القنوات الأمريكية، تتسابق لنقل مشاهد «حياة» عن موت
جيش عربيّ يمشي رجاله جياحاً في الصحاري. يسقطون على مدى
عشرات الكيلومترات كالذباب في خنادق الذلّ، مرشوشين بقنابل
الموت العبيث، دون أن يدروا لماذا يحدث لهم هذا.

وأرى قوافل البائسين. هاربة بالشاحنات من بلد عربيّ إلى آخر.
تاركة كلّ شيء، خلفها، بعد عمر من الشقاء.. دون أن تفهم لماذا.

وأرى الكويتيّين يرقصون في الشوارع حاملين الأعلام الأمريكية.
مقبّلين صور بوش، مهدين الجنرال شوارزكوف حفنة من تراب
الكويت. ولا أفهم كيف وصلنا إلى كلّ هذا.

وحده رجل غير مكترث بنا، لم يفقد قريباً في أيّ حربٍ من
الحروب التي ارتجلها، ولا فقد في زمن المجاعة، ولو شيئاً من وزنه،
كان يظهر على الشاشات، يمارس السباحة على مرأى من غرقنا.
واعداً إيّانا بمزيد من الانتصارات.

خلال تلك الفترة.. لم تفارقني فكرة الانتحار. ولم يمنعني من
تحقيقها سوى فجيرة أمّي بموتي.

في الواقع، كنت أبحث لي عن موت «استعراضني» كبير لا يشبه في شيء بندقية الصيد المتواضعة التي أطلق بها خليل حاوي، رصاصه على جبينه في 7 حزيران 1982 احتجاجاً على اجتياح إسرائيل للبنان، على مرأى من كل الإخوان والجيران العرب، بعد أن قال لأصدقائه «أين هذه الأمة؟ من العار أن أقول أنا عربي أمام هذا التفرج المخزي».

كنت أريد لي انتحاراً على قدر فجيعتي، شبيهاً بانتحار الكاتب الياباني ميشيما، الذي بعد أن سلّم الجزء الرابع والأخير من روايته الرباعية، إلى المطبعة. توجه ذات صباح أحد، لتنفيذ الفصل الأخير من حياته كما خطط له إعلامياً، بعد أن قرّر الانتحار، احتجاجاً على خروج اليابان منلولة من الحرب العالمية أمام أمريكا، وضباع شخصيتها القومية أمام الغزو الغربي.

الجميل أنه استعدّ لموته، بأخذ دروس خاصة بالمصارعة والفروسية، والكمال الجسماني. ما مكّنه من أخذ قائد القوات اليابانية كرهينة، والتوجه بخطاب حماسي إلى ألف جندي ياباني، كانوا مجتمعين لمناسبة وطنية.

وعندما لم يترك خطابه أثراً في ذلك الجيش المهزوم، عاد ميشيما إلى غرفة قائد القوات. وارتدى اللباس التقليدي الياباني. عاقداً أربطته وأزراره برياطة جاش ملحوظة. ثم دعا المصورين ليأخذوا له صوراً، رفقة جيشه الصغير، المكوّن من مائة شاب، أعدّم للموت دفاعاً عن عظمة اليابان. ووقف ممسكاً بسيفه السامورائي المحظور،

لينتهر مباشرة أمام عدسات المصورين، هو ومساعدته، وفقاً لطريقة
الهاراكيري الوثيقية في الانتحار، الواحد تلو الآخر.
سلاماً مبشياً.

أينما كنت أيها الصديق، أقبل جبين رأسك المفصول عن جسديك.
والملقى منذ نوفمبر 1970 عند أقدام الوطن، رفضاً أبدياً لنذل الانحناء
لامريكا.

مازلت أتساءل: أكنّا وقتها متفائلين أم سنّجنا كي ننحاز إلى أمة
متمادية في هزيمتها وعنادها، كي تنجز بتفوق كل ذلك الإخفاق!

في تلك الفترة، أصبح ناصر ضرورة يومية، لبقائي على قيد
العزوبة، مزبداً عليّ في كلّ شيء، رافضاً أن أستم أمامه نظاماً
عريباً بالتحديد. فإمّا أن أستمها واحداً.. واحداً.. (لأسباب يسردها
عليّ مطوكة مفصلة.. ومقنعة) أو أصمت. ففي شتم نظام عربيّ دون
آخر، بالنسبة إليه، ما يفوق جريمة السكوت عنه.

أذكر، كان يمرّ بي أحياناً؛ يقضي برفقتي بعض الوقت، ثمّ
يمضي قائلاً «كان الله في عون هذه الأمة، نصف حكامها عملاء،
والنصف الآخر مجانين» قبل أن يصحّح نفسه مضيقاً «أما الأخطر..
فهم العملاء المجانين!».

ثمّ فجأة تغيّر ناصر.

لم يعد يحدثني عن السقّة والعشرين ملياراً التي تبخّرت من
خزينة الدولة الجزائرية، ولا عن أصدقائه، الذين انضموا إلى لوائح

الاف الطلبة والشباب القسنطينيين، الجاهزين للدفاع عن العراق، والاستشهاد تحت علمها، الذي اضيف إليه للمناسبة «الله اكبر»، وهو ما جعل بعض الساخرين يقترح ان يضاف إلى العلم الجزائري شعار «الله غالب»، أي لا نستطيع شيئاً من أجلكم... ولا عن تلك الإشاعات التي كان يصدقها الجميع، والتي كانت تقول إن إسرائيل حصلت على صاروخ يطول الجزائر، وهي تستعد لضرب قسنطينة.

وهو ما جعل الناس يعيشون لمدة شهر، على اهبة حرب، كأنهم يتمنون حدوثها لمتعة الجهاد.. أو لولع بالاستشهاد.

لا أدري.. أهو الذي فقد شهيته للكلام، أم أنا التي فقدت حماسي لكل القضايا، وبخلت في حالة نهول من امري

بين خيباته الوطنية، وأفلاس احلامه القومية، غسل يديه من العروبة، أو على الأصح، ترضاً ليجد قضيتَه الجديدة في الاصولية.

وأنا التي عشت دائماً متأخرة عنه بقضية، لم أفهم ما الذي كان يحدث له بالتحديد. ولماذا هو بين لقاء وآخر، يصبح بعيداً، يصبح غريباً عني إلى هذا الحد.

حتى إنني لم أعد أجرو على ان اتبادل معه ضحكة او نكتة كعادتي. لم أعد أجرو حتى على مخالفة رايه، خشية أن يجادلني ويناقشني بمنطق ليس لي من جواب عليه.

أحاول استدراجه للحديث أقول:

- لقد أنقذتني بقدمك.. فأنا لا صبر لي على هذا الرهط من النساء.

يجيب:

- لقد اخترت أن تدخلني هذا العالم.. عليك الآن أن تتقبلني.

أشعر أنني على وشك أن انفجر في وجهه. ولكنني أهدئ نفسي،
فأقول بصوت مؤثر، وكأنني استجدي منه لطفًا:

- ناصر.. أنت تدري تمامًا أن هذا الجوليس جوي. وإن نعود
إلى الحديث في هذا الموضوع. أنا متعبة، ومرهقة. لقد مات عمي
أحمد منذ ثلاثة أيام على مقربة مني. ما حدث له أمر مريع.. شيء لا
يصدق!

أتوقع منه كلمة مواساة، أو كلمة يترحم بها على روحه. ولكنه
صمت. ولا أدري أمن تأثره، أم لأن الأمر لا يعنيه، أم..؟

تذهب أفكاري بعيدًا. وفي لحظة أتصور الاحتمالات الأكثر جنونًا.
وصوت ذلك الضابط يعود فجأة ليسألني «هل أخوك على علم
بتنقلاتك؟» فأجيبه «لا.. إنه لا يسكن معي» فيرد «أنا أعرف ذلك».

..لولا أن صوت ناصر يأتي بعد صمت طويل لينقذني من سكتة
قلبية وهو يقول:

- رحمه الله.. كان رجلاً طيبًا.

أكاد أشكره. أرتمي فجأة عليه. أقبله وأجهش بالبكاء. فلا يملك
إلا أن يحتضنني.

دموعي تسيل لتبلل لحيته التي تلتصق بخدي، وتعطيني إحساسًا
غريبًا. أشعر كأنه أبي.. هو الذي كان دائمًا ابني.

يسألني وهو يضمّني إليه.

- واش بيك حياة..؟

لا أجيب. اتمنّع بضمّته لي، بحنانه المفاجيء. أشعر فجأة: بأنني كنت في حاجة إلى حنان دون أن أدري، وأنه منذ سنوات لم يحدث لأحد أن ضمّني بحنان، فقط بحنان، دون شهوة ولا رغبة.

أقول له وسط دموعي:

- ناصر.. عاملني بحنان.. هل يجوز الحنان في شريعتك؟ أنت كلّ ما أملك في هذه الدنيا. إذا شئت لا تكن معي. ولكن لا تكن ضدي. هذا يؤلّمني كثيراً. أنت الذي تضع جثمان أبي دائماً بيننا.. وتزايد على الجميع في رفع اسم الشهداء... لم يكن أبي يريد لنا قدراً كهذا.. لا أريد أن يأتي يوم نصبح فيه اعداء، فقط لأننا لا نفكر بالطريقة نفسها.

من ممّا كان يبكي لحظتها؟ لا أدري.

أدري فقط أنّ بعض الضحكات كانت تأتيني من الغرفة الأخرى، حيث تتسامر نساء ينتظرن عند الباب سائق لم يمت بعد، وأنني قرّرت أن أغادر البيت دون أن أودعهنّ.

لم أعد أذكر أيّ حدث بالتحديد كان سبباً لانتهاري، بعد ذلك، وأوصلني حدّ فقدان شهية الحياة.

لا شيء كان يغريني، ولا أحد كانت تعنيه حياتي.

أمي كانت مشغولة عني بحجتها. وزوجي مشغول عني
بمسؤولياته. واخي بقضيته، والبلد بمواجهاته. وعندما أردت أن أجد
لي رجلاً وهمياً، أطلقوا الرصاص على أوهامي.

هذه مدينة، لا تكفي بقتك يوماً بعد آخر، بل تقتل أيضاً أحلامك،
وتبعث بك إلى مخفر، لتدلي بشهادتك في جريمة أوصلتك إليها
الكتابة.

زوجي الذي لم يكن له من وقت، ليحاول فهمي، ولا كان يدري
ماذا يجب أن يفعل بي، وهو يراني انغلق على نفسي كمحار، قرّر أن
يبعث بي إلى العاصمة لارتاح بعض الوقت على شاطئ البحر، حتى
مرود تلك الزوينة.

وكانت تلك أجمل فكرة خطرت في ذهنه منذ زمن بعيد. وهديّة
القدر التي.. لم اتوقعها.

طبعاً

قلّما تأتي تلك الأفراح التي ننتظرها في محطة.
وقلّما يجي، أولئك الذين يضرّبون لنا موعداً. فيتأخّر بنا أو بهم
القدر.

ولذا، أصبحت أعيش دون رزنامة مواعيد، كي أوفّر على نفسي
كثيراً من الفرح المؤجّل.

مذ قرّرت أنّه ليس هناك من حبيب يستحقّ الانتظار، أصبح الحبّ
مرابطاً عند بابي، بل أصبح باباً ينفّث تلقائياً حال اقترابي منه.
وهكذا تعرّدت أن أتسلّى بهذا المنطق المعاكس للحبّ.

وكنّت جنّت إلى هذه المدينة دون مشاريع، ودون حقائب تقريباً.
وضعت في حقيبة يدي ثياباً قليلة، اخترتها دون اهتمام خاصّ لأقنع
نفسي أنّ لا شيء كان ينتظرني هناك.. عدا البحر.

البحر الذي يملك حقّ النَّظر إليّ في ثياب خفيفة، دون أن يناقشه
أحد في ذلك. ولذا جنّته بأخفّ ما أملك، ويتواطؤ صامت، فأنا لا
أدري إن كنت جنّت حقاً من أجله.

عندما نسافر، نهرب دائماً من شيء نعرفه. ولكن نحن لا ندرى بالضرورة، ما الذي جئنا نبحث عنه.

أترك حقيقتي ملقاة على سرير شاسع، لن يشغله سواي. وأذهب لاكتشاف البيت الذي سأقضي فيه أسبوعاً أو أسبوعين.

في الواقع، أذهب لاكتشاف مزاج الأمكنة، وما تبثه روحها من نibذبات، أستشعرها منذ اللحظة الأولى.

أحببت هذا البيت: هندسته المعمارية تعجبني، وحديقته الخلفية، حيث تتناثر بعض أشجار البرتقال والليمون، تغريني بالجلوس على مقعد حجري، تطله ياسمينة مثقلة. فأجلس، وأستسلم للحظة حلم.

البيوت أيضاً كالنّاس. هنالك ما تحبه من اللحظة الأولى. وهنالك ما لا تحبه، ولو عاشرتة وسكنته سنوات.

ثمّة بيوت تفتح لك قلبها.. وهي تفتح لك الباب. وأخرى معتمة، مغلقة على أسرارها، ستبقى غريباً عنها، وإن كنت صاحبها.

هذا البيت يشبهني. نوافذه لا تطلّ على أحد. أثاثه ليس مختاراً بنية أن يبهر أحداً. وليس له من سرّ يخفيه على أحد.

كلّ شيء فيه أبيض وشاسع. لا تحدّه سوى خضرة الأشجار أو زرقة البحر والسماء.

بيت لا يفري سوى بالحبّ والكسل، وربما بالكتابة.

أتساءل وأنا أتأملّه، من ترى سكن هذا البيت. ومن مرّ به قبلي،

ليؤمته ويعتني بحديقته إلى هذا الحد.. خلال أكثر من ربع قرن؟ فمن الواضح أنه بيت يعود إلى أيام الاحتلال الفرنسي، يوم كان كبار الإقطاعيين الفرنسيين، معمرّون فيلبات فخمة على الشواطئ الجزائرية، غالباً ما تكون غير بعيدة عن السهول والأراضي الزراعية، التي كانوا يمتلكونها، وحيث ياتون للاصطياف.

بعد الاستقلال، حجزت القولة الأملاك الشاغرة التي تركها المعمرّون الفرنسيون لتكون مقراً صيفياً لكبار الضباط والمسؤولين الذين أصبح لهم وجود شرعيّ ودائم على شواطئ موريتي وسيدي فرج، ونادي الصنوبر.

ومن الأرجح أن تكون هذه الفيلا هي إحدى هذه الأملاك التي يتناوب عليها الضباط كل صيف، قبل أن يأتي من يحجزها نهائياً، مستنداً إلى نجومه الكثيرة، أو إلى اكتافه العريضة. وسيشترىها حسب قانون جديد، بدينار رمزيّ مثير للعجب.

متى حصل زوجي على هذه الفيلا.. وكيف؟ أسئلة لا يعنيني الجواب عنها، ولكنّها تقودني إلى التفكير فيه. فأتذكّر أنني لم اطلبها هاتفياً لأطمئنه إلى سلامتنا، كما طلب منّي أن افعل، حال وصولنا.

في الواقع، كان أسهل وأكثر راحة لنا أن نساfer، أنا وفريدة، بالطائرة. ولكن زوجي اصرّ أن يرافقنا السائق بالسيارة لخدمتنا. وحراسة هذا البيت الكبير، الذي لا يمكن أن تبقى فيه بمفردين، وذلك بانتظار أن يلحق بنا بعض الأهل..

في انتظار ذلك أمامي عدة أيام للراحة، لا أسري تماماً كيف

أنفقتها، والتي أبدأها بأخذ حمام دافئ، واللجوء إلى النوم، احتفالاً بحريتي.

رحت أستعجل النوم. أحاول أن نام دون أن أقع في فخ الأحلام. ثمة غرف جميلة إلى حدّ الحزن، تعاقبك أسرتها بالحلم! وبرغم ذلك، في الصّباح، لم أنتج من جسدي. كنت أستيقظ، وتستيقظ رغبة داخلي. تلفّني رائحة شهوتي فأبقى للحظات، مبعثرة تحت شرشف النوم النّسائيّ الكسول. يستيقظني إحساس بمتعة مباحة، لم أسع إليها. جاني بها البحر حتّى سريرى.. ليتحرّش بي.

على غير عادتي.. أستيقظ باكراً هذا الصّباح. وكأنّني أريد أن استفيد من كلّ لحظة حرّية قد تسرق منّي فجأة، لأيّ سبب كان. يفاجئني جوع صباحي لا يقاوم، وكأنّ شهيتي للحياة قد تضاعفت هنا، فأبعث بالسائق لإحضار لوازم الفطور، وأبقى لأتفرّج على البحر.

رائحته بعد ليلة كاملة من المدّ والجزر تزحف نحوي متوحّشة تستفزّ حواسّي بشهية غامضة للحبّ.

أتجاهل اعترافه الفاضح بليلة حبّ قضّاها على مقربة منّي، منشغلاً بترويض الأمواج، بينما كنت أنا منشغلة عنه بترويض حواسّي والهروب بنفسي من تلك الهواجس التي كانت تطاردني وتغكّر مزاج نومي.

البارحة نمت نومًا عميقًا، كما لم أُنم منذ أيام. شعرت بمعنى
السكينة، وكأنني تركت كل شيء خلفي، وجئت لألقي بنفسي هنا،
على سرير شاسع، لا ذاكرة له.

والآن لا رغبة لي سوى في تناول فطوري، والخروج صحبة فريدة
على الأقدام، لاكتشاف هذه المنطقة.

حتى قبل أن يغريني شاطئ (سيدي فرج) بمنشأته السياحية
ومركباته التجارية. أذهلتني مصادفة وجودي دائمًا في الأماكن التي
يطوقها التاريخ، والتي تشهر ذاكرتها في وجهك عند كل منعطف.

«سيدي فرج» ليس في النهاية اسمًا لولي صالح، مازال الناس
يتروكون على ضريحه، طالبين بركاته، إنما اسم المرفأ الذي دخلت
فرنسا منه إلى الجزائر.

فهنا رست سفنها الحربية، ذات 5 يوليو من صيف 1830، بعدما
تمّ تحطيم الوسائل الدفاعية المتواضعة الموضوعة في مسجد «سيدي
فرج» وتحويله مركزاً لقيادة أركان المستعمرين.

وشاءت الأقدار، أو بالأحرى شاء المفاوضون الجزائريون، أن
يجعلوا فرنسا تغادر الجزائر بعد قرن وثلاثين سنة، في هذا التاريخ
نفسه، ليصبح 5 يوليو أيضًا تاريخ استقلالنا.

نعم.. في زمن سابق، كان الجزائريون يصرون على كتابة التاريخ
بغورهم!

مهادئة المروحة، الشهيرة نفسها، والتي صفع بها الداي وجه
القنصل الفرنسي، والتي تذرعت بها فرنسا آنذاك لدخول الجزائر،
بحجة رفع الإهانة، ليست إلا دليلاً على كبريائنا أو عصبيتنا..
وجنوننا المتوارث.

وربما كخمزة للتاريخ، تفنن الجزائريون غداة الاستقلال في
هندسة هذا المرفأ، وبنوه على شكل قلعة عصرية، جاعلين برج
(سيدي فرج) ومنارته، ذوّي علو شاهق أو هكذا يبدوان وكأنّ هناك
من لا يزال يتوقّع قنوم عدوّ من البحر..

ولكنّ العدو منذ ذلك الحين. لم يعد يأتي من البحر.. ولا
بالضرورة من الخارج!

سعدت ذلك اليوم بمشواري الصباحي. أذكر أنّي مشيت يومها
دون هدف محدّد، بانبهار الاكتشاف الأوّل. وعدت إلى البيت مع
فريدة محمّلتين بمشتريات.. وأحلام مختلفة.

كنت أشعر أنّي حقّقت حلمًا صغيرًا، لم يكن على بساطته في
منازل يدي. اكتشفت أنّ أمنيّتي لم تكن تتجاوز المشي باطمئنان في
شارع.

في البيت كانت الحياة هادئة كما لم أعهد لها من قبل. وكنا بدانا
نعيش أنا وفريدة على إيقاع جديد يتناسب مع حياة المصيف.

فبرغم خلافاتنا السابقة، وبرغم اختلاف عُمرنا، وثقافتنا
وذوقنا، كنّا سعيدتين بوجودنا معًا، بعدما أصبح بيننا تواطؤ الحرّة

المؤقتة، التي نزلت علينا معًا، والتي لم تكن تعني، في ظروفنا تلك، المفهوم نفسه لكتبتنا.

فبالنسبة إلى فريدة التي قضت عمرها عبدة في بيت الزوجية، ولم تغادره سوى لتعود إلى أخيها مطلقًا، لم تكن الحرية سوى إمكانية النظر إلى الآخرين من شرفة بحرية وهم يعيشون.. ويسبحون ويتحمسون تحت الشمس نيابة عنها.

الحرية لم تكن أكثر من حقها في الحلم.

أما حريتي فقد جاءت معاكسة لمنطق حريتها. لقد أصبحت أنا امرأة حرة، فقط لأنني قررت أن اكف عن الحلم!

اكتشفت ذلك البارحة. عندما فتحت دفترتي الأسود الذي أهملته بعض الشئ، منذ قدومي، كي أسجل عليه أول فكرة توصلت إليها أخيرًا: «الحرية أن لا تنتظر شيئًا».

وكان يمكن أن اكتب هذا في صيغة أخرى، كأن أقول: «الترقب حالة عبودية». فلقد توصلت إلى الأولى من خلال الثانية.

ولكن ما كدت أتحرك من عبودية الانتظار، حتى وقعت في عبودية الكتابة. وهو ما جعل فريدة تجد في بقائي بالبيت، وعكوفي الدائم على الكتابة، علامات مثيرة للقلق.

وكانت تشعر تجاهي بمسؤولية مزدوجة. نظرًا إلى سنّها، وإلى كونها مكلفة من طرف أخيها بالسهر على صحتي. فراحت تفريضي بمشاهدة التلفزيون، وتحثني على الخروج.

وهكذا قرّرت ذات عصر أن أخرج، هرباً من النّوم والكتلية،
اللّذين يتناوبان عليّ في هذا الوقت بالذّات..

في الواقع، حيث كنت، حالة من الضّجر الجسديّ تقتابني كلّ يوم
في توقيت القيلولة. وكيفما كان الطّقس، يطاردني هذا الإحساس
حتّى مجيء الغروب. ويضعني كلّ عصر أمام الأسئلة نفسها: ماذا
يفعل النّاس أثناء هذا الوقت بوقتهم.. وأجسادهم؟ وكيف ينفقون هذه
السّاعات؟ ولماذا، في العصر دون أيّ وقت آخر، ذبذبات عالية من
الشّهوة تسيطر على تلك الغرف النّسائية، التي تنتقل فيها النّساء
بثياب البيت.. متكاسلات.. ضجرات؟

ولم يكن الوقت مناسباً لأعثر على أجوبة لكلّ هذه الأسئلة.
فاكتفيت بأن ارتدي أوّل فستان صافدني، وأغادر البيت، هرباً من
جسدي!

أذكر أنّني اجتزت شارعنا بخطى كسلى. رحت أتفرّج على تلك
البيوت البيضاء ذات النّوافذ الزّرقاء.. أو الخضراء، والتي تعيّن
قيلولتها بسكينة لم أعدها.

لا شيء كان يشبه هنا شوارع قسنطينة، المكتظة بالسيّارات
والمارّة، وضجيج الحياة. كلّ شيء هنا جميل ونظيف، ومهندس
بذوق، وكأنّه ينتمي إلى مدينة أخرى. أو كأنّه وُجد خطأ هنا. ولولا
وجود بعض السيّارات على جانب رصيفه، أو مرور أحدهم وهو عائد
من مخبز، أو من ملعب «تينيس»، لتوقّع المارّ من هنا أن لا أحد يسكن
هذا الشارع.

فهذا الشارع، يستيقظ وينام بهدوء، وبحضارة لا علاقة لهما
بصراخ الباعة والأطفال، ونداء المأذن التي تستيقظ عليها شوارع
قسطنطينة.

أمام مخبزة فاجأتني رائحة الخبز الطازج. فدخلت مستسلمة
لجوع مفاجئ. اخترت تشكيلة من قطع الحلوى، ورغيفين.

ثم تذكرت أنّ مشوارني لم ينته. فطلبت من البائع، أن يحتفظ لي
بها. وواصلت جولتي بحثاً عن بائع الجرائد. حيث رحت أقلبها
بفضول من لم يطالعها منذ أسبوع.

كل شيء أصبح فجأة يغريني بالقراءة. وكأنني أستيقظ هذا
الصباح لاكتشف العالم.

اقتنيت مجلة نسائية.. وأخرى سياسية. وجرائد بالعربية وأخرى
بالفرنسية. ولم أسأل نفسي إن كنت سأطالعها حقاً. لأنني كانت في
اقتنائها. أنا التي كانت الجرائد تأتينني حتى الآن، مدفوعة ومنقاة،
حسب ذوق زوجي واهتماماته!

أذكر أنني كنت أطلع إحداها، عندما جاني من الخلف صوت
يقول «دعي الجرائد.. لا شيء يستحق القراءة هذه الأيام».

انتفضت.. والتفت خلفي. وكان هو.

تسمّرت مكاني دهشة. تأملته غير مصدّقة. فاجأني صمت
الارتباك الجميل. فبقينا للحظات يتأمل أحدهما الآخر بوقع المصادفة.

أتوقع أنّ حمرة قد علت وجنتي اللتين نسييت أن أضع عليهما

حمرة، وأنتي تلقائياً مددت يدي إلى شعري لأرفع خصلاته، وأنه
تماماً في إرباكي، لم يخلع نظاراته. وكأول مرة راح يتأملني.

قال فجأة:

- أعترف بأنني لم أتوقع وجودك هنا..

قلت وكأنتي أعذر عن هياتي:

- ولا أنا توقعت شيئاً كهذا..

واصل مبتسماً:

- أما قلت لك تعلّمي أن تتقي بالقدر؟

أجبت وقد استعدت صوتي:

- أذكر ذلك.. ولكن لنقل إنني أعاني أزمة ثقة..

بدا على صاحب المحل اهتمام خاص بحوارنا، نظرًا إلى عدم
وجود زبائن غيرنا. وتفادياً لمزيد من فضوله، طلبت من محدثي أن
يشترى جريدته ونفاذ المكان.

ولكنّه ابتسم وقال:

- أنا لم أت لأشترى جرائد.

سأله ونحن ننسحب:

- وماذا جئت تفعل إذن؟

قال:

- الآن بإمكانني أن أقول إنني جئت لأراك.. ولكنني جئت لأشترى
سجائر لا غير.

ثم أضاف وهو يفتح علبة السجائر:

- أنا أيضاً.. لم أعد أثق بشيء..

وأشعل سيجارته الأولى.

مشينا خطوات معاً، دون وجهة محددة، معرضين جنوننا للأنظار.

ثم توقفتنا فجأة مثقلين بصمت الأسئلة.

أمسك فجأة بذراعي، وكأنه يريد أن يوقظني من حلم، كما يوقظ

أحدهم أولئك الذين يعيشون أثناء نومهم.

وقال:

- أريد أن أراك..

تكهرب جسدي للمسته..

قلت:

- ولكن..

- ليس لهذه الكلمة من مكان بيننا. يكفي أنها تحيط بنا من كل جانب:

قلت:

- لا أدري كيف يمكن أن يتم ذلك..

أخذ مني جريدة كنت أحملها. أخرج من جيبه العلوي قلم

رصاص. وخط على طرفها رقم هاتف وقال:

- اطلبيني على هذا الرقم، سنتفق على التفاصيل..

أخذت الجريدة منه، وأنا لا أصدق ما يحدث لي. سألته بتلقائية

مقصودة:

- هذا الرقم.. رقم ماذا؟ أقصد هل هو رقم مكتب أم منزل؟

اجاب:

- إنه رقمي

قلت وأنا استدرجه لمزيد من البوح:

- ولو حدث وردّ أحد على الهاتف.. اطلب منه التحدّث إلى من؟

قال متجاهلاً قصدي:

- لا احد غيري يردّ على الهاتف..

اغلق أمامي في جملة واحدة أي مجال لسؤال آخر، وخاصة

للسؤال الأهم؛ فهذه المرة أيضاً لن أعرف اسمه.

افترقنا.

أنا بالارتباك نفسه، وهو بذلك الحضور الواثق نفسه. لم يلح

لأتصل به في اقرب وقت. وكأنّه كان واثقاً من أنّ ذلك سيحدث: لم

يسألني ما الذي جاء بي إلى هنا.. وإلى متى سأبقى؟ وكانّ تلك

التفاصيل لا تعنيه تماماً، أو كأنّه يعرف برنامجي كاملاً!

قال فقط:

- شهية انت اليوم..

ثمّ أضاف ونظراته تتدحرج على ثوبي الأسود نفسه.

- أحبك في هذا الثوب..

ثمّ واصل بعد شيء من الصمت:

- وأحسده!

افترقنا دون وداع كما التقينا دون سلام. فهكذا تحدث الأشياء معه دائماً.

لم يحاول أحدهما أن يستبقي الآخر، بكلمة إضافية، أو بنظرة. كان لنا إحساس مشترك بأننا على موعد أجمل.

واعترف بأنني كنت أتمنى لو أنه بقي أكثر، لو أنه قال لي أشياء أكثر. ولكنني تقبلت ذلك اللقاء، كما جاء. مدهشاً.. مبالغاً.. موجزاً. لقاء في عمر سيجارة، أشعلها ونحن نلتقي، وأطفالها، وهو يسحقها أرضاً بحركة من قدمه قائلاً «أحسده!» ومضى.

هذا الرجل الذي يحسد فستاني الأبسط، ولباغتنني بكلمة لم أتوقعها، تراه يعني ما يقول؟ أم أن مصادفة ارتدائي هذا الثوب نفسه، تثير فيه كل هذه الرغبة متوقعاً أنني ارتديته لاستدرج القدر. طبعاً، ليس هذا صحيحاً. ولو كان كذلك لتحضرت لهذا اللقاء بطريقة أفضل.

مدهش الحب. يأتي دائماً بغتة، في المكان واللحظة اللذين نتوقعهما الأقل، حتى إننا قلماً نستقبله في حياة تليق به.

وأصدق تماماً مصممة الأزياء «شانيل» التي كانت تنصح المرأة بأن تغادر كل يوم بيتها وهي في كل أناقتها، وكأنها ستلتقي ذلك اليوم بالرجل الذي سيغير حياتها، لأن ذلك سيحدث حتماً في يوم تكون قد أهملت فيه هياتها!

أهو الحب؟ كلمة منه فقط، وإذا بي امرأة لا تشبه الأخرى. تلك
التي غادرت البيت بثوب عادي.. بأظافر غير مطلية.. وملامح مرهقة.
أعود إلى البيت أجمل، وإذا بالحياة أيضاً جميلة وشهية.
والأجمل أنها مدهشة دائماً. في كل منعطف لشارع يمكن لحياتك
أن تتغير. يمكن أن يقع لك حادث، ويمكن أيضاً أن تلتقي برجل
يحدث فيك زلزالاً جميلاً!

في البيت، وجدت فريدة جالسة أمام التلفزيون، وكأنها لم تقض
حياتها أمامه، لتشاهد المسلسلات السبّاحة نفسها، أو كأنه لا
يبتظرها في قسطنطينة.

أشفقت عليها من غبانها.

كيف أشرح لها أن الإنسان، لا بد أن يعيش بملء رئيته، بملء
حواسه وإحساسه، كل الأشياء التي يحياها والتي لن تتكرر.
كيف أقنعها بأن تحب الأشياء التي لن تراها سوى مرة واحدة، لا
تلك التي تراها على جهاز التلفزيون كل يوم.

كنت أشعر برغبة في أن أنقل إليها عدوى سعادتي، وشهيتي
للحياة. ولكنها كانت امرأة محدودة الأحلام، محدودة الذكاء. فوجدت
في سذاجتها نعمتي. فهي على الأقل لن تتنبه لما يحلّ بي.

رفعت رأسها عن الشاشة لتسألني، إن كنت فكرت في إحضار
الخبز.

اجبتها بشهقة الدهشة، أنفي نسيته عند الخباز.

فكرت وأنا انصرف نحو غرفتي لأغير ثيابي، أنفي دخلت رسمياً مرحلة الحماقات الجميلة. وأنفي إذا كنت قد نسيته حلويات قضيت نصف ساعة في اختيارها، فمن المتوقع أن أنسى بعد الآن أشياء أخرى، وأقيم في كوكب آخر، لا علاقة له بتفاصيل «عالم الأرض».

ما كنت أغير ثيابي حتى حملت جرائدي وذهبت نحو الحديقة، لا بنية مطالعتها، إنما بنية أن اخلو بنفسي لأتصفح قصتي مع هذا الرجل، الذي طارده لاهة في شوارع فلسطين.. وعندما يثست من امره وسافرت، وجدته قد سجنني إلى هنا.

عجيبه هي الحياة بمنطقها المعاكس. أنت تركض خلف الأشياء لاهثاً، فتهرب الأشياء منك. وما تكاد تجلس وتقنع نفسك بأنها لا تستحق كل هذا الركض، حتى تاتيئك هي لاهة. وعندما لا تدري أجب أن تدبر لها ظهرك أم تفتح لها ذراعيك، وتتلقى هذه الهبة التي رمتها السماء إليك، والتي قد تكون فيها سعادتك.. أو هلاكك؟

ذلك أنك لا يمكن أن لا تتذكر كل مرة تلك المقولة الجميلة لأوسكار وايلد «ثمة مصيبتان في الحياة: الأولى أن لا تحصل على ما تريده.. والثانية أن تحصل عليه».

استأسل، أي المصيبتين تراه هذا الرجل؟ وماذا لو عاد ليكون مصيبتى الثانية، بعدما كان مصيبتى الأولى؟

اتفقد الجريدة التي خط لي عليها رقم هاتفه. بقلم الرصاص.

أحاول أن أستشفّ قدرتي معه من تلك الأرقام. تخيفني الأصفار الكثيرة. ولكنّ باقي الأرقام تطمئنني فلنا أحبّ الأرقام الثلاثيّة الجذور.. أشعر أنّها تشبهني. ولكن لا أمنع نفسي من التساؤل لماذا خطّها بقلم الرصاص؟ الآن الرّسامين يكتبون عادة بقلم الرصاص؟ أم لأنّ الأشياء معه قابلة لأن تمحى في أيّة لحظة؟ أم لأنّه زمن الرّصاص لا غير، الرّصاص الذي يكتب قصّة ويلغي أخرى. الدليل أنّ رقم هاتفه جاء مكتوبًا على هامش صغير للبياض، في الصفحة الأولى لجريدة تغطّيها أخبار الفجائع الوطنية.. والقومية:

لماذا يأتي حبّه محاذيًا لمآسي الوطن، وكأنّه لم يبق للحبّ في حياتنا، سوى المساحة الصغيرة التي تكاد لا تُرى على صفحة أيّامنا. ألم يعد هناك من مكان لحبّ طبيعيّ وسعيد في هذا البلد؟

الفرح يسكنني. وجرائد الحزن تتربّص بي ملقاة على طاولة الحديقة. قبل أن اتصفّحها أندم على إحضارها. أتذكّر ذلك الذي كان يقول «لم يحدث أن اشتريت جريدة عربيّة إلّا وندمت على اقتنائي لها...».

أستعجل قلب صفحاتها. أخاف أن تغير أخبارها مزاجي. ولكن بعض عناوينها الكبرى تستوقفني وتستدرجني إلى قراعتها جميعها من باب المازوشية!

أن تشتري جريدة عربيّة ذات هزيران من سنة 1991 لتقرأ طالع هذه الأمة، فانت تعرّض نفسك لذبحه قلبية.

أما أن تشتري جريدة جزائرية في تلك التاريخ نفسه، تجمع صفحتها الأولى بين خيباتك الوطنية والقومية، فذلك ضرب من المجازفة بعقلك.

قبل أن تفتح الجريدة، يهجم عليك الوطن بعظاونه الكبرى، «السلطات العسكرية تعلّق حظر التجول إلى ما بعد عيد الأضحى» «اعتقال 469 شخصًا خلال الأيام الثلاثة الماضية» «جبهة الإنقاذ تعلن العصيان المدني، وبدء الإضراب والاعتصام المفتوح» «حضور عسكري مكثّف حول المباني الرّسميّة والمساجد» «عملية للاستيلاء على الباصات التابعة للنقل الحضريّ استعدادًا لمسيرة ضخمة على العاصمة».

تهرب إلى أسفل الصفحة فتنتظر أوطان أخرى، كنت تعتقد أنّها أوطانك. فهكذا أكّد لك منذ طفولتك شاعر على قدر كبير من السّذاجة، مات وهو ينشد «بلاد العرب أوطاني...» وهو لم يعد هنا اليوم ليقرأ معك عناوين جريدة عربية بتاريخ 15 حزيران 1991 «استمرار محاصرة مخيّم «البيّ وميّه» و«عين الحلوة» الفلسطينيين من طرف الجيش اللّبنانيّ» «العراق يقوم باعتقال عشرات المصريين وتعذيبهم» «الإعدامات مستمرة في الكويت في حقّ الرعايا العرب»، «انفراد الشركات الأمريكيّة بإعادة إعمار الكويت»، «إسقاط ديون مصر».

والخبر السعيد في كلّ هذا، ليس الأخير. وإنّما ستجده في صفحة داخلية بخط كبير. «إقدام الديوان الجزائريّ للحووم بمناسبة

عيد الأضحى على استيراد 220 ألف رأس غنم من أستراليا، وصلت معظمها سالمة، و«سالمة» تعني فقط أنها مازالت على قيد الحياة. رغم قضائها شهرًا في البحر مكشّاة في باخرة وأن معظمها لا ينتظر سوى رحمة الذّبح صباح العيد، تمامًا كما ينتظر الجزائريون منذ أشهر، متزاحمين مكشّين بالعشرات أمام سفارة أستراليا، رحمة الحصول على تأشيرة الهروب إلى بلد، تقول إشاعة كاذبة إنه يبحث عن يدٍ عاملة!

وتماشياً مع حدث وصول هذه الباخرة، بحمولتها المباركة من الأكباش، خصّصت الجريدة صفحة كاملة، يتجادل فيها البعض ويجهدون لحلّ الإشكال الدّيّي الذي طرحته أذيان الأغنام الأسترالية المبتورة، التي لا تشبه ما تعودّه الجزائريون من أغنام ذات آلية سميّة. وهل تجوز التضحية بها؟ لينتهي بهم الأمر إلى فتوى تقول «إنّ بتر الذنب، كلّ أو جزء منه، بمقدار الثلثين، يُعدّ غيبًا في الأضحية، سواء بتر الذنب كلّ أو بعضه، خلقة أو بعد خلقة» وليصبح السّؤال بعد ذلك «ماذا نفعل إننّ بالأغنام؟ وماذا نصحّي صباح العيد؟».

في الواقع، الإشكال الحقيقي لم يكن في أذنان الأغنام الأسترالية، التي شغلت عامتنا وفقهانا لأيام، وإنّما في تلك الأكباش البشرية المكشّاة أمام سفارة أستراليا، وفي سؤال كبير ومخيف: كيف.. وقد كنّا شعبًا يصدر إلى العالم الثّورة والأحلام، أصبحنا نصدر البشر، ونستورد الأغنام؟

* * *

طبعاً..

لم يكن زمناً للحب. ولكن ليست عظمة الحب في قدرته على الحياة في كل الأزمنة المضادة؟

الدليل أن لا شيء مما قرأته أو مما حدث لي بسبب هذا الرجل، جعلني أعدل عن فكرة حبه.

شيء يجرفني نحوه هذا المساء. شيء يحملني. شيء يركض بي. شيء يجلسني جوار هاتف.

على حافة السرير اجلس، دون أن اجلس تماماً. وكأني اجلس على حافة قدري.

امراة ليست أنا، تطلب رجلاً قد يكون «هو». ورجل اسمه «هو»، يرتدي أخيراً كلماته، لا كلماتي. يصبح صوتاً هاتفياً. قد يقول «الو». قد يقول «نعم» قد يقول «من؟».

امراة عجي تطلب أرقامه الستة. وتنتظر كلمة منه. تقرّر هكذا أن تبادره بالصمت. كأنها تتذكر أنها لا تعرف هي من تطلب بالتحديد.

صوته يخترق صمتها. لا يقول «الو». لا يقول «نعم». لا يقول «من؟».

يقول:

- كيف أنت؟

يوصل أمام همشتها.

- انتظرت هاتفك.

يضع شيئاً من الصمت بين الكلمات يواصل:

- جميل أن يأتي هاتفك ليلاً..

هي لم تقل شيئاً بعد.. وهو يتحدث إليها كأنه يراها بتداخل الحواس.. صوته يختزل المسافة بين حاسّة وأخرى. يعيد تنقيط الجمل. يعيد تنقيط الأحلام.

تعرفه من نقاط الانقطاع في كلامه. تعرفه، وتحبه بنبرته الهاتفية الجديدة، دافئاً، كسولاً.

تقول له أول جملة تخطر في ذهنها:

- أحبّ صوتك..

يجيب:

- وأحبّ صمتك..

- هل أفهم أنك لا تحبّ كلامي؟

- بل أريد أن أسمع منك ما أشاء، لا ما تقولين.

- ولكنني لم أقل شيئاً بعد.

- هذا أجمل. أتدري أن الحيوانات لا تكذب لأنها لا تتكلم وحده

الإنسان يتناقض لأنه حيوان ناطق.. أي حيوان ممثّل.

- بأيّ حقّ تقول هذا؟

- بحقّ معرفتي بالحياة.. وبحقّ معرفتي بك.

- وماذا تعرف عني؟

- أعرف ما يكفي لأحذرك.. وما يكفي أيضاً لأحبك.

- وهل يجب أن أحذرك أيضاً؟

- بل يجب أن تحذري الحب.. وتحبيني

- ولكنني أحبك

- حقاً؟

...

- لاحظي أنك بدأتِ تدراجعين صمئاً. الكلمات الجميلة سريعة

العطب. وإذا لا يمكن لفظها كيفما اتفق!

لا تدري كيف تواصل الحديث إليه. وكلّ ما ستقوله سيصطدم

بذكائه الحاد. وبنظرة الفريدة إلى الأشياء.. تقول:

- أريد أن أتعلّم منك فلسفتك في الحياة.

يضحك:

- أنا.. أعلمك فلسفة الحياة؟ أنت تطلبين أمراً مستحيلاً. أنا

أعطيك رؤوس أقلام فقط. نحن لا نتعلّم الحياة من الآخرين. نتعلّمها

من خدوشنا.. ومن كل ما يبقى منّا أرضاً بعد سقوطنا ووقوفنا.

- وهل يحدث هذا يوماً؟

- طبعاً.. سنتعلّمين كيف تتخلّين كلّ مرة عن شيء منك، كيف

تتركين خلفك كلّ مرة أحداً.. أو مبدأً.. أو حلماً. نحن نأتي الحياة

كمن ينقل أثاثه وأشياءه. محمّلين بالمبادئ.. مثقلين بالأحلام..

محوّلين بالاهل والأصدقاء. ثمّ كلّما تقدّم بنا السّفر فقدنا شيئاً،

وتركنا خلفنا أحداً، ليبقى لنا في النّهاية ما نعتقده الأهمّ. والذي

أصبح كذلك، لأنّه تسلّق سلّم الأهمّيّات، بعدما فقدنا ما كان أهمّ منه!

تجد في حديثه بعض ما يساعدها على استدراجه للحديث عن نفسه. تسأله:

- ماذا تركت خلفك؟

يصمت. ويطول صمته. تتذكر أنه يجيب هكذا عن الأسئلة التي لا تستحق الجواب. فتصحح خطأها.

- اقصد... ما هو الشيء الأهم بالنسبة إليك الآن؟

يجيب بصوت غائب:

- أنت..

يفاجئها الجواب، وكأنها لم تكن تتوقعه. هي كانت تتوقع أن يسألها «وانت؟» ولكنه لا يفعل.. يواصل:

- سانتظر موت الأوهام حولك. فربما يومها أصبح الأول في سلم أولوياتك عن جدارة.. أو عن مصادفة!

تقاطعه:

- لست في حاجة إلى خيبات أكثر لأحبك. انا لا املك غيرك.

- بل أنت تملكين الكتابة، أي وهم التفوق. وإن نتساوى إلا عندما تكتب قصتنا الحياة.. لا أنت!

تسأله:

- أعدتُ بنية ماركستي..؟

- بل عدتُ بنية حبك. افتقدتك كثيرا كل هذا الوقت. لا أهم لماذا

جاءت قصتنا معقدة إلى هذا الحد. اتدوين؟ لو كنا أميين لسعدنا

بحبنا. الأُمِّي يعرف ما يريد من امرأة، وتعرف هي ما تنتظره منه. ولكن نحن استهوتنا لعبة الكلمات. فرحنا نقسو على الحب إكراماً للآدب. تصوّري.. لو كنّا أُمِّيَيْن لقلت لك من البدء «أشتهيك» وانتهى الأمر. ولكن، ها نحن بعد منتصف اللّيل نتحدّث على الهاتف لا لنحب بعضنا بعضاً.. وإنما لنفسر هذا الحب.

- لنكن أُمِّيَيْن إذن!

- لا نستطيع.. الجهل ترف لم يعد في متناولنا.

- وماذا نفعل إذن؟

- لنكن رجلاً وامرأة لا غير، لنحب بعضنا بعضاً بمنطق الحب، لا بمنطق الآدب. لا يمكن أن نخرج من عتمة الحبر لندخل عتمة اللّيل. اطالب لحبنا بشرعية الضوء. أريد أن أراك.. أن المسك.. أن أقول لك أشياء دون أن نكون مجبرين على الكلام.

- ولكنني لا أدري أين يمكن أن نلتقي.

- ثمة مقام ومطاعم جميلة حيث أنت.. يمكن أن نلتقي فيها.

- ولكن كلّ جيرانتي هم من الضباط.. وهم يعرفون زوجي. ولا يمكن أن أجازف بموعد هنا.

يصمت بعض الوقت ثم يقول:

- إذا شئت بإمكاننا أن نلتقي عندي في البيت. ولكنني أسكن في العاصمة. على بعد ساعة منك بالسيارة.. لا أدري إن كان هذا يناسبك؟

أقول:

- دع لي يوماً للتفكير.. سأندبر الأمر.

ثم أواصل كمن تذكّر شيئاً:

- ولكن قبل ذلك.. أريد أن أعرف من تكون.

يجيب وكان السؤال، ليس على هذا القدر من الأهمية:

- احببني دون أسئلة.. فليس للحب من أجوبة منطقية.

- ولكن كيف تريد أن أزور رجلاً لا أعرف حتى اسمه؟

- ستعرفين كلّ شيء في الوقت المناسب.

- ولكنني امرأة لا تعرف الانتظار.

- خسارة.. لأنّ الأشياء تأخذ قيمتها من انتظارنا لها.

ثم يواصل:

- وبهذا المقياس أنت المرأة الأشهى، لأنك المرأة التي انتظرتها

الأكثر. لقد انتظرتك عمراً، وبإمكانك أن تنتظري أياماً أو أسابيع.

دعي للوهم عمراً أطول.

لا أذكر ماذا قال بعد ذلك، كي تفاجئنا حالة لغوية زجت بنا في

رغبة مبالغتة، عمد إلى تمديدها إلى أقصاها دون جهد واضح، عدا

جهد رغبته في التّساوي بأيّ رجل أمي.. يشتهي امرأة!

استيقظت في اليوم التالي مأخوذة بحالة عشقية، لولا أنّ نشرة

الأخبار الصّباحية عكّرت مزاجي. فقرّرت أن أطلب زوجي لأعرف منه

ما يحدث في قسنطينة.

ولكنني فوجئت بالهاتف معطلاً، وهو ما زاد في قلقي وجعلني
أنتج نحو أول فيلاً مجاورة. لاستعمال هاتفهم.

ولكن صاحبة البيت، استقبلتني ببرود، وهي تتفحصني بنظرة لا
تخلو من الإهانة. وهو ما زاد في إرباكي. وجعلني أفسر نظراتها في
البدء بكوني جنتها في ثياب البيت.. وربما في زني غير لائق بزيارة.

أمام الباب الذي فتحته لي دون أن تدعوني إلى النّخول، رحت
أشرح لها، أنني أسكن الفيلاً المجاورة، وأنّ هاتفني معطل.
وقبل أن أواصل، قالت وهي تقاطعني بلهجة لا تخلو من لؤم
نسائي:

– أنتِ الجارة الجديدة.. «كلّ يوم عند العازبة عرس»!

أجبتها وأنا أتوقع أنها تخطّ بيّني وبين أخرى:

– أنا أسكن في الفيلا 68 على يمينكم. وموجودة هنا منذ أسبوع
فقط.

أجابت بلهجة ساخرة:

– عادة تبقى النساء هنا.. ليلة أو ليلتين لا أكثر!

تجمّدت مكاني. وكانَ كلماتها صفعتي. ولكنني جمعت شجاعتي.
وقلت:

– أنا زوجة العميد... جئت لأسالك فقط عن سبب تعطلّ الهاتف،
لأنني لم أتمكن من الاتصال بزوجي في قسنطينة. ولا علم لي بما
يحدث في هذا البيت قبل مجيئي.

بدا على المرأة ارتباك واضح. وراحت فجأة تفتح الباب، وتدعوني
معتذرة إلى الدخول، وقد نذمت على ما قالت. معتقدة أنني إحدى
الزائرات العابرات لهذا البيت، بعد أن شجعتها هيأتي الصباحية.. على
مثل هذا الاعتقاد. وراحت تبحث عن كلمات تقنعني بها أنها توقعت أن
أكون مقيمة في فيلاً أخرى. وأنه نظراً إلى خلق هذه الفيليات من
المصطافين في باقي أيام السنة، تعود البعض اضطحاب عشيقاته
وصديقاته إلى هنا، وهو أمر يزعجها لأنها تسكن هنا على مدار السنة.
أبدت لها تفهمي، واعتذرت لها عن الإزعاج وأنا أودعها بأدب.
ولكنها ظلت تلح لأتصل بزوجي من بيتها. وقالت إن لا ضرورة
لإزعاجه بمشكلة الهاتف. فيستكمل زوجها بالاتصال بالجهات
المعنية، لإصلاحه فوراً.

عند عودتي لم أخبر فريدة بما قالت لي الجارة. احتفظت بتلك
الإهانة لنفسى. وماذا عساها تقول؟ وهي تعتقد في أعماقها أن من
حق أخيها أن يتصرف كيفما يشاء، ليس فقط لأنه رجل، بل لأنه
أيضاً رجل دولة.

العجيب أنني لم أشعر بالغيرة. إحساسي كان أقرب إلى الغثيان
منه إلى إحساس آخر. فلم أشأ أن أفكر في النساء اللاتي تناوين
على هذا السرير. ولم أكلّف نفسي مشقة وضع ملامح لوجوههن.
شكلهن لا يعنيني. فأننا اتصوّرهن من النوع الساقط والبذيء
المظهر. ربما كنّ شقراوات مزيفات. عادة هذا النوع يروق لزوجي.
وربما كان يروق لكل الرجال. وهو أمر أتفهمه تماماً.

ولكن ما لا أفهمه، هو لماذا تزوج زوجي سمراء، إذا كان يحب
الشقراوات؟ ولماذا تزوج مرة ثانية.. إذا كانت لا تشبعه سوى
الرجبات التي يتناولها خارج البيت؟

اتذكر صديقة لي. كان زوجها مفرماً بالشقراوات. وكان يزعجها
أن تطاردها الألسن هامسة دائماً ولقد رأينا زوجها مصحبة شقراء،
فقامت المسكينة بصيغ شعرها. لا أملاً في إغرائه أو استعائته،
وإنما حتى يبدو للناس من بعيد أنه قد فقّتها. وكان المهم في هذه
الحالات إنقاذ المظاهر!

أكبر عقاب حلّ بي يومها، لم يكن ما سمعته من تلك المرأة، وإنما
عدم تمكّني من سماع صوت ذلك الرجل.

في اليوم التالي، استيقظت على صوت زوجي الذي أعلن لي
عودة الخطأ الهاتفي. جاء صوته ليخرجني من كوابيس ليلتي. ولكن
دون أن يوقظ الأحلام الجميلة داخلي.

للأحلام صوت آخر، اسميته «هو». هو الذي لا اسم له. والذي
ليس سوى حرفين للحب. تتناوب عليهما حروف النهي وحروف
النفي.. وحروف التحذير.. وحروف التساؤل.

«هو» ليس أكثر من «لا» و«لن» و«هل» و«لم».. و«متى»..
و«كيف».

«هو» ليس أكثر من حرفين وستة أرقام. ليست أرقام هاتفه. إنها
أرقام اليانصيب التي ألعب بها قدرتي.

- اشتقتك .. لِمَ لم تطلبيني البارحة؟
- كان الهاتف معطلاً..
- وهل حسمت أمر لقائنا؟
- أجل.. إذا كان هذا يناصبك سآزورك اليوم بعد الظهر.
- يضع شيئاً من الصمّت بيننا ثم يقول:
- أنا ليس لي برنامج غيرك. وبإمكانك أن تأتي متى شئت، ولكن..
- ولكن ماذا؟..
- الوضع لا يوحي بالأمان اليوم.
- أطمئنه:
- لا يمكن أن يكون الوضع أسوأ ممّا عرفته في قسنطينة.
- يجيب:
- لا أعتقد أن تكوني عرفت شيئاً كهذا.
- يثير فضولي، أسأله:
- ما الذي يحدث؟
- يجيب:
- لقد تحولت ساحات العاصمة في اللّيل إلى غرف نوم ضخمة.
- افترش فيها الإسلاميون الأرض. لا ينهضون منها إلا في الصّباح.
- لإطلاق الشعارات والتهديدات.. والادّعية إلى الله..

- ومتى حصل كلّ هذا؟

- البارجة.. لقد جاءت بهم الباصات بالعشرات حتّى هنا. نساءً ورجالاً..

أسأله متعجّباً:

- النساء أيضاً؟

يجيب:

- لقد وصلن في أتوبيسات مسدلة الستائر. لا يبان منها إلاّ القرآن المرفوع خارج النوافذ.

أسأله وقد بدأت أفقد شيئاً من حماسي:

- وهل ما يحدث قريب منك؟

يجيب:

- طبعاً.. أنا أسكن شارع العربي بن مهيدي.. إنّه شارع متفرّع عن ساحة الأمير عبد القادر حيث يتمّ الاعتصام..

أقاطعه:

- أعرف هذا الشارع جيّداً.

كدت للحظة أتخلّى عن مشروعي الجنوني. ولكنني كنت على درجة من الإحباط، أصبح معها عدم اللقاء به هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لي.

توقّعت أن أفاجمه وأنا أقول:

- سأسلك طريق البريد المركزي للوصول إليك... أعطني العنوان فقط.¹

ولكنه أجاب بفرح أسعدني:

- توقعت منك قراراً كهذا... إنه يشبهك.

ثم واصل:

- أفهمت لماذا أحبك؟

قلت وأنا أمارحه:

- لا... لم أفهم. ستشرح لي كل هذا عندما أجيء.

* * *

إنها الثالثة أخيراً. أخيراً إنها الثالثة.

أيها الحب تأخرت كثيراً. فلماذا تستعجلني الآن إلى هذا الحد. وتركض بي، في سيارة ستوصلني إلى منتصف الرغبة، لأواصل وحدي المشي لاهتة في شارع الخوف، متحيلة تارة على عيون سائق يحترف التجسس، وتارة على نظرات مارة متفرغين للفضول. ولكن من يملك ما يكفي من الحدس، لقراءة خطي امرأة ذاهبة أو عائدة من موعد حب؟

ذلك أنه عكس كل الذين يملكون وقتاً كافياً لتبذيره، الحب معلّم لا صبر له؛ يعلمك كل شيء دفعة واحدة، والشئ وتفقيضه في تجربة

واحدة. بعلمك ان تكون انت وآخر في ان واحد. ويجعلك معكلاً من
الدرجة الاولى.

اجتاز ساحة الامير عبد القادر راجلة. بغطى رصينة وداخل
ثياب محتشمة. اتعلم المشي داخل هذه العبادة.. وهذا الشال الذي
يغطي شعري، وكائنني لم اخلعهما يوماً.

اشعر بأمان، وسط عشرات الرجال ذوي الأزياء العجيبة والملامح
العدوانية، والمشفولين عن همومي الأرضية، بهموم الآخرة. مرددين
هتافات وشعارات دينية وسياسية.

وكنت أردت تفادي المرور بهذه الساحة. ولكن كان لا مفر من
مروري بها، وقد ازدحمت كل الشوارع المؤدية إليها، وتلك المحيطة
بها. وهو ما كان سيؤخر مواعيدي بساعة على الأقل.

لا اذكر أنني مرتت من هنا، إلا وهدمتني مقاييس تمثال الامير
عبد القادر. ووضعتني في حالة عصبية. واليوم أيضاً على عجلتي،
يلفت انتباهي، وجوده وسط بحر من العشود البشرية التي لا يكاد
يعلم عليها سوى بمترين او ثلاثة. حتى إن بعضهم تسلفه بسهولة
وحمله أعلاماً خضراء.. وسوداء.

ما يحزنني حقاً، هو أحجام تلك التماثيل الهائلة التي تزين
العواصم العربية. لحكام لم يقدموا لشعوبهم غير المجازر والدمار.
مقارنة بهذا التمثال المتواضع لرجل وهبنا كبرياء التاريخ. وأسس لنا
أول دولة جزائرية أنهلت فرنسا نفسها.

رجل لم يطالبنا بأن نعيد رفاقه من الشام، ولا بأن نصنع له تمثالاً
في ساحة هو أكبر منها.

إنه زمن عجيب حقاً، اختلفت فيه المقاييس، وأصبحت فيه الشعوب
تصنع تماثيل لحكامها، على قياس جرائمهم.. لا على قياس عظمتهم!
لذا مازال الأمير منذ ربع قرن، غير راضٍ عن وجوده بيننا، مهليلاً
ظهره إلى مقرّ حزب جبهة التحرير.. وجهه صوب البحر. وهو ما
غذى كثيراً من النكت السياسية لدى سكان العاصمة.

أجل.. حدث أن كنتُ يوماً شعبياً يتقن السخرية، فكيف فقدنا
الرغبة في الضحك؟ وكيف أصبحت لنا هذه الوجوه المفلقة.. والطباع
العدائية.. والأزياء الغريبة التي لم تكن يوماً أزيائنا؟

كيف أصبحنا غرباء عن أنفسنا، وعن بعضنا بعضاً، غرباء إلى
حدّ الخوف، وحدّ الاحتياط من عيون تتفحصنا، أو خطى تسير خلفنا.
أمشي. يقودني الخوف إلى الممرعة تارة. وإلى التائي تارة
أخرى. محتمية بثياب لا تشبهني، استعرتها هذه المرة من امرأة
أخرى. ليست سوى فريدة.

ها أنا أعيش بين ثياب امرأتين. إحداهما تحترف الإغراء..
والأخرى التقوى. اذهب لملاقاة ذلك الرجل مرة في ثوب أسود ضيق،
ومرة في عباءة فضفاضة، لا يبدو منها سوى وجهي. تتناوب عليّ
امراتان، كلتاهما أنا.

ولأننا نفكر، ونتصوّف كلّ مرة حسب ما نرتدي وحسب ما نخلع،
فإننا الآن، امرء بهذا الحشد من الناس بتواطؤٍ غامض. أكاد أشاركهم

حماسهم ومتافهم، لولا أن عيني تواصلان البحث عن رقم البناية التي ينتظرني فيها ذلك الرجل.. وعقلي يواصل السؤال. لماذا يوجد هذا الرجل دائماً بمحاذاة السياسة ويعود بتوقيت التاريخ؟ ولماذا معه، يحتاط فرحي من الحزن؟

أمام مقهى «الميلك بار» الذي اجتازه بخوف بالغ، اتذكر فجأة «جميلة بوحيرد» التي، أثناء الثورة، جاءت يوماً إلى هذا المقهى نفسه. متنكرة في ثياب أوروبية. وقد طلبت شيئاً من النادل، قبل أن تغادر المقهى تاركة تحت الطاولة، حقيبة يدها المملأ بالمتفجرات، تلك التي اهتزت لدويها فرنسا، مكتشفة - هي التي كانت تطالب برفع الحجاب عن المرأة الجزائرية - أن هذا السلاح أصبح يستعمل ضدها. وأن امرأة في زي عصري، قد تخفي.. فدائية!

بعد أربعين سنة، ها أنا الورثة الشرعية لجميلة بوحيرد. أمرٌ بهذا المقهى نفسه. متنكرة في ثياب التقوى. بعد أن اكتشفت النساء - هذه المرأة أيضاً - أن ثياب التقوى قد تخفي عاشقة. تخبئ تحت عبايتها جسداً مفحّخاً بالشهوة.

بخوفها نفسه، بتحديثها وإصرارها نفسه، أمشي هذا الشارع. بعد أن أصبح الحب هو أكبر عملية فدائية تقوم بها امرأة جزائرية.

دوماً، كنت أقول لامرأة كانت أنا: لا تمرّي عندما تشعل الحياة أضواءها الحمراء. تعلّمي الوقوف عند حاجز القدر. عبثاً تزورين إشارات المرور. لا تؤخذ الأقدار عنوة.

وكنْتُ أقول.. لقلب كان قلمي: حاول أن لا تشبهني. لا تكن على عجل. انظر يمينك ويسارك، قبل أن تجتاز رصيف الحياة. لا تركب هذا القطار المجنون أثناء سيره. الحالمون يسافرون وقوفًا دائمًا، لأنهم ياتون دائمًا متلخّرين عن الآخرين بخيبة! وكان يرد:

«كلّ من عرفتِ مشيت على أحلامهم عجالات الوطن. والذين أحببتِ، تبعثروا في قطار القدر. فاعبري حيث شئت. ستموتين حتمًا.. في حادث حب!».

في كلّ خطوة، كنت أشعر أنّي حلّقت معجزة البقاء على قيد الحياة. وأعجب لأنّ قلبي مازال مكانه، رغم تسارع دقاته التي تدقّ في اللحظة نفسها، دقة شوقًا، ودقة خوفًا، على إيقاع هتافات تحملني وتغطّي على كلّ صوت داخلي: «لا دراسة.. لا تدريس، حتّى يسقط الرئيس» وتردّ أخرى «لا ميثاق.. لا دستور.. قال الله.. قال الرسول».

ها هي ذي البناية أخيرًا.

أكاد لا اجتاز بابها حتّى أشعر أنّي أغادر عالمًا.. وأدخل آخر. درجها المتّسخ لا يعنيني. مصعدّها للعطل لا يثنيني. والطوابق الأربعة التي سأصعدّها تزيد من حماسي.

إنّ أجمل لحظات الحبّ.. هي عندما نصعد الدّرج!

أمام باب ينتظرني خلفه المجهول، أستعيد أنفاسي وأحاول أن

اتلفد هياتي. ولكن قبل ان ادق الباب، اراه يفتح امامي. وقامة
اعرفها تختفي قليلاً خلفه. وكأنها تشير إليّ بالدخول.
فادخل.. وينطلق الباب خلفي.

انا التي خبرت عناوين الحب جميعها، ادري ان الحب لا يقيم في
الفنادق من فئة خمسة نجوم، ولا في البيوت البانخة البوودة. ولذا
اسعدني ان يكون هذا البيت، في بساطة عش ودفئه.

اتجه منهكاً دون استئذان نحو أول غرفة تقابلني. التي بحقيبة
يدي على الأريكة. اوشك ان الفتي بنفسه ايضا جوارها. ولكنني
ابقي واقفة لحظة اتأمله. وكأنني ابحث فيه عن سبب يبرز كل هذا
الجنون.

يقترّب مني، وتمتدّ يده لترفع عن رأسي غطاء نسيّت ان اخلعه.
يوشك ان يقول شيئاً. ثم تسبق كلماته اِبتهاماً، يليها اعتراف لا
يخلو من الحسرة:

- كم اشتقتك..!

ولا املك إلا ان اجيبه:

- وانا.. ماذا غير الشوق جاء بي إليك؟ لستك تدري كم كان
المجيء إليك صعباً!

يجلس على الأريكة المواجهة لي. يعيث بهدوء بذلك الشال الذي ما
زال ممسكاً به. يتأملني في هياة لا تشبهني وكأنه يتعرف إليّ، بينما
اتأمل أنا تلك الغرفة التي يغطيها اثاث بسيط منتقى بذوق عزوبي، لا
يتعدى أريكة كبيرة من المخمل، تشغل وظيفة الصالون. وطاولة،

ومكتبة تمتدّ على طول الجدار المقابل. ولا تترك فيها الكتب المصطفة بنظام، سوى مكان لجهاز التلفزيون. ولجهاز موسيقى، تنبث منه معزوفة خافتة على البيانو لريشار كليدلمان.

أحبّ تطابق نوقي مع ذوق هذا الرّجل. وأحبّ أكثر، تطابق مزاجنا الغريب في التصرف عكس المنطق، كالاستماع إلى معزوفة موسيقىة في يومٍ على هذا القدر من الجنون الصارخ. الأمر الوحيد الذي فاجأني. هو عدم وجود آية لوحات في هذا البيت. وهو ما كان سيساعدني على اكتشاف هذا الرّجل.

أسأله:

- ماذا تستهلك عدا السجائر؟

يجيب ضاحكًا:

- أستهلك الصبر.. والصمت.

- وكيف يمكنك أن ترسم بهذه الأحاسيس التّجّية؟

- ومن قال لك إنني أرسم؟ أن ترسم يعني أن تتذكّر.. أنا رجل

يحاول أن ينسى.

أقول:

- أريد أن أرى بعض أعمالك.. هل يمكن ذلك؟

يجيب:

- لا.. ليس معي شيء منها.

- وماذا فعلت بها..؟

- لقد تركتها في مدينة أخرى.

يساورني فجأة إحساس بالشك في ما يقوله، بل إحساس بأنه يخفي شيئاً ما، أو يكذب، وأنه لم يكن يوماً رساماً.

أسأله:

- أين تعلّمت الرسم.

يجيب بما يؤكد ظني:

- إنَّ أسوأ شيء بالنسبة إلى رسّام، هو دخول مدرسة للرسم!

كنت أريد أن أجادله في هذا الرأي. أو ربّما فقط أستدرجه للحديث عن نفسه. ولكنّه صمت. ولم يغادر صمته إلّا ليحنّكني بعد ذلك عن الأوضاع السياسية. ويسألني إن كنت وجدت صعوبة في الوصول إليه.

كان يتحدّث. وكنت مشغولة عنه، بالإنصات إلى يديه. كانتا الشيء الوحيد الذي يتكلّم كثيراً عليه.

تعلّمت أمام أجوبته الهاربة، أن استجوبهما. وجدت فيهما المدخل الوحيد الذي يؤدّي إليه.

إنّهما بدءاً تفضحان كسله؛ فهو لا يستعمل منهما سوى واحدة: اليمنى دائماً.

أتأمّل طويلاً أصابعه، أشعر أنّها في امتلائها وطولها تقول الكثير عن رجولته. وأنّ طريقته في تقليد أظافره، باستدارة مدروسة، كأنّه لا يريد أن يؤلم أحداً ولو عشقاً. تلمنّنتني، وتثير شهيتي للمسّات حميميّة، ولكنّها لا تساعدني إطلاقاً على معرفة مهنته الحقيقيّة.

هذا الرجل ليس رسامًا. يده أكثر رصانة من يدين تعيمشان
بفصية الخلق.

نحن نعرف عازف البيانو من رشاقة أصابعه. ونعرف النجار
الذي غالبًا ما يكون قد فقد إصبعًا من أصابعه. ونعرف الدّكان
ونعرف الجزار. ونعرف المعلم من الطباشير العالقة به، والفلاح الذي
انغرس التراب في أظافره، وعامل المطبعة الذي أصبح الحبر جزءًا
من بصمات أصابعه.

مذهل هو عالم الأيدي، في عريه الفاضح لنا. ولا عجب أن يكون
الرسّامون والنحاتون، قد قضوا كثيرًا من وقتهم في التجسّس على
أيدي، كانوا يدخلون منها إلى لوحاتهم ومنحوتاتهم، حتّى إنّ النحات
«رودان» الذي أخذت الأيدي كثيرًا من وقته وتركت كثيرًا من طينها
على يديه، كان يلخّص هوسه بها قائلاً «ثمة أيدي تصلي وأيدي تلعن،
وأيدي تنشر العطر وأيدي تبرّد الغليل.. وأيدي للحب». فكيف له إذا أن
ينحت واحدة دون أخرى؟

ذلك أنّ اليدين، تقولان الكثير عن أشيائنا الحميمة. تحملان
ذاكرتنا، أسماء من احتضننا يومًا. من عبرنا أجسادهم لمسًا أو
بشيء من الخدوش.

تقولان عمر لذتنا، عمر شقائنا. تفضحان العمر الحقيقي
لجسدنا. تفضحان كلّ ما مارسناه من مهن. كلّ ما مارسنا أو لم
نمارس من حبّ.

ولذا ثمة أيدٍ، كاصحابها، ليست أهلاً للحياة. مادامت لم تفعل شيئاً بحياتها.

أنامل يديه، وأري تمامًا أنني أنامل يدين عرفتاه الحياة. حبكتاهما، عجنقاهما، حدّ الولع. منحتنا القُسماء كثيرًا من المتعة. ومنحتهما الحياة كثيرًا من الغيبة، التي تبدو واضحة من كسلهما المتعمد.

يدان داعبتا.. اكتشفتا.. عبثتا.. اشعلتا أكثر من أنثى. وهما تشعلانني الآن خلف دخان سيجارة الصمت.

تضرمان النار في أسننتي. تشعلان حرائق غيرتي. هاتان اليديان اللتان لم يعلق بهما شيء. هل حدث أن تعلّقنا بأحد؟ وما اسم آخر امرأة أحبّتا؟ آخر امرأة عرّتا؟ ما عمر لذّتهما؟

أنا التي تأملت كثيرًا، أري أنه رجل متعدد الأعمار. ولذا كان بإمكانني أن أسأله «ما عمر عينيك؟ ما عمر شفّتك؟ أو.. ما عمر صمّتك يا سيّدي؟».

ولكنّني سألته:

- ما عمر يديك؟

توقّعت أن تعجبه طريقتي الجديدة في اختصار الأسئلة. وقلّبتها على طريقتي.

ولكنّه أجاب دون انبهار واضح بسؤالتي:

- عمرهما.. عمر خيبتني.

قلت:

- ولكنني برغم هذا أحبهما.

أجاب، وهو ينهض فجأة ليقطب الشريط. وكأنه يقلب موضوع حديثنا.

- لقد أحببت دائماً عقدي!

لم أفهم ما يعنيه. ولم أحاول التعمق في الفهم. اكتفيت بالوقوف، متجهة بدوري نحو المكتبة التي كان بي فضول لاكتشافها، مستفيدة من جهل هذا الرجل لتلك المقولة الجميلة لرولان بارت «على المرء أن يخفي عن الآخرين صيدلية بيته.. ومكتبته!».

استدرجتني كثرة كتبها إلى إلقاء نظرة على عناوينها. وكأنني أطلع أخيراً هذا الرجل الذي استفاد من انشغالي بها لينسحب قائلاً:

- أتوقع أن لا تفتقديني كثيراً.. لو أنا ذهبت لأعد لك قهوة!

ضحكت.. أجبت:

- طبعاً لا.. لا يمكن للمكتب إلا أن تقرّبنا!

منذ النظرة الأولى. فاجأتني شساعة المواضيع التي تضمها هذه المكتبة، والتي تفضح ثقافة عالية باللغتين، واهتمامات تاريخية وسياسية متشعبة، لم أتوقعها في هذا الرجل.

بينما تعجبت لعدم وجود أي كتاب عن الفنون التشكيلية أو عن الرسم، في بيت رسام، تضم مكتبته كتباً متعددة الاهتمامات، تتناول

حياة بعض رجال التاريخ والصراع العربي الإسرائيلي، وحتى السطوة العالمية للشركات المتعددة الجنسية، ولا يوجد للإبداع مكان فيها، سوى في رف سفلي، تمتد على طوله كتب صغيرة للجيب، ضمن سلسلة الشعر الفرنسي المعاصر. بينها كتاب «أزهار الشر» لبوبليير والمركب الثمل» لرامبو. وآخر لجان كوكتو وشعراء آخرين.

كنت أتصفّح بعضها بفضول، عندما وقعت على كتاب لهنري ميشو «أعمدة الزاوية». وهو كتاب لم يحدث أن قرأته أو سمعت به. رغم أنني أحببت في زمن بعيد هذا الشاعر.

لا أدري أية مصادفة قادتني إلى ذلك الكتاب بالذات. فقد كان، بين ما تصفّحته من كتب، هو الوحيد الذي وضع عليه هذا الرجل بعض ملاحظاته، وإضافات أو إشارات إلى مقاطع دون غيرها. شعرت وأنا أتصفّحه أنني وقعت على المفتاح الذي يفتح سرّ هذا الرجل.

وصدّقت تماماً مقولة رولان بارت. فإذا كانت صيدلية بيتنا تفضح للآخرين أمراضنا، فإنّ مكتبتنا قد تقول لهم أكثر ممّا نريد أن يعرفوه عنّا. خاصة إذا وقعوا على كتاب شاركنا في مواصلة كتابته على الهامش.

كنت ما أزال أتصفّحه عندما عاد محملاً بالقهوة.
سألته:

- أيمكنني أن أستعير منك هذا الكتاب؟

قال دون أن يكلف نفسه مشقة سؤالي عن عنوانه.

- طبعًا!

وأصل وهو يضع القهوة على الطاولة:

- طلباتك متواضعة. كنت أريد لك طلبات أجمل!

أجبتُه وأنا أعيد الكتب الأخرى إلى الرف:

- اكتفي بالمتواضعة.. الأجمل لا تطلب!

قال وكأنه يتدارك خطأ:

- الأجمل يأتي دائمًا متأخرًا.. يا سيدي!

كان صوته ملاسًا لسمعي. ما كدت التفت خلفي حتى وجدتني على حافة جسده. بيننا مسافة أنفاس وقبلة. ولكنه لم يقبلني. امتدت يده اليمنى نحو شعري، تلامسه مرورًا بعنقي ببطء وعبث مثير. ثم انزلت نحو أذني، تخلع عنهما الواحدة بعد الأخرى قرطهما.

وضع القرطين على رف المكتبة، بتلقائية من تعود أن يخلع عن امرأة أشياءها الصغيرة. وكأنه كان يهينني لطقوس عشقية. ثم راحت شفتاه تبتدان حيث توقفت يده.

ها هما تعبرانني ببطء متمدد. على مسافة مدروسة للإثارة، تمران بمحاذاة شفتي، دون أن تقبلاهما تمامًا. تنزلقان نحو عنقي، دون أن تقبلاه حقًا، ثم تعاودان صعودهما بالبطء المتعمد نفسه. وكأنه كان يقبلني بأنفاسه لا أكثر.

هو يعرف كيف يلامس أنثى. تمامًا كما يعرف ملاسة الكلمات.

بالاشتغال المستتر نفسه. يحتضنني من الخلف، كما يحتضن جملة هارية، بشيء من الكسل الكاذب. فأبقى متكئة على الجدار صامتة استدرجني منذ البدء، وقد خنرتني زوينة اللذة، دون أن أسأل نفسي. ماذا تراه فاعلاً بي؟ تراه يرسم بشفتيه جسدي؟ أم يرسم قدري؟ تراه يملئ عليّ نصي القادم؟ أم تراه يلغي لغتي؟

هذا الرجل الذي يكتبني ويمحوني بقبلة واحدة، أو حتى من دون أن يقبلني، كيف أقاومه وهو يعبر بشفتيه الممرات السرية للرغبة، ثم يجتاحني بشراسة مفاجئة، يلتهم شفتي مبتلعاً كل ما كنت سأقوله له؟

اكتشف أنه بدأ الآن فقط بتقييلي. ممسكاً بي من شعري المنفلت في يده، خالطاً ريقى الممزج بريقه.. مثيراً لعرقى الذي يطفى الآن على عطره، قاطعاً لأنفاسي التي ضاعت في فمه، حتى لكأنني انتفَس منه ومعه.

كنت أتمنى لو ضمتني إليه كي يمنعني من السقوط. ولكنه كان يتلذذ بانبهار أنوثتي به، حتى إنه لم يستعمل لضمتني سوى نراع واحدة. ثم كما في قبلة عنقودية.. راح يضع على عنقي قبلاً تنازليةً متدرجة، متلاحقة، وكأنه يضع نقاط انقطاع عند نهاية نصّ قد يعود إليه، ومضى.

رحت أستعيد أنفاسي. انتبه للثوب الذي اتصّب تحت عرقاً، وأنا أراه يخلع جاكيتته، يشعل سيجارة، ويجلس على تلك الأريكة لاحتساء قهوته.

عاودتني استلتي.. وأنا أنظر إليه.

كما تقرا غجرية الكف، رحت اقرا هياته. بهدسي وحواسي فقط.

لا يعنيني اللحظة ان اكتشف ماضيه، بقدر ما يعنيني ان اطالع
قدري مكتوباً عليه، قدرًا متعب الشفاه، فوضويّ الشّعر، كسول
الكلمات، مريك اللّمسات، مباغت القبلات، متناقض الرغبات، كرجل
في الاربعين.

يسألني:

- فيم تفكرين؟

أجيب:

- أحبّ الرجال في الاربعين

يبتسم.. يرد:

- ولكنني لست الرجل الذي تتوهمين!

يلقي برماد سيجارته في المنفضة. ويمدّ نحوي يده:

- تعالي.. اجلسي قريبًا مني

اتردد بعض الشيء قبل ان اعترف:

- إنني اتصيب عرقًا. أنا ارتدي هذه العباة منذ ساعات.

اتوقع ان يقول اخليها مثلاً. لكنه يقول وهو يسحبني إلى جواره:

- أحبّ رائحتك.. لقد أحببت دائماً لغة جسدك!

ثم يواصل وكأنه يطمئنني:

- إنَّ جسديَّ لا رائحةَ له.. هو جسد آخر!

أقول وأنا أجلس على مقربة منه:

- أخاف أن يأتي يوم يصبح فيه جسدي أكثر بلاغة مني!

يرد:

- في جميع الحالات هو أكثر صدقًا منك.. فوحدها حواسنا لا

تكذب

يوصل:

- لكن العجيب.. أن لي إحساسًا ثابتًا بأنني قابلتك في بيت آخر،

وقبلتك في زمن آخر، وأنَّ هذه الرائحة أعرفها من ضمة أخرى، وهذا

المذاق خبرته في قبلة أخرى.. كيف تفسّرَين أنَّ بإمكاننا أن ننسى

الجسد الذي امتلكناه ولكننا لا ننسى الجسد الذي اشتهيناه.. ولم

نمتلكه؟

طبعًا لم أكن املك جوابًا لاسئلة كهذه. خاصة أنني لم أكن أبادله

الإحساس بأنَّ هذا قد حدث في زمن سابق.

أكتفي بالقول:

- جميلة هي هذه الحالة العالية من الرغبة. ثمة بطولة ما، في

البقاء على قيد الوفاء.. لوهم!

ولكنه وضع رجليه على الطاولة المقابلة له وقال بشيء من

السخرية وهو ينفث دخانه بيننا:

- آية بطولة؟ مازلت تأخذين الحياة مأخذ الأدب، لأنَّ النَّاسَ

يحبّون القصص التي تنتهي بخيبة، والتي تكثر فيها المبادئ، ويصمد فيها «البطل» حتّى الصفحة الأخيرة، لأنهم في الحياة عاجزون عن الصمود إلى هذا الحدّ..

وأضاف:

- انتهى زمن القضايا الجميلة. لقد خزلتنا البطولات في الحياة. فلتكن لنا في الروايات بطولات أجمل. كلّ بطولات الفضيلة.. وكلّ انتصارات الحكمة. لا تساوي شيئاً أمام عظمة السقوط في لحظة ضعف أمام من نحبّ. السقوط عشقاً، هو أكثر انتصاراتنا ثباتاً!

يمسك بيدي وكأنّه يستوقفني يقول:

- هذه المرة.. أريد لنا بطولات بسيطة وجميلة.. في متناول الجميع. كأن تكون لنا أطول قبلة في تاريخ الأدب الجزائري..

ثمّ يسألني أمام دهشتي:

- اتدريين بماذا فكّرت وأنا أقبلك منذ قليل؟

قلت بفضول:

- بماذا؟

أجاب:

- فكّرت أنّ الحياة بدأت معنا في تقليد الأدب. كلُّ الحبّ أوها لنا، لنواصل في الحياة، قبلة بدانها في كتاب سابق..

كما في تلك الرواية. ها نحن في موعدنا الأوّل نفسه. نواصل قبلة أمام المكتبة إيّاه. وأنت تطالعين الكتب وتستعيرين أحدها.

أحبّ مصادفة هذه القبلة العابرة للكتب، العابرة لقصّتين. تصوّري
روعة قبلة يبدأها رجل وهمي في كتاب.. ويواصلها في الحياة رجل
آخر، تطابق مع الأوّل حتّى لكأنّه يعرف مذاق شفّتي هذه المرأة.
في زمن البطولات الخارقة، والصواريخ العابرة للمقارّات والاقمار
العبارة للكواكب... قبلةً عابرة للزّمن، عابرة للروايات، تظلّ أهمّ إنجاز
قد يفترض به المراء.

أقول:

- جميل كلّ هذا.. ولكن لا أفهم لماذا تصرّ على تحطيم هذا الرّمز
القياسيّ بالذّات. عادة يزهو الرّجال بتحطيم أرقام قياسية أخرى!
يضحك وكأنّ سؤاله فاجأه. يقول بعد شيء من الصّمت وكأنّه
جمع كلماته استعداداً لمرافعة:

- لأنّ القبلة هي الفعل العشقيّ الوحيد الذي تشترك فيه جميع
حواستنا. نحن في حاجة إلى حواسنا الخمس لتقبيل شخص. ولكن
لسنا في حاجة إليها جميعها لنمارس الجنس. القبلة تفضحنا. لأنّها
حالة عشقيّة محض، لا علاقة لها بالرغبات الجنسيّة التي نشترك
فيها مع كلّ الحيوانات.

ولذا، نحن قد نمارس الحبّ مع شخص لا نشعر برغبة في
تقبيله. وقد نكتفي بقبلة من امرأة تمنحنا شفّتها من الحمّى، ما
تعجز أجساد كلّ النّساء على منحنا إيّاه!

تعلو وجنتيّ حمرة مفاجئة. ارتبك لهذه الكلمات التي يتكهرب لها
جسدي. ولكنّي لا أقول شيئاً، وكأنّني أصبحت فجأة أخرى.

يرفع عن وجهي خصلة اسدلها الارتباك. يقول:

- مارست الحب كثيرا. ولكنني الآن انتبه أنني لم أقبل امرأة منذ زمن طويل، وأردتُ عمر لذتي توقّف على شفتيك عند الصفحة 172.

أوشك أن أسأله، عن أيّ كتاب يتحدث؟ وكيف يذكر رقم الصفحة بالتّحديد؟ ولكنني لم أعد أجد لي صوتاً أضيف به شيئاً إلى ما قاله. فاقف وكأنتي أبحث عن جواب قد أعثر عليه واقفة.

قد يكون أساء فهمي. فقد نظر إلى ساعته وسألني:

- متى يحضر السائق؟

أجبت:

-إنّه ينتظرني عند الخامسة.. في الشارع الخلفي.

ردّ:

- أمامك ربيع ساعة. أنصحك بالذهاب.

لا أجادله في شيء. فلنا أجرف عادته في قطع موعدنا في لحظة الأجل. كما ينقطع تيار كهربائي أثناء احتفال.

أضاف وكأنّه انتبه لشؤون أنساء إياها الحب:

- الوضع سيئ، وقد تحدث مواجهاة في الساعات القليلة القادمة بين المتظاهرين والجيش.

سألته كمن يبحث عن عذر للبقاء.

- لماذا اليوم؟ لماذا الآن؟

قال:

- لَأَن زعيم الإنتقاذ خطب اليوم واصفًا الشانلي بأنه مسمار مزروع في كعب الجزائر لأبد من اقتلاعه، وأن مسيرة من الملتحين تتوجّه نحو القصر الرئاسي مطالبة بتقديم تاريخ الانتخابات الرئاسية.

سألني وهو يرى اندهاشي لهذه الأخبار:

- ألا تستمعين إلى الإذاعة؟

قلت كمن يعتذر:

- لا يوجد مذياع حيث أنا، ولأنك نصحتني بأن لا اطالع الجرائد. فأنا معزولة عن العالم منذ أسبوعين، في ذلك المصيف.

رحت على مرأى منه أجدد هياتي أمام مرآة. أضع من جديد ذلك الشال على رأسي.

أشياء حوله أحسدها. أتركها خلفي وأتجه نحو الباب.

استوقفني حاملاً ذلك الكتاب. قال مازحاً وهو يمدني به:

- يبدو لي الآن أيضاً أنني ألتابق مع خالد في تلك الرواية. ولكن لا خطر من إعارتك هذا الكتاب.. مادام ليس ديواناً لزياد!

عجبت لذاكرته، ولغمزته الساخرة، وادهمشني أن يعرف إحدى رواياتي إلى هذا الحد.

قلت وأنا أطمئننه:

- لقد مات هنري ميشو منذ عدة سنوات. ولا خطر عليك منه!

ردُّ مازحاً:

- لا اسري.. ولكنني تعلّمت أن لا اطمئنُ إلى قراءاتك!

ضحكت..

تذكّرت أنّ في تلك الرّواية تستعير البطلّة من خالد ديوان شعر لصديقه الفلسطينيّ زياد، الذي لا ينفكُ يحدّثها عنه وعن شعره بإعجاب. مطمئنّاً إلى وجوده في الجبهة. ثمّ يصادف أن يحضر زياد من لبنان لزيارة باريس لبضعة أيّام، فتقع البطلّة في حبّ الشّاعر وتتخلّى عن الرّاوي، الذي خسرها منذ بدأت في قراءة ذلك الكتاب..

أمام الباب الذي مازال مغلّقاً على سرّنا، ضمّعتي إليه دون أن يقول شيئاً. وكان ذلك الشّال الذي يغطّي رأسي أعادنا إلى خانة الغرياء.

افترقنا دون قبلة، دون سلام. كلمات قليلة فقط قالها وأنا أغادر البيت:

- أنتظر هاتفك.. أطلبيني حال وصولك لأطمئنُ إليك..

أجبت بصوت غائب:

- سأفعل..

توقّفت لأنظر إلى الباب وهو ينفلق خلفي، على لحظة مسروقة من شرعيّة القدر. ونزلت الدّرج بخطى سارِق يرى في كلّ من يصادفه، عيوناً تشّتب في أمره. وهو نفسه يبدأ بالاشتباه في سعادته، وفي لذّة وقد مضت، لم تعد تستحقّ كلّ تلك المجازفة. وفي لحظة حبّ وقد

انتظرها طويلاً، وخطط لها عدة أيام، وإذا بها في لحظة صغيرة، لا تتجاوز ما يستغرقه إغلاق باب من وقت، قد أصبحت خلفه.
أجل.. لا أتعس من عاشق يهبط الدرج!

أعود إلى البيت، سالكة الطريق نفسه، ولكن بخوف أكثر، وحماس أقل. تسكنني فسحة غامضة للفرح.. وأخرى للندم.
أن تخلو بنفسك ساعتين في سيارة يقودها سائق عسكري يعود بك من موعد حب، سالكا شوارع الغضب وأزقة الموت، ليس سوى سقوط مفاجع نحو الواقع، ووقت كاف للندم.
يساعدك في ذلك، زِيّ التقوى الذي تلبسه. وإذا به يلبسك. وإذا بك تفكر ضد نفسك!

ولذا ما كدت أصل إلى البيت، حتى أسرع بخلع تلك العباة، وأعدتها إلى صاحبتها. عساني أتصالح مع جسدي.

منذ قرن، لكي تستطيع الكتابة، تبنت جورج صائد أسما رجائياً، وثياباً رجالية. عاشت داخلها كامرأة. ولأن هذا لم يعد ممكناً، فانا استعير كل مرة ثياب امرأة أخرى، كي أوصل الكتابة داخلها.

الادب يعلمنا أن نستعير من الآخرين حيواتهم قناعاتهم، وهياتهم الخارجية. ولكن ليس السطو على أسيانهم الحميمة هو الأصعب.

الأصعب عندما نفلق بعد ذلك دفاترنا، ونخلع ما ليس لنا، ونعود لنقيم في أجساد لم تعد نعرفنا، لكثرة ما ألبسناها ثياباً لا تشبهها!
أرتدي ثوب بيتي الصيفي. وأجلس لأفكر في ما حلّ بي.

اللذة كاللحم. تجبرك على إعادة النظر في حياتك، على مراجعة قناعاتك السابقة، بل وقد تذهب بك حدّ سؤال جنوني: «ما جدوى حياتك بعدها؟».

ثمة قُبل، إن لم تمت أثناءها، فانت لست أهلاً لأن تعيش بعدها. وفي الحالتين تقع على اكتشاف مدهش: انت لم تكن قد جنت إلى الحياة قبلها.

...كذلك الذي كان يتناول على الموت، ويردّ ضاحكاً على خوفاً عليه قائلاً «إنني في حاجة إلى أن أموت أحياناً.. لأعي بعد ذلك أنني ما زلت على قيد الحياة».

كنت عندما تأتيني الحياة بكلّ هذه المتعة، أخاف أن أعي أنني كنت قبل ذلك في عداد الأموات.

قبلة واحدة، وإذا بي اكتشف الحياة دفعة واحدة. واكتشف حجم خسائري السابقة.

كنت أودّ لو كان بإمكانني أن أملا هذا القفتر الأسود. وأنا أصف فقط هذه اللحظة الفاصلة بين عمريين. أن أوقفها. أن أحطها داخل الوقت.

أودّ لو كانت لي يدا النحات الشهير رودان وموهبته، كي أخلد عاشقين، توقّف بهما الزمن إلى الأبد في لحظة شغف، وهما منشغلان عن العالم، ومنصهران في قبلة من حجر.

لو كانت لي قدرة بروس في رائعته البحث عن الزمن الضائع على كتابة عشرين صفحة في وصف قبلة واحدة لا أكثر.

الآن قبلة بروس لم تحدث حقاً، وانتهت بعد طول السرد على
خذ الحبيبة، استطاع أن يصفها إلى ذلك الحد؟

ولأن رودان لم يكن وفيّاً تماماً لكامل كلوبيل النحاتة التي أقامت
معه علاقة عاصفة أوصلتها إلى مصحح المجانين حيث ماتت، أراد منذ
البدء أن يعوّض عن غيابها الحتمي في معترفه وفي حياته، بتمثال
مريك في عريه يخلد به قبلة لن تتكرر بينهما.

هل وعي الخذلان المبكر شرط إبداعى؟ والعودة بسلال فارغة
وحدها يمكن أن تملأ كتاباً؟

الجواب عن هذا السؤال لا يعني الآن.. وفي جميع الحالات أنا
عاجزة عن الجواب عنه.

هذه الرغبة التي تسكنني الآن تمنعني من التفكير. تشعّلي، تحرق
أصابعي. تمنعني من الكتابة. بل ربما كانت أرغمتني على الكتابة، لو لم
يكن أمامي هذا الهاتف، الذي يمنحك بأرقام سحرية وجبة حبّ فورية،
تجعل من الحماقة الجلوس أمام ورقة لاستحضار حبيب بالكتابة!

أتجه نحو الهاتف، لأطلب ذلك الرجل. وأنا أفكر في ما سبّبه هذا
الجهاز من خسارة للأدب. فكم من نصوص جميلة.. وكم من رسائل
حبّ لن تكتب، قتلتها كلمة «الو»!

ولكن قبل أن أرفع السماعة، دقّ الهاتف وهزّني. كان زوجي على
الخط يحدث لكلمة «الو» أن تقتل الوهم أيضاً!!

جمل عجلي تتبادلها، وكأننا نتحدث على بعد قارات. أو كأنّ
الهاتف الذي يتحدث منه ليس مدفوعاً من طرف الدولة.

فليكن! إنّه دائماً على عجل. وربما كانت الأحداث جوله هي التي
تسرع، مادام يأمرني بالعودة إلى قسنطينة، بعد غد، على متن الطائرة،
لا في السيارة، نظراً إلى تدهور الوضع الأمني في العاصمة.
اسأله ماذا أفعل بالسائق. يقول:

- ليعد وحده بالسيارة. بعد أن يوصلك أنت وفريدة إلى المطار.
لقد حجزت لكما على الرحلة الصباحية. الساعة التاسعة والنصف
اغلق السماعة وأبقى للحظات جامدة.

كانت عودتي متوقّعة، نظراً إلى حلول العيد بعد ثلاثة أيّام. ولكن
كنت أتوقّع معجزة ما، أو حادثاً طارئاً ما، يجعل زوجي يطلب مني
البقاء، إلى حين عودة أمي من الحجّ. وهو ما سيمنحني فرصة لقاء
ذلك الرجل ولو مرة أخرى.

فكرة الوقت الذي بدأ بمطاربتي جعلتني استعجل في طلبه،
وكأنني أدخل فوراً في سباق مع الزمن.
سنة أرقام.. هاتف يدقّ دفتين لا أكثر.. وصوت يردّ، وكأنّه هنا
في انتظارني:

- هل وصلت بسلامة؟

- نعم.. وأنت؟

- لم أغار البيت. فضلت أن أستفيد من ذاكرة الأمكنة. رانحتك
ما زالت تسكن هذا البيت. إنّها عقابك الجميل لي.
- لم أقصد ذلك..

- كان يمكن أن تفعلي، لو قرأت ما فعلت جوزفين بنابليون، عندما أجبرها على مغادرة القصر.

- ماذا فعلت؟

- رشتَ بعطرها غرفته، بما يكفي لإبقائه خمسة عشرة يوماً محاصراً بها، رغم وجوده مع أخرى. وقبلها كانت كليوبترا ترشَ أشربة باخرتها بعطرها، حتى تترك خلفها خيطاً من العطر حيث حلت.

اقول ضاحكة:

- حسناً.. سأستفيد من هذه المعلومات للمرة القادمة.

ولكنه يردّ بعد شيء من الصمت:

- لن يكون هناك من مرة قادمة.

- لماذا؟

يردّ دون أن يؤثر انفعالي في نبرة صوته:

- لأنني مسافر غداً..

- أنت ذاهب إلى قسنطينة؟

- لا.. إلى فرنسا.

أصرخ من جديد بعجب:

- إلى فرنسا! وماذا ستفعل هناك؟

يجيب ضاحكاً:

- ما يفعله الآخرون عندما يسافرون إلى هناك.

- ولكنك..

يقاطعني:

- ولكنني لا أشبههم.. اليس هذا ما تعنيه؟ أنا كائن حبريّ أسافر بين دفاترك ومعك فقط. ومن قسنطينة إلى العاصمة.. لا أكثر. وليس من حقّي أن أخذ تذكرة سفر لشخص واحد.. ولوجهة ليست وجهتك.
يصمت ثمّ يواصل:

- ولكنني لست البطل الذي تتوقّعين. أبطالك لا يمرضون، ولا يشيخون، وأنا متعب ومريض يا سيّدي.

أقول بخوف مفاجئ:

- ممّ تعاني؟

يردّ متهمكًا، كما لفرط حزنه:

- أعاني الرقوف.. لقد قضيت عمري واقفًا، لأنني لا أحسن الجلوس على المبادئ.

لا أريد أن أتعصّب في فهم ما يقوله. سؤال واحد يعينني:

- ومتى تعود؟

- لا أدري.. أنا رجل عابر.

- ولكنني معنيّة بحياتك..

يجيب ساخرًا:

- أيّ حياتي تعنيك؟

أصمت. لا أفهم ما يقصد.

يواصل:

- أنا لم أوفق في حياتي. ولذا أصبحت أمنيتي أن أوفق في موتي. أيمكن أن تهدي إليّ موتاً جميلاً.. إذا ما خذلتني الحياة في المشهد الأخير؟

أصرخ:

- ما هذا الذي تقوله؟ لقد كنّا منذ ساعات قليلة سعيدين، نتحدث عن الحب. ما الذي أوصلك إلى هذا التشاؤم؟

يضحك:

- ولكن لأنّ الحبّ يعنيك.. لا بدّ أن يعنيك الموت أيضاً. فالحبّ كالنوم.. همّا اللّغزان الكبيران في هذا العالم. كلاهما مطابق للآخر في غموضه.. في شراسته.. في مباغتته.. في عبثيته.. وفي أسئلته.

نحن نأتي ونمضي، دون أن نعرف لماذا أحببنا هذا الشخص دون آخر؟ ولماذا نموت اليوم دون يوم آخر؟ لماذا الآن؟ لماذا هنا؟ لماذا نحن دون غيرنا؟ ولهذا فإنّ الحبّ والموت يغذيان وحدهما كلّ الأدب العالمي. فخارج هذين الموضوعين، لا يوجد شيء يستحقّ الكتابة.

يستدرجني كلامه إلى حالة من التفكير. فأغرق في سمعت يقطعه من جديد صوته:

- أتدرين بماذا فكّرت وأنا أقبلك اليوم؟

- بماذا؟

- فكّرت.. أنّه إذا كانت كلّ القبل مثلنا نموت، فالأجمل أن نموت أثناء قبلة.

- عجيب.. هل تصدّق أنّني عندما عدت، كتبت على دفترتي «ثمة قبل إن لم نمت أثناءها فنحن لسنا أهلاً للعيش بعدها».

يسجل لحظة صمت وكأنه يتعمق في هذه الفكرة أو يذوقها . ثم يقول:

- لقد أدركت وحدك.. أنه فوق هلامسة الموت. لا توجد حالة حب شائعة بما فيه الكفاية لتسمى عشقاً .

أصمت. وكأنني تلميذة تحاول أن تحفظ كل ما يلقنها أستاذ، لا برنامج دراسياً له عدا مزاجه المتقلب، وعليها أن تستوعب في يوم واحد، درساً في الرغبة، وثانياً في الموت، وثالثاً في الحب، وآخر في فن التخلي عن امرأة، قبلهاها بكل تلك الشغف.. ونفادها بهذا القدر من اللامبالاة!

هذا كل ما علق في ذهني من هاتفه.

لا أذكر أنه قال بعد ذلك كلمة حب معينة. أو أنه ترك لي رقم هاتف آخر. أو عنواناً بالتحديد.

قال فقط، إنه يحمل معه رائحة الوقت المسروق. وأضاف معتزلاً أنه يريد أن ينام ليستريح استعداداً للسفر.

وفهمت أنه سيكون بإمكانني أن أطلبه غداً، حين أستيقظ، لتحدث مرة أخيرة في هذه التفاصيل.

ولكن في اليوم التالي، كانت الساعة السابعة صباحاً. كنت أستيقظ من ليلة مضطربة، عندما طلبت ذلك الرقم وأنا نصف نائمة. كان الهاتف يدق بطريقة شبيهة بالبكاء.. ولم يكن ثمة من أحد ليقف بكاءه على الطرف الآخر للذاكرة. إنها ملهاة الحب الدائمة التكرار. الآن فقط يمكن للصمت أن يبكي.

حتمًا

ناتي الحب متأخرين قليلاً، متأخرين دوماً.
 نطرق قلباً بحذر، كمن مسبقاً يعتذر، عن حبٍ يجيء ليمضي.
 بصيغ مغايرة، يعيد الحب نفسه، ببدايات شاهقة الأحلام..
 وانحذارات مبالغتة الألم. وعلينا أن نتعلم كيف ننتظر أن يوصلنا
 سائق الحب الثمل الى عناوين خيبتنا.
 حتماً.. نضج الحلم. ولكن الزمن هو الذي لم يستَوِ بعدُ. فما
 جدوى أن يبلغ القلب رشداً سريعاً؟
 جاء العيد. ولقسطنطينة عيد آخر.
 أعود إليها، بقلب متعبد الانكسارات. ها أنا أنهض من تحت
 انقاض الحلم. انتفّس من تحت ركام هائل من الأوهام.
 وما هي تفاجئني بوجه لا أعرفه. وقد تراكمت فيها القمامة على
 امتداد الشوارع بعد أن أضرب فيها عمّال البلدية والتنظيفات الذين
 صادر الإسلاميون شاحناتهم المخصصة لنقل النفايات، لإرغامهم
 على الانضمام إلى الإضراب المفتوح.. ممّا جعل القطط هي المحتفلة
 الوحيدة بالعيد.

استعجل العودة إلى بيتي. حيث أنا لا شيء يصلني سوى
ضجيج المدينة التي تستعد لفرحها.. و«ثغاء» الخرفان التي تنتظر
فجرًا موتها.

أكره الأعياد. وهذا العيد كان أكثر الأعياد حزنًا. كان عيد
الغياب.

انتابني هذا الإحساس، وأنا استيقظ تلك الصباح، فلا أجد أحدًا
في البيت لأعيده عدا الشغالة. ولا أحد يمكن أن أطلبه على الهاتف،
عدا زوجة عمي أحمد التي زادني سماعها حزنًا. وأيقظ إحساسي
بالذنب تجاهها.

زوجي كان قد غادر البيت باكراً. تحسبًا لمظاهرات أو لاحتداث
طارئة قد تحدث بعد صلاة العيد. فريدة ذهبت كعادتها لقضاء العيد
مع أهلها. «ماء» لم تكن قد عادت بعد من الحج.. وناصر لم يكن في
البيت ليرد على هاتفي. والخرفان نفسها، التي كانت في حديقة
البيت، لم تعد هنا. ولم يبقَ منها سوى أثار دم على الأرض، وجثة
معلقة يتسلل جزار بسلخ جلدها.

ماذا يفعل الناس صباح عيد الأضحى غير الانقضاض على
لحوم الخرفان سلخًا وتقطيعًا.. وتقسيمًا. فهذا لا يمكن لأحد أن
يتصور عيد الأضحى دون أضحية. مهما كانت إمكانياته المادية، أو
نوع البيت الذي يسكنه. ولذا تعودت أن أراهم صباح العيد مسرعين
جميعهم: الرجال نحو الذبائح.. والنساء نحو المطابخ، يقسمن أجزاء
الشاة حسب حاجتهن ويتصدقن بما زاد عنهن.

هذا العام اتوقع أن تكون الحاجة إلى الصدقات قد زادت، بعدما تجاوزت أسعار الخروف، العشرة آلاف دينار جزائري. وهو ما جعل أضحية العيد تفوق ثمن الإنسان نفسه، الذي لا يكلف هذه الأيام أكثر من رهصاصة..

أطلب زوجي على الهاتف لأعابه. أشعر أن هاتفي يفاجئه وربما يسعده. أسأله إن كان أرسل شيئاً إلى بيت عمي أحمد. يقول إنه نسي ذلك، نظراً إلى مشاغله. أجيبه أنني سأتكفل بالأمر. وقبل أن أواصل كلامي يندق في مكتبه هاتف آخر.. ويتوقف بيننا الكلام.

أطلب من السائق أن يأخذ نصف الشاة إلى بيت ذلك المسكين. ثم الحق به.. وأطلب منه أن يوصلني قبل ذلك إلى المقبرة.

لم يحدث إلا نادراً أن زرت قبر أبي صباح العيد. كنت أحب أن أذهب إليه وحدي. كما نذهب إلى موعد حبّ.

أكره أن أزوره في المناسبات. ربما من كثرة ما تقاسمته مع الآخرين، كتلك المرات التي أعبر فيها شارعاً أو مدرسة تحمل اسمه، فأشعر باليتم يجتاحني، ويكاد يغطي علي زهوي يحمل الاسم نفسه.

كان بيني وبين هذا الرجل، الذي يقيم تحت هذا الرخام، تواطؤ ما. ولذا صنعت له ضريحاً صغيراً داخلي، لا علاقة له بوجاهة مقامه هنا، ضريحاً كان يكبر معي سنة بعد أخرى. وإذا به في غيابه، أكبر ممّا حولي من أحياء.

كنت أجلس إليه بين الحين والآخر، كما تجلس النساء إلى ضريح

الأولياء، يشكون همومهن، ويستنجدن ببركات الأموات على مصائب الحياة.

وأحياناً، أغلق باب غرفتي، وافتح له ذاكرة حزني وأخطائي. وأدعوه إلى الجلوس على طرف سريري. أقصّ عليه بعض ما حلّ بي. استشيرته، وأتوقّع أجوبته. وعندما لا يأتي جوابه، وتبقى صورته صامته، أجهش بالبكاء.

أخاف أن أكون قد قلت له الكثير عني. أخاف أن لا أكون عند حسن ظنه. فلا أصعب من أن تبقى عند حسن ظنّ الأموات.

اليوم أيضاً، ككلّ المرات التي كان يضيق بي فيها القدر، وتخذلني الحياة، تقودني خطاي نحو هذا الشّبر من القراب، أنبش فيه عن جواب لأستلتي الكثيرة.

ولكنّي هذه المرة لم أعثر على جواب. وإنما عثرت على ناصر، وهو بهم بمفارقة المقبرة.

ومما زاد من اندهاشي، أن لا تكون زيارة قبر أبي في الأعياد إحدى عاداته. بل نقلت لي أمي منذ مدّة، أنّه أفتى لها بأنّ زيارة القبور والأضرحة غير مستحبة.

وكعادتي، لم أجابه في معتقداته، ولا في وجوده هنا، حيث لم أتوقّعه.. كالعادة. اكتفيت بإبداء اندهاشي لوجوده، وفرحتي بلقائه.

ولكنّي لم أمنع نفسي وأنا أقبله، من أن أسأله عن مظهره الذي بدا لي قد تغيّر، دون أن أتمكن من معرفة ما تغيّر فيه بالتحديد. ردّ بشيء من السخرية:

- لقد فقدت كثيراً من وزني في الفترة الأخيرة..

ثم أضاف:

- كي لا أفقد معتقداتي!

لم أفهم ما يعنيه. أجبتّه بلهجة فرحة:

- هذا أفضل.. أنت تبدو أكثر شباباً هكذا..

أجاب بالسخرية نفسها:

- وواش أندير بشبوبيتي؟..

هوذا كعادته، يستدرجني إلى موضوع لن يكون من السهل الخوض فيه. كنتك المرة التي طلبت منه فيها، منذ سنوات، أن يأخذ الساعة الجدارية لإصلاحها، لأنها تتأخر عدة دقائق كل مرة، ولكنه ردّ هازئاً:

- روعي.. يا بنتي روعي، إحنا رانا عايشين متأخرين على العالم بقرن. وإنّ قاعدة عقاب الساعة، تحسبي لي في الدراج والدقائق. قرن كامل ما قلّكش.. وقلّك الدقائق. حتّى الرّاجل إذا نديها لو يموت بالضّحك... في هاذ البلاد.. النّاس ما يأخذولو ساعة غير لما تحبس!

اتفادى الدخول معه في جدل سيهزمني فيه لا محالة. لأنّه يردّ على منطقي في الحياة، بمنطقه في معاشتها. وهو ما يجعل الحقّ دائماً إلى جانبه.

أقول كمن يعتذر:

- كنت على سفر. ولم أعد سوى منذ يومين. طلبتك هذا الصَّبَاح
لأعابذك.. ولكنني لم أجذك.

رد:

- انا لا أقيم في البيت. كلنا على سفر كما ترين، وحدهم الاموات
اصبح لهم عنوان ثابت هذه الايام!

يواصل بعد شيء من الصمت:

- لانه لم يعد لهم من شيء يخافون عليه.. او يخافون منه.

أسأله مستفيدة من هذا السياق:

- وعم أنت خائف؟

يرد بثقة وكأنني وجهت إليه تهمة:

- من الله.. من الله وحده.

ارد:

- كلنا نخاف الله..

يجيب:

- كيف يخاف الله من يطيع اعداءه؟

اصمت. لا لأنني لا اقدر على جوابه. ولكن لأنني أجد جدلنا هذا،
امام مقبرة ذات عيد، ضرباً من الجنون. فنحن لم نأتِ هنا لتناقش
ولا لتتشاجر.

جننا لنقرأ الفاتحة على قبر والدنا، وما هي ذي السياسة تطاردنا
الآن في كل مكان، حتى في أسرتنا، وحتى في دفاترنا، وحتى في
المقابر.

أقول:

- ناصر خويا.. الناس تلتقي اليوم لتتعايد، وتتصالح، وتتسامح،
وانت لا اكاد اسلم عليك حتى تنفجر في وجهي.. كن أخي ولو
صباح العيد.

يقول متذمراً:

- أي عيد؟ انظري حولك القبور، كلها جديدة، كلها طرية، تستقبل
كل يوم دفعة جديدة من الأبرياء.

- وما نذبي أنا؟

- ذنبك.. أنك تقسمين مع الشيطان بيته وسريره.

أرد:

- لا أدري إن كان هذا الرجل ملاكاً أو شيطاناً. لا اعتقد أنه
يختلف عن الآخرين، سوى بكونه ضابطاً سامياً تقع على اكتافه
مسؤوليات الدفاع عن الوطن، هذا الوطن الذي أؤمن به أكثر من
إيماني بالملائكة.. والشياطين.

- ولا يزعجك أن يحتضنك بيدين ملطختين بالدم؟ بتعليمات منه
يسجن الأبرياء، وتمتلئ هذه القبور. ما فائدة ما تعلمته إذن، عن
حرية الناس في اختيار مصيرهم؟

- ما تعلّمته لم يفدني في شيء.. ولا حتّى في اختيار مصيري.
فكيف تريد أن أفرّج مصير الآخرين؟ ثمة أكثر من ستين حزبًا معترفًا
بها رسميًا. ومهمتها تمثيل الشعب، والدِّفاع عن اختياره. أمّا أنا فلا
يوجد حزب ليدافع عني. وحتّى أنت.. لم تسألني قبل اليوم عن رأيي
في شيء، فلماذا تعجب أن لا يكون لي اليوم رأي؟

يصمت. وكأنّه لا يجد ما يقوله، أو لا يجد جدوى من الكلام.
يستعيد لهجة أكثر حنانًا. ويقول وكأنّه يودعني سرًّا.

- حياة.. انخاف عليك

أتمتم:

- من واش؟

يجيب:

- من كلّ شيء!

أردّ بالحنان نفسه:

- لقد خفت عليّ دائمًا من كلّ شيء..

يجيب:

- ولكن هذه المرّة أدري تمامًا ما أقول. أتركي هذا الرّجل، أطلبني
منه الطّلاق مادام ليس لك أطفال منه.

أبتسم ثمّ أضحك لكلامه.

يسألني عاتبًا:

ما الذي يضحكك؟

أقول:

- تذكّرت «مأ» لو كانت هنا وسمعتك تنصحنى بالطلاق لجئت.
هي التي تعتبر زواجى من هذا الرّجل اكبر مفاخرها.
يرد:

- لا تهتمى بأّمى. إنّها تعيش حياة مستندة إلى حقيقة واحدة
(الأخرين). في الواقع هي تستند إلى جدار من الوهم الكبير.
استندي إلى الله في أي قرار تتّخذينه، فهو لن يخذلك.
أقول:

- لقد استندت إليه دائماً.. وإلى هذا القبر. وقدرى نتيجة هذا.
وكنت أتمنى أن تكون أنت أيضاً سندي. إنّك كلّ ما أملك في هذه
الدّنيا. ولكن ما نحن كالفرياء نلتقي مصادفة في المقابر.. لا تطلبني
ولا تزورني، وعندما أزورك لا أجذك.
يقاطعني بشيء من المرارة:

- ذات يوم.. لن تجدي صعوبة في العثور عليّ. سيكون لي أخيراً
عنوان ثابت هنا.

أصرخ:

- ما هذا الذي تقوله.. أجننت؟

يقاطعني:

- الموت اقرب إلينا ممّا تتوقّعين. أتريدان أن أدلكّ على قبر لصديق،
قتل منذ أيام دون مبرّر، سوى لأنهم اشتبهوا في أمره، وهو يضع يده

في جيبه ويوشك أن يخرج منها شيئاً، على مقربة من شرطي. عندما قتلوه، اكتشفوا أنه لم يكن يحمل في جيبه شيئاً. تصوّرني: الآن بإمكانك أن تموتي لا بسبب جريمة ارتكبتها، وإنما لأنّ هناك افتراضاً أن تكوني مجرمة. حسب المكان، أو الزمان، أو الهيئة التي يصادف أن تكوني عليها وقتها. أي أننا جميعاً متهمون مفترضون. يكفي أن تتوافر فينا إحدى هذه المصادفات.. وتتطابق مع «أعراض إرهابية»!

أقول:

- لا أظنّ أن أحداً يحبّ إيذاء الآخر، أو قتله لمتعة القتل. ولكن كل واحد أصبح يعتقد أنّه إن لم يكن القاتل، فسيكون القتيل. إنّها قضية ثقة. لقد فقدنا الثقة ببعضنا بعضاً. إنّ زمن الانجراف نحو الشرّ. يجب أن لا ننساق فيه إلى ركوب هذا القطار المجنون. الحياة جميلة يا ناصر، صدّقني.. يكفي أن نضع فيها شيئاً من الحبّ.

يصمت ناصر. ثمّ يحتضنني ويقول:

- أحياناً أتمنّى أن أشبهك

- وأنا أتمنّى دائماً أن أشبهك. لقد باعدتنا الحياة أحياناً. ولكن

لن يفرقنا شيء. اليس كذلك؟

يجيب:

- لا.. لن يحدث هذا.

يمشي خطوات، ثمّ يعود، وكأنّه تذكّر شيئاً. أو كأنّه قرّر أن يقول

لي شيئاً، تردّد في قوله. يهمس:

- حاولي ان تأتي لزيارتنا في البيت خلال اليومين القادمين. إن أمي ستعود بعد غد من الحج. إنني انتظر عودتها لاسافر. وأود ان أودعك قبل سفري.

أسأله دهشة:

- تسافر؟ إلى أين؟

- سأقول لك هذا في ما بعد. لا تخبري أحداً بهذا الامر.

ما يكاد يختفي حتى اجلس منهارة عند اقدام ذلك القبر. ورفاجنني البكاء.

أي زمن هذا الذي أصبح فيه الإخوة، يلتقون مصادفة في المقابر صباح العيد. فيتشاجرون ويتصالحون على مسمع من الموتى. ثم يفترقون، دون أن يدروا متى سيكون لقاءهم القادم... وفي أي عالم!

* * *

انا التي ذهبت يومها أبحث عن أجوبة، عدت بأسئلة أكثر، بعد أن قضيت نصف نهاري في مواساة عائلة عمي أحمد، والنصف الآخر في مواساة نفسي، عن رجال لا يأتون إلا ليرحلوا، ولا يسلمون علي إلا ليودعوني. ولا يتحدثون إلي، إلا ليضعوا الموت طرفاً ثالثاً بيننا.

اثمة في هذا البلد، عدوى انتشرت بين الرجال.. جعلتهم جميعهم يتكلمون الكلام نفسه، ولا يطمون سوى بالرحيل؟

في المساء، جلستُ لياقة لأشارك زوجي العشاء. في الواقع، كنت

قد قرّرت منذ أيّام أن لا أكل شيئاً من لحم تلك الخرفان، التي ظنّنت رؤوسها ترتجف لعدّة أيّام، بسبب ما عانته من دوّار البحر، لقضائها شهراً ونصفاً، محشورة في الطبقات السفليّة لباخرة.

زوجي كان مرهقاً بدوره إلى درجة لم يلحظ معها غياب شهيتي. تبادلنا أحاديث عادية، عن أشياء عامّة دون تحديد. وما أنهى عشاءه حتّى رأيته يتّجه نحو غرفة النّوم ويخلع ثيابه. وكأنّه يخلع عبئاً كان يحمله طوال النّهار. ويلقي بنفسه على السرير. قلت له وأنا أعلّق ثيابه على المشجب:

- كنت أتمنّى لو قضيت هذا اليوم معي.. لا أفهم لماذا لا بدّ أن تقضي كلّ الأيّام في مكتبك.. حتّى الأعياد. اجابني:

- إذا قضيت معك العيد، فمن يضمن الأمن في مدينة يتجاوز عدد طلابها في جامعة واحدة 23 ألف طالب. أمّا مساجدها فلا أحد يعرف عددها.. إنّها تنبت كلّ يوم.. قلت:

- كنت أقصد أنّنا لم نعد نلتقي أبداً. حتّى العطل والأعياد. أصبحنا نقضيها كلّ على حدة.

أوصلني هذا السياق إلى ناصر. تذكّرت وتذكّرت حديثي معه. احتفظت بمشروع سفره لنفسه. ولكنني وجدتني دون تفكير أخبر زوجي بقلائي به هذا الصباح في المقبرة، برغم علمي أنّ زوجي يتحاشى الحديث عنه، وكأنّه يبادله مشاعر الكراهية نفسها.

ولكنه فاجاني هذه المرة، وهو يقول بشيء من الارتياح:

- حسنًا أن تكوني قد التقيت به..

ثم يضيف:

- كيف وجدته؟

أعجب لسؤاله.. أجيب:

- كالعادة.. ربما نحف بعض الشيء، ولكنه بصحة جيدة.

يسألني:

- ألم يخبرك بشيء؟

أصمت. أرتبك. يذهب فكري إلى كل الاحتمالات.

تراه يعلم بمشروع سفر ناصر؟ أكان هناك من تنتصت أثناء

حديثنا؟ ولكنني لم ألحظ أحدًا. وماذا لو كان يستدرجني ليعرف مني

ما يجهله؟

أجيب:

- لا.. لم يخبرني شيئًا، عدا أن أمي عائدة، بعد غد من الحج..

كي أستعد لاستقبالها.

يسألني وهو يصلح من جلسته مستندًا إلى السرير.

- ألم يخبرك أنه اعتُقل؟

أصرخ دهشة:

- اعتُقل؟ لماذا؟ ومتى حدث هذا؟!

- اثناء غيابك. لم اشأ أن أخبرك بذلك، حتى لا أشغل بالك.

أصاب بحالة ذهول.

أهو منخرط في تنظيم خطر؟ هل وجدوا في حوزته وثائق أو أسلحة؟ ولكن من المؤكد أنهم لم يعثروا على حجة كافية لإدانته، وإلا لما كانوا أطلقوا سراحه.

أسأل:

- ماذا فعل؟

يجيب:

- إن كثيراً من الشبهات تدور حوله، لإقامته علاقات مع جهات اصولية..

أجيب بعصبية:

- ولكن.. ان يتعاطف مع هؤلاء، لا يعني أنه إرهابي. لا يمكن لناصر أن يحمل السلاح ليقتل أحداً. أنا أعرف أخي.

يقاطعني بلهجة صارمة:

- إن أخاك يتكلم كثيراً. ولولا لسانه لوقر عليّ وعليه كثيراً من المتاعب. إنه يعتقد أن الاسم الذي يحمله يمنحه حصانة. ويُعطيه حق شتم السلطة وتحريض الآخرين. لقد تدخلت هذه المرة لإطلاق سراحه، ولكن لا يمكنني أن أفعل هذا دائماً. نحن نعيش حالة من القوتر الأمني يجب ألا يكون فيها استثناءات حتى لا يقرب الناس إلينا.. لابد أن تشرحي له هذا!

ماذا اشرح لناصر؟ أنا التي لم أتوقع أن خبر سجنه سيحرك في كل ذلك الوَحَل.

تركت لزوجي فرصة استعراض قوّة أمامي، وإشعاري بأنني مدينة له بالكثير.

لم تكن عندي رغبة في الدخول معه في أي جدل، ولا كنت مستعدة لأنّ انهي يوم العيد بالتشاجر مع زوجي.. وقد بدأت بالاختلاف مع أخي.

رايته فجأة يفرق في نوم عميق، فلم املك إلا أن انزلق جواره. وأحاول بدوري أن انام، مذهولة من امري.
لا أدري كيف مات غضبي.

الآن فقط اكتشفت أنّه مات. وأنني فقدت ذلك الحريق الجميل، الذي كثيراً ما أشعل قلبي وأشعلني في وجه الآخرين.

أن لا تكون لك قدرة على الغضب، أو رغبة فيه، يعني أنك غادرت شبابك لا غير. أو أنّ تلك الحرائق غادرتك خيبة بعد أخرى. حتّى إنك لم تعد تملك الحماس للجدل في شيء. ولا حتّى في قضايا كانت تبدو لك في السابق من الأهميّة، أو من المثاليّة، بحيث كنت مستعداً للموت من أجلها!

كانت عودة أمي من الحج، هي كلّ ما يعنيني الآن. ولا أدري أيّ شعور بالتحديد جعلني أستعجل لقاءها: شوقي إليها؟ أم حاجتي إليها؟ أم رغبتني في لقاء ناصر، ومعرفة ما يخبئ لي من مفاجآت؟

وأنا التي تعودت رؤية أمي ذاهبة أو عائدة من الحج، لم يفاجئني
جلوسها في الصالون بزيتها الأبيض، وغطاء رأسها الأبيض إيّاه.
بقدر ما فاجأني وجودها لمرة دون حاشيتها من النساء، اللاتي
يودعنهن ويستقبلنهن في كلّ ذهاب وإياب.

ولذا سعدت بالانفراد بها.. وربما الالتصاق بها، وكأنني أسرق
منها بعض بركاتها، قبل أن تعود امرأة عادية.

لا تكاد تراني حتى تبادرني بالسؤال:

- هياتك لا تعجبني.. هل بك شيء؟

أرد:

- لا

تواصل:

- لم تستفيدي من سفرك إلى العاصمة.. لقد عدت أكثر شحوبًا..
ربما البحر لا يناسبك.

أرد:

- بلى هو يناسبني.. ولكن هذه المدينة هي التي تتعبني.

فتعود إلى حديثها عن الحج، وقد اطمأنّ بالها أخيرًا لعدم وجود
مشاكل في غيابها.

تحكي عن الحرارة التي لا تطاق هذا العام في مكة.. وعن
الحجيج الذين ماتوا دعسًا.. وعن الدينار الجزائري الذي انهار..
وعن أسعار الذهب التي ارتفعت..

أستوقفها:

- «مًا.. هل رفعت لي دعاء هناك؟

تجيبني متعجبة:

- طبعاً يا ابنتي.. إنني أفعل هذا دائماً..

أقاوم رغبة جارفة في البكاء، وكأئنني كنت انتظرهما لأنهار باكية.
ولكنني لا أفعل؛ أواصل الاستماع إليها تحكي.. وأنا سرّاً أبكي.
أثناء ذلك، تحضر إحدى الجارات، ثم نساء أخريات. فأتركها
لهنّ. وأذهب نحو ناصر.. كعادتي.

أحبّ ناصر في صمته. في رجولته الموروثة من قنامة أبي
وملامحه. واليوم بالذات يبدو لي أكبر من عمره.

أحسّه رجلاً فوق العقد، فوق الشبّهات. إنّه لا يشترك في شيء
مع أولئك الذين وجدوا في الأصوليّة حلاً لكلّ عقدهم الرجاليّة، أو
مشاكلهم الأرضيّة. ووجدوا في تطرّفهم رداً على عجز عاطفيّ.. أو
انتقاماً لذاكرة طبقية أو تنفيساً عن عقدة وطنيّة.

لقد اختار هذا الطريق تاركاً كلّ شيء خلفه، بينما لحق به
الآخرون، لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً ليخسروه!

كان بإمكانه الحصول على أية بنت، وأية وظيفة، وأية ثروة، ولم
يفعل. ولا أدري أين كان يجد ثروته الداخليّة. ومع أية قضية تزوّج
سرّاً. إلى أيّ بلد كان يهاجر كلّ يوم، وهو جالس يحتسي قهوته
بتنمّر صامت، وأمّي تحبّه كلّ مرّة على الكسب، واغتنام الفرص التي

تتاح له . وتستفزّه بمقارنة حياته بحياة من هم أدنى منه، ونجحوا في حياتهم.

نجحوا في الحياة؟ في الواقع لا . هي تقصد من نجحوا في اختصار مشقة الحياة، ناهبين البلاد حيث وُجدوا، مشهرين غنائمهم دون خجل، رافعين في بضع سنوات قبليات شاهقة، تقف عند بابها سيارات فخمة. وتسكنها امرأة تسافر الى أوروبا في كل المناسبات لتجدد خزانتها.

لم تكن تعي أنّها كانت تعمق فيه الشعور بالخيبة، ولا تحثّه سوى على المزايدة عليها.

وكنّت أراه يوماً بعد آخر يفقد صوته في الردّ عليها، ويفقد أناقته، وكأنّه اضرب عن الحياة وعن الأناقة، لأنّ الوطن لم يكن في أناقة أحلامه!

اكان يدخل هو أيضاً حزب الصّمت، ويخلع صوته، تماماً كما خلع آخرون فجأة شعاراتهم، وحلقوا قناعاتهم، خوفاً من سجن يترصّص بالملتحمين.

جاء زمن شفرات الحلاقة إنن - أخيراً أصبحت متوافرة - نزلت الأسواق، مع نزول مفاجئ في القيم، وفي قيمة الإنسان. فهل هذا زمن الوطن التنازلي؟

نزلت.. ومعها نزلت الشعارات على الجدران، تعلن بدء الزّمن الصّعب. وامتلات السّجون بالملتحمين.. وبأولئك الذين أخذوا خطأ بين نارين.. كما في كلّ حرب.

أسألك بنبذة منخفضة:

- أيجب حقاً أن تسافر يا ناصر؟ وهل فكرت في ما سيحدث
لأمي في غيابك؟

يجيب:

- إنني أسافر كي أعود. ولكن إن بقيت فقد تخسرونني. أقول هذا
الكلام لك. أمّا أمي.. فساغافلها وأمضي بخديعة جميلة نحو قري.
ستحمل غيابي أكثر من تحملها خبر سجنني أو موتي.

- ولكن هل الخيارات محدودة حقاً إلى هذا الحد؟

- - طبعاً.. لقد انتهى ذلك الزمن الوديع في خيباته. جاء زمن
السجون.. والموت المباحث.. والاعتقالات الملققة.

أقول:

- لقد أبلغني زوجي أنك اعتقلت أثناء غيابي.

يقاطعني:

- وأبلغك أيضاً أنه تدخل للإفراج عني.

- وهل هذا غير صحيح؟

- نعم.. ولكنّها مراوغة سياسية متعددة الأهداف. إنّه من جهة
يجعلني مديناً له بهذه الخدمة، ومن ناحية أخرى يثير حولي
الشبهات، ويجعل رفاقي يشكّون في مصداقية معاداتي للسلطة.
مادمت لم أسجن سوى يومين وبقوّن هم هناك لعدة أشهر، وربما
لسنوات. ثم.. إن يطلقوا سراحك فهذا لا يعني سوى بدء مشاكلك،

خاصة مذ بدأوا بإطلاق سراح كل من يزعجهم، كي يتمكنوا بعد ذلك من قتله خارج السجن، تحت ستار الموت العشوائي. فماذا بقي لي من اختيار سوى الرحيل؟

استمعت إليه، كمن لا يصدق أمرًا لفرط غرابته، أو كمن يرفع الغطاء خطأ أمامك عن صندوق قمامة، دون أن يعتذر لك عن عفونة أحلامك.. التي كنت أودعتها مكانًا «أمنًا» اسميته الوطن!

فجأة، لم تعد لي من رغبة سوى الهروب به إلى أي بلد آخر.. أو أية قارة أو كوكب آخر، ريثما يمر قطار الجنون.

انا التي لم اقتنع يومًا بمنطق رجل يتركني ويسافر. اقتنعت بمنطقه في مغادرة الوطن. ووجدتني ألق مع أكاذيب وهججًا، لإقناع أمي بذلك.

عدت يومها محمّلةً بقُبَلِ ناصر.. وتعليماته. أمّا أمي فقد حملتني بعض ما أحضرت لي من هدايا. وعلى رأسها (ماء زمزم)، الذي تعودت أن تأتيني به في كل حجة، تحسبًا لذلك اليوم الذي قد أحبل فيه.. وأستنجد به عندما أضع مولودي!

في انتظار ذلك، انا حبلى بذلك الرجل. إنه الشيء الوحيد الذي يكبر داخلي كل يوم. وإذا به يومًا بعد آخر يغطّي حتى على رحيل ناصر، وعلى خيباتي الأخرى. ولا أفهم أن يستطيع هذا الرجل أن يفعل بي كلّ هذا، وأن يواصل برغم كلّ ما يحدث حولي من مأس، الإقامة داخلي، ومنعي من التركيز على أي شيء عداه.

أكثر من كلماته، عقلت بي رائحته الممتزجة بعطرٍ ما، وبرائحة تبغٍ ما، وبرائحة عرقٍ ما. لتتشكل كلُّها هذا الحضور الذي يوقظ حواسِّي، والذي لا اسم له، أو ربَّما كان اسمه هو.

وأذكر أنَّ ديدرو الذي وضع سلمًا شبه أخلاقيٍّ للحواسِّ، وصف النظر بالأكثر سطحيَّة، والسمع بالحاسَّة الأكثر غرورًا، والمذاق بالأكثر تطييرًا، واللمس بالأكثر عمقًا. وعندما وصل إلى الشمِّ. جعله حاسَّة الرغبة، أي حاسَّة لا يمكن تصنيفها، لأنَّها حاسَّة يحكمها اللاشعور. وليس المنطق.

المخيف مع هذا الرَّجل. أنَّه جعلني اكتشف حواسِّي. أو على الأصحَّ، خوفاي النَّسانيَّ من هذه الحواسِّ.

بل إنَّه وضعني في حالة من فوضى الحواسِّ أخاف أن يأتي يوم، لا أستطيع معها أن أحسه، أو أن أتعرف إليه، بعد أن خرجت معرفتي به عن المنطق.

ولذا قرَّرت يومًا التفرُّغ لمطالعة ذلك الكتاب الذي أحضرته معي لهنري ميشو، والذي وضع جوار مقاطعه إشارات أو ملاحظات. وكأنَّني وقد فشلت في اكتشاف ذلك الرَّجل في الحياة، رحت أحاول اكتشافه خارج سطوة حضوره. بهدوء من يطالع رجلاً في كتاب.

أن تعيش مأخوذاً بلغز شخص غامضٍ حدَّ الإغراء، وحدَّ الإزعاج أحياناً، قد تكون فرصتك في كتابة رواية جميلة. هذا إذا كنت روائياً. أمّا إذا كنت عاشقاً، فسيكون في لغزه عذابك ولعنتك. ذلك أنَّ

الحب سيحولك رَجُلَ تحبُّ. حتَّى ليكاد يصبح التحرِّي مَهْنَتَكَ الأخرى.

ككَلَّ عاشق، أنت تريد أن تعرف كلَّ شيء عنه. تريد معرفة ماضيه وحاضره، وأسماء من أحبَّ ومن أحبَّوه، عناوين البيوت التي سكنها، والمدن التي زارها، والمهن التي مارسها، والأماكن التي يرتادها.

تطارده بالأسئلة لتعرف برجه، وهواياته، وانتعاماته.. حتَّى إنك قد تعود بكتاب من مكتبته، فقط لمحة التجسُّس على قراءاته!

إن في الحبِّ كثيرًا من التلصُّص والتجسُّس والفضول. والأسئلة لا تزيدك إلَّا تورطًا عشقيًّا. وهنا تكمن مصيبة العشاق!

سؤالي الأول كان: ما الذي أوصل هذا الرَّجُل إلى هنري ميشو؟ ولماذا اختار هذا الكتاب ليسجِّل عليه خواطره؟ ولم أجد من جواب سوى كونه كان رسامًا أيضًا.

وعندها أصبح السَّوَال، كيف يمكن أن أفهم رجلاً من خلال شاعر هو نفسه غامض. حتَّى إنَّه كان شاعر الأسئلة التي لا تقضي سوى إلى أسئلة أخرى. وكلَّ حياته كانت مبنية على الانتهاكات الدائمة لوجاهة الحياة الظاهرية. فقد ظلَّ يرفض الجوائز الأدبية، ويرفض أن تؤخذ له صورٌ فوتوغرافية، ويرفض أن تصدر كتبه في طبعات شعبية، بل ظلَّ يتمنَّى لو أصدر من كلِّ كتاب له خمس نسخ فقط. ولم يفارقه طوال حياته إحساس دائمٌ بالعبثية، يتَّضح منذ الفكرة الأولى:

«في ردهة روحك، ظناً منك أنك تجعل من الآخرين خدماً لك، تكون على الأرجح أنت من يتحول بالتدريج خادماً. خادم من؟ خادم ماذا؟ إذن، فابحث، ابحث».

على هامشها كُتِب: «لا تبحث... ستضع ذكائك في خدمة الجنون» ثم خاطرة أخرى:

«في غياب الشمس تعلم أن تنضج في الجليد»
وأضاف باللون الأزرق أسفلها «أو في جريدة!» ثم:

«إذا كنت الإنسان المقدم على فئسك... فلا تفشل كيفما كان» وواصل القلم «أما إذا كنت مقدماً على الموت... فلا تهتم!».

أن يطالع أحد هواجسك في كتاب، تركت عليه بعض أرائك، أو علمت على بعض جملة، كأن يطالع شخصيتك في حقيقة يدك. أو يتلصص عليك من حيث لا تتوقع.

الأشياء الحميمة، نكتبها ولا نقولها. فالكتابة اعتراف صامت. ولذا أشعر بشيء من الحرج أمام كتاب لم يكن مهياً لي.

بل لا أفهم، كيف تجرّ ذلك الرجل على إعارتي إياه دون تردد. وإذا بي أقرأ الكتاب قراءتين، في وقت واحد.

أحبّ تلك النصوص التي تكتب بقلمين. والتي تشبه في وقعها تلك الموسيقى التي تعزف على البيانو بأربع أيدي، وبثناوب عازفين. كهذه الخاطرة التي تبدأ بعزف منفرد على إيقاع «هنري ميشو»:

«في استطاعتك أن تكون مطمئناً. لا يزال فيك بعض نقاء. في حياة واحدة.. لم تستطع أن تدنس كل شيء!».»

ويدخل العازف الآخر. ليضيف بنوثة مفاجئة «أحقاً؟».

أو هذه التي تأتي كما في عنف «بيرليوز» في سمفونيته المدمرة (La Symphonie Fantastique):

«ما الذي تهدمه عندما تكون هدمت ما أردت هدمه: السدّ المنيع لعرفتكَ الخاصة؟».

وتردّ أصابع واثقة.. بقلم أزرق «بل جداراً اسمه الخوف».

ثم يتفلق البيانو. ويواصل القلم الأزرق بصمت، وضع سطر تحت أبيات وخواطر استوقفته.

«لا تتعجل أخطائك. لا تستخفّ بها وتعمل على إصلاحها.. إذ ما الذي تضعه مكانها؟»

أو

«لم البث أن انتبهت

أنني لم أكن النمل فحسب

ولأنما كنت أيضاً طريقه»

أو

«النوم في النهاية، هو أكثر خيياتك ثباتاً» وجوارها سؤال بالقلم

بصيغة خيبة اكبر، تأتي كما لو أنّها الجملة الأولى في السمفونية

الخامسة لبيتهوفن: «والحبّ إذن؟».

ووصفتُ الأزرق.

قضيت أيامًا في العودة إلى «أعمدة الزاوية» من باب الفضول في البدء، ثم مأخوذة بتطابق هذين الرجلين في كثير من الأشياء. كحبهما للرسم، وحبهما للون الأسود الذي كان غالبًا ما لا يرسم هنري ميشو إلا به، أو عليه، لوحاته. إضافة إلى كراهيتهما المشتركة للأسماء وللأضواء. وهاجس الموت الذي يسكنهما معًا.

اكتشافي الآخر كان، أن هذا الرجل يعمل في جريدة، وأن في حياته خيبة عاطفية كبرى، وأنه يملك أسلوبًا على قدر كبير من السخرية، التي تخفي مرارة وذكاء حائنين. وهو تمامًا.. النوع الذي أعشقه من الرجال.

الآنني كنت مسكونة بهاجس ناصر، وجددني أيضًا اطالعه، وأعود إليه من بين فكرتين؟

ثمّة كتب تضعك أمام اكتشافات مذهلة. تكتشف فيها نفسك، ومساحات منك لم تكن تعرفها.

وأخرى شخصًا آخر، لم تكن تتوقعه. بل إنها قد تفضي بك من شخص إلى آخر. وها أنا أمام ناصر. حتى بدا لي أن بعض الخواطر هو قائلها. كذلك البيت:

«لا اسم لي

اسمي تباير للأسماء»

وهل كان ناصر عبد المولى إلا تبخيراً لحلمين ولأسمين: اسم جمال عبد الناصر، واسم الطاهر عبد المولى؟

كيف يمكن أن تولد أثناء حرب التحرير الجزائرية، بتوقيت التواريخ الناصرية دون أن تشعر في ما بعد، بأن سلسلة من المصادفات التاريخية، ستغير حتماً تاريخ حياتك.

قبل أي خطاب سياسي، تفتّح وعي ناصر على اسمه، الذي كان نصفه منذوراً للقومية، والنصف الآخر للذاكرة الوطنية.

قبل أن يكبر، بالقدر الذي يسمح له بمقابلة الأخبار، أو بمطالعة جريدة، فتح عينيه على غياب والده، وعلى الحضور الدائم لعبد الناصر، مبتسماً ومحياً في صورته الشهيرة. ليس فقط لعدم وجود جهاز للتلفزيون في بيتنا في تلك الأيام، ولكن لأنها الصورة الوحيدة التي كانت في غريبتنا، تزيّن غرفة متواضعة للاستقبال.

واذكر تماماً أنّ تلك الصورة وصلتنا إلى منفانا بتونس. عن طريق صديق لوالدي كان يدعى سي عبد الحميد، وكان يتردد علينا أثناء وجود والدي في الجبهة، محملاً بالهدايا وبمبلغ من المال، لا ادري إن كان منه أم بتكليف من الجبهة.

ذات مرة زارنا، وراح يلعب ناصر كمادته. ثم سأل «ماذا تريد أن أحضر لك؟» وإذا بناصر، ولم يتجاوز الرابعة من عمره، يجيبه وكثته يطلب لعبة «جيب لي عبد الناصر». وتروي أمي أنّ سي عبد الحميد ظلّ مذهولاً للحظات قبل أن يجيبه بمنطق الأطفال «سأتيك به في المرة القادمة».

ولأنه كان يتردد على القاهرة لإجراء بعض المشاورات السياسية، وكان أيضاً مسؤولاً عن متابعة شؤون الطلبة الجزائريين هناك، والذين كان من بينهم طالب لم يكن يدعى بعد هوراي بومدين، فقد أحضر لنا مرة صورة كبيرة لعبد الناصر، مع جملة من الهدايا التذكارية.

منذ ذلك الحين، أصبح بإمكاننا في بعض الأمسيات أن نستمع من تونس إلى «صوت العرب من القاهرة» وهو يبثُ خطابات لجمال عبد الناصر، وأناشيد عربية ملتزمة، ما زلت أحفظ بعضها، كما يحفظ الأطفال في ذلك العمر أناشيد تعلموها في روضة، وعلقت بذهنهم إلى الأبد. ثم ننام سعيدين، دون حاجة إلى التلفزيون الذي لم تكن قد شاهدناه في حياتنا بعد.

لقد كنا نتفرج على العالم من شاشة جدارية. مثبتة عليها صورة عبد الناصر، قبل أن يأتي يوم تجاور فيه صورة أبي على الجدار صورة عبد الناصر، بحجم أصغر، ولكن بالحجم الكبير ذاته الذي نقلتها به الصحف وهي تعلن في صيف 1960 على صفحاتها الأولى، مقتل أحد قادة الثورة على يد المظليين الفرنسيين، بعد معركة ضارية في مدينة باتنة.

أذكر أنني احتفظت أياماً بتلك الجريدة، كنت خلالها أفتحها بين الحين والآخر على الصفحة الأولى، وأقضي وقتاً طويلاً في تأمل ملامح أبي. كما توقّف عندها الزمن إلى الأبد، قبل أن أفاجئ نفسي يوماً أقتطعها بمقص، وأقنع أمي بوضعها هي، ولا أية صورة أخرى في إطار، لتصبح هي الصورة الثانية في بيتنا.

ربما ولدت لديّ يومها تلك الهواية السريّة، التي لم تأخذ بعدها الموضع في حياتي، إلا بعد أكثر من عشرين سنة، والتي استيقظت فجأة داخلي على أيام الانتفاضة الفلسطينية، عندما بدأت أقضي وقتًا طويلاً في تأمل صور الشّهداء. تلك التي درجوا على أخذها فرادى أو مجموعات للذكرى قبل أية عمليّة انتحارية. والتي كانت تنشرها الجرائد في اليوم التالي لتعلن استشهادهم. وكنت أنا احتفظ بتلك الصفحة من الجريدة.. عمليّة بعد أخرى. ثمّ لكثرتها قرّرت أن أجمعها في كيس وأضعها بعيداً عن متناول يدي.. ومتناول نظري، كي أرتاح.

وكنت قد نسيت أمر تينك الصورتين، اللّتين بعد انتقالنا من تونس إلى الجزائر، لم نخودا جزءاً من ديكور غرفة استقبالنا، التي أصبحت أكثر فخامة من أن تزيّنها صورتان في تلك البساطة. قبل أن اعثر عليهما مصادفة، منذ سنة تقريباً، في غرفة صغيرة فوق سطح بيتنا، حيث تعودت أمّي أن تخبّي أشياء تحتفظ بها، منظّمة ومرتبّة و«مدفونة» في حقائب وصناديق حديدية، من ذلك النّوع الذي اندثر، مذ أصبح النّاس يسافرون على متن الطائرة، والتي أتوقع أن تكون أمّي قد استعملتها لنقل حاجياتنا من تونس إلى الجزائر سنة 1962 غداة استقلال الجزائر.

أذكر أنّي عثرت على تينك الصورتين بفرح كبير، فقد أيقظتا فيّ شيئاً ما، أو زماً ما، لفرط بعده، ولفرط صغري، بدا لي وكأنّه لم يكن.

كانتا ضمن أشياء أخرى تحتفظ أمي بها هكذا، لكونها أهم من أن تُرمى، وأقل أهمية من أن تشغل مكاناً في بيتنا.

ترددت يومها في تركهما لغبار النسيان، وكأنتي لم أصادفهما. ثم ترددت في أن أخذ واحدة دون الأخرى. فقد كانتا ذاكرة لزمن واحد. حتى إنه لم يكن بإمكان ذاكرتي البصرية أن تفصل إحداهما عن الأخرى. ولذا قررت أن أخذهما معاً إلى بيتي، حيث أصبح لهما مكان ثابت في مكتبي. أمام احتجاج أمي وبمشة زوجي.

لم أشعر برغبة في تقديم أية شروح لأحد. فقد كانت تلك الذاكرة تخصّتي وحدي. وربما أنا وناصر لا غير.

ولكن ناصر أيضاً فاجأني بتعامله الصامت مع تينك الصورتين. وكأنه لم يكن ثالثهما.

ولم أشأ أن أستدرجه إلى اعترافات طفولية قد يكون الفاها منطق الرجولة.

تأملت فقط سمته أمامهما، واستنتجت أنه ربما نسي ولعه الطفولي بأحدهما، وولع الآخر الأبوي به، وأنه تركهما لي، ليصبحا قضيتي وحدي.

ولكن هاجسي الأول ظل هو. فهو رجل منذ أكثر من شهر، وأمي تطاردني بأسئلة عنه، لا أجد لها جواباً.

- لماذا ذهب إلى ألمانيا؟ الناس يذهبون عادة إلى فرنسا.. أنا لم أسمع بأحد سافر إلى ألمانيا..

ولا أدري ماذا أقول لها. أنا نفسي لم أعرف بوجهته إلا منذ أسبوع.

كان ذلك عندما حدثني على الهاتف. وكنت أזור أمي مصادفة. سألته إذا كان كل شيء كما يريد. اجاب: «الحمد لله» سألته إذا كان له عنوان أو رقم هاتف نطلبه عليه فردَّ أنه سيُصل بنا كلما استطاع ذلك. فهمت أنه لا يريد أن يقول شيئاً على الهاتف. ثم سألني إن كانت أمي تقيم معي منذ سفره. اجبت أنها تصرَّ على البقاء في بيتها. قال «لا تركيها كثيراً بمفردها إذن...» ثم اضاف للتأكيد «أرجوك...»

أمي رفضت منذ البدء. فكرة الانتقال للعيش معي في انتظار عودة ناصر. فهي ترفض ذلَّ الإقامة عند صهرها. خاصة أنها تملك شقة جميلة، وأنها متعلقة بكلِّ أشيائها الصغيرة.

ولكنها، منذ ذلك الحين، أصبحت تزداد تعلقاً بي. ولا تكفَّ عن زيارتي، أو طلبي هاتفياً، واستشارتي في كلِّ شيء، ومرافقتي إلى كلِّ مكان، حتَّى بدأت أشعر من فرط حاجتها إليَّ بأنني أصبحت أنا أمها.

وكنت أنفهم حاجتها الدائمة إلى حنانني. فهي التي ترمكت في سنِّ العشرين، وتبنَّمت قبل ذلك في طفولتها، لا تفهم أن تطاردها الحياة حتَّى نزيكها، وأن يكون قدرها أن تعيش بين ابنة عاقر.. وابن غائب. وهكذا أصبحت أستمع برحابة صدر، إلى تذمرها، وشكواها، وثرثرة أمومتها. ولا أملك إلا أن استسلم مكرمة لكلِّ نزواتها.

حتى إني قبلت أن أرافقها بعد ظهر اليوم إلى «الحمام التركي»
برغم أنني لم أكن أشاركها يومًا حماسها لطقوس النظافة
الأسبوعية، في هذا الحمام الجماعي.

في الواقع كنت انتفهم منطقها. الحمام هو المكان الذي يمكن أن
تلتقي فيه بكل نساء المدينة. ومثلهن يمكنها أن تثرثر وتحكي ما جدّ
في حياتها، وتباهي بمشترياتها الجديدة، وصيغتها، وثيابها التي لم
يرها رجل.

»

تمامًا كما كانت في زمنٍ مضى تستعرض أواني الحمام الفاخرة.
من طاسة فضيّة، ومشط من العاج والفضة بأسنان بقيقة، ومناشف
فاخرة مطرّزة، وصابون ريحة، مستورد، وعطور، ومستحضرات
لإزالة الشعر أو صبغه، وكثير من التفاصيل النسائية التي تعودت أن
أراها في طفولتي مجموعة في سطل فاخر من الفضة المنقوشة،
موجود دائمًا في ركن من الخزانة، جاهز للاستعراض الأسبوعي.

بعد عشرين سنة، لم تتغيّر الأشياء كثيرًا. صحيح أن السطل
فرغ من محتوياته، وانتقل الآن من خزانة أمي إلى الصالون، ليتحوّل
وعاءً فاخرًا يحتوي نبتة خضراء تزين قاعة الجلوس. ولكن عقل أمي
لم يفرغ تمامًا من محتوياته.. ولا من عقلية الأولى. لقد ناقلم فقط مع
لوازم العصر. ولم يعد هناك من ضرورة الآن لتلك الحقيبة المبطّنة
والمغلّفة من الداخل بالساتان السماوي، التي كثيرًا ما احتكّ قماشها
بأثواب أمي الحميمية، وتمتّع بها أكثر ممّا تمتّع بلمسها رجل.

وانكر أنني، في طفولتي، كثيرًا ما كنت أفتح تلك الحقيبة خلسةً،

كما نفتح صندوق عجائب. واجلس على طرف السرير. احلم بذلك العالم النّسانيّ الذي لم أكن أعرفه بعد.

أنفِرَج على أشياء أُمِّي الصّغيرة.. احلم أن يكون لي يومًا جسد يشبه جسدها تمامًا، أملًا به كلّ تلك الآثواب الحميمة.

احلم.. احلم. ثمّ أغلق على جسد أُمِّي في حقيبة. أعيد الحقيبة إلى الخزانة. وأغادر مسرعة تلك الغرفة قبل أن تفاجئني أُمِّي الأخرى. تلك التي لا جسد لها.

هَبِذِي أُمِّي «الحاجة»، بجسدها الذي تغيّر منذ ذلك الحين، تسبقني كما في طفولتي. فالحق بها من قاعة إلى أخرى داخل الحمام دون جدل.

في تلك اللّحاعات المتفاوتة التدفئة، والتي تزداد حرارتها كلما اتّجهت نحو الأبعد، تصرّ أُمِّي على القاعة الثالثة، الأشدّ حرارة. ولا أجادلها، رغم كراهيتي لهذه القاعة بالذّات.

الحق بها. أمشي رويدًا رويدًا على بلاط مائيّ، جاهز للترلّج والتّهشم.

أذكر أنّني شاهدت يومًا امرأة، تقع هنا أمامي.. وهي ممسكة برضيع، فيفلت من يدها، ويسقط ليموت بعد ساعات في مستشفى.

ادخل قاعة، يتصاعد البخار فيها من البرك الجداريّة، ويعلو صراخ طفل هنا.. وضحكات نساء هناك.

أمام أوّل بركة، أجلس أرضًا، دون سؤال. أو بالأحرى بسؤال واحد:

لماذا منذ طفولتي الأولى، كنت أكره الجلوس في هذه القاعات
العارية إلا من البخار والماء، والتي لا تؤثثها سوى أجساد نساء
عاريات؟

ترى احتراماً للأنوثة، التي كنت أتوقعها أجمل من أجساد لم تعد
لها من حدود، ولا تضاريس «طبيعية»؟

أم لأنني منذ البدء، خلقت لأكون كائنًا من ورق وحبر، تلغيه هذه
الكميات الهائلة من الماء والبخار؟

تجلس أمي جوارى. تضع أشياءها. أمّا أنا فلا أشياء لي. سوى
ما تركته في الخارج من أثواب أحضرتها إكرامًا لها.. فيما لو التقينا
بمن يعرفني.

تزعجني هذه الفكرة. فالف حول جسدي تلك الفوطة من جديد،
وأعيد ربطها حول صدري تلقائيًا.

ولكن صوت أمي يباغتني، يعيد كلمات أعرفها تمامًا، لفرط ما
سمعتها في هذا الحمام نفسه، مذ أصبحت صبيّة تستحي من
أنوثتها، وتختبئ داخل الفوطة بإصرار من يبعد عنه تهمة.

هنا أنت تتعلمين من عيون الآخرين، كيف تنكرين جسدك،
وتضطهدين رغباتك، وتبترئين من أنوثتك. فقد علموك أن ليس الجنس
وحده عيبًا. وإنما الأنوثة أيضًا.. وكل ما يشي بها ولو صمغًا.

تصرخ أمي بي كعادتها «انزعي عنا هذه الفوطة!»، تقودني
كلماتها إلى أسئلة جديدة.

تراها تظنّ جسدي أحد أملاكها الخاصة، لأنها أنجبتني؛ ومن حقّها إذن أن تستعرضه أيضاً على الناس، كأحد إنجازاتها، وأجدّة فيه عزاءً وتعويضاً عما آل إليه جسدها هي؟

فجأةً، وجدتني اعمى أحد اسباب علاقتي المعقّدة البعيدة بهذا المكان. ففي هذه المدينة التي ليس فيها أيّ مكان لما هو حميميّ وخاصّ، الحمّام هو المكان الذي تنتهك فيه حرمة الجسد وحيازه. تسلّط عليه الاضواء، والنظرات الفضولية للنساء. تتتالى عليه الأيدي حقاً ودلّكاً وتشطيفاً، ساكبة عليه كمّيّات هائلة من الماء. وكأنّها تريد أن تظهره من أنوثته.

فهل الأنوثة نجاسة؟ أم هل لهؤلاء النساء اللّاتي يولدن ويمتن غالباً، دون أن يتعرّين تماماً أمام رجل، علاقة شبقية ما بهذه الكمّيّات الهائلة من الماء، التي يسكبونها على أجسادهنّ سطلاً بعد آخر، ساعات بأكملها دون توقّف، بلذّة غامضة ما، وبانشغال تامّ بتفاصيلهنّ النسائيّة، وكأنّهنّ جنن هنا، ليكنّ على موعد مع أجسادهنّ لا غير؟ أم أنّ جميع النساء، هنّ على اختلاف أجناسهنّ وأعمارهنّ، حفيدات «كليوبترا» تلك الامثى التي حكمت بلداً في عظمة مصر، دون أن تغادر حمّامها تماماً!

..وانّهنّ يعتقدن، عن صواب أو عن سذاجة، أنّهنّ بعد كلّ حمّام يعدن إلى يئوتهنّ ملكات، على عرش ليس سوى فراش الزّوجيّة، عرش سيحملن تاجه لبضع لحظات - في العتمة - ويعدن بعدها لحياتهنّ العاديّة.

العتمة..!

اكتشف الآن إحدى نعم العتمة. وأنا أفرّج على أجساد مشوهة
الانوثة، مترهلة البطون، متليئة الصدور. وافهم أن يكون الله، بحكمته
تعالى، قد خلق العتمة - أيضاً - ليمنح كلّ مخلوقاته حقّ ممارسة
الحبّ في الظلام.

والآ.. فمنّ من الرجال، مهما جمعت به رغبته الجنسية.. أو حالته
المتقدّمة من السكر، سيقدر على مضاجعة نساء على هذا الشكل..
في عزّ النهار؟

أحتفظ بتلك التعليقات لنفسي، تماماً كما أحتفظ بتلك الفوطه
حول جسدي، وكأنتني أرفض أن أخلط أو أخسب على هذا الزهط
من النساء، اللاتي تجلس كلّ واحدة منهنّ الآن جوار بركة ماء،
وحولها سيول سوداء، أو بلون الحنّاء، حسب الصبغة التي وضعتها
على شعرها، والتي تقوم الآن بفصلها، محوطة هي وغيرها بلاط
الحمام، إلى «دانوب» متعدّد الألوان.

وفجأة، تدخل الحمام ثلاث نساء. متوسطات العمر، متوسطات
الجمال، ولكن بإغراء ويظهر «مميّز». فقد دخلن عاريات تماماً.
شاهرات انوثتهنّ في وجه الجميع، بينما العادة هنا أن تدخل جميع
النساء بالفوطه، ولا يخلعنّها إلا وهنّ جالسات.

وفي لحظة، التفتت نحوهنّ الأعناق، وطارتنّ نظرات فضوليّة
وأخرى شذرة من كلّ صوب.

افهم من مسبات أمي ونعوتها لهنّ، أنهنّ مومسات. مومسات؟

وهل مازال في هذه المدينة مكان لمهنة كهذه؟ عدا أرصفة بعض الشوارع القليلة الحركة، حيث يحدث لبعض البائسات ان يقفن.

تنقسم تلقائياً، قاعة الحمام، إلى شطرين. النساء «الشريفات» من جهة، والنساء «المشبهوات» في الطرف الآخر.

الطرف الأول يلاحق الطرف الثاني بالتعليقات.. والفمزات.. ونظرات الازدراء، التي مصدرها إحساس مفاجئ بفائض عفة وشرف. بينما يتجاهل الثاني تماماً وجود الطرف الأول. ويتصرف النساء الثلاث، وكأنهن بمفردهن. فيضحكن بصوت عالٍ، ويتفاسلن.. ويتغازلن استغرازاً للأخريات.

وجدت لذة في وجودي الشاذ بين طرفين، دون ان انحاز أخلاقياً لأحدهما دون الآخر.

وربما كنت سرّاً أسلّي بكتابة بعض التعليقات في ذهني. هنا، وسط البخار والماء والشهوة.. والنفاق النسائي. فقد كنت على مسافة وسطية من العفة.. والخطيئة. هناك حيث يقف الكاتب.. وحيث يقف أي إنسان طبيعي.

فأنا أدري أنّ كل إنسان عفيف، يحمل داخله قدرًا كافيًا من القذارة، قد تطفو يوماً، فتغرق حسناته، تماماً كما أنّ في أعماق كل إنسان سيئ، شعلة صغيرة للخير، ستضيء داخله يوماً، في اللحظة التي يتوقعها الأقل.

وأدري قبل كل هذا، أنّ بإمكان أية امرأة ان تغدو قديسة أو

عاهرة في آية لحظة. لقد خلقت بالنصفين معًا. ولكنها كلما انحازت إلى أحد نصفيهما، تبادت في السخرية والتشهير بالنصف الآخر.

تهجم أمي على ذراعي، وتبدأ في دلكهما وحكهما بعد أن نفد صبرها، رفضة أن تسلمني إلى «طَيَّابَة».

تواصل متحدثة إليّ شتم تلك «الفاجرات». تقول إنّ العائلات الكبيرة، تعودت أن تستأجر الحمام. وتحجزه مرة في الأسبوع، لندعو القريبات والصديقات على حسابها.

كلّ هذا، حتّى تضمن عدم اختلاطها بالغرياء، وبهذه النماذج التي هجمت على قسنطينة فانتهكت حرمتها، وأهانت أهلها.

لا أجيب. أظاهر بالاستماع فقط.

فقد كنت مشغولة عنها، بمقولة لساشا غيتري: «ليس هناك من نساء غير شريفات.. وأخريات شريفات. ثمة فقط نساء غير شريفات.. وأخريات قبيحات!».

يومها غادرت الحمام، دون أن يفادرنني ساشا غيتري تمامًا حتّى إنني عدت إلى البيت عصرًا تحت المطر. وأنا أستعيد إحدى مقولاته الساخرة: «لا تمارس الحبّ مساء السّبت.. إذ ما الذي تفعله لو أمطرت السّماء صباح الأحد؟».

وهي غمزة ساخرة، عن الأزواج الذين يمارسون الحبّ عن ضجر جسديّ مساء السّبت، ثمّ لا يدرون بعدها، ماذا يفعلون بأنفسهم طوال الغد، عندما يبقون في البيت.. في يوم ممطر!

ورغم أنه كان يوم سبت معطرًا، فقد قرّرت أن أخالف ذلك المساء نصيحة ساشا غيتري، لكون السبت ليس نهاية أسبوع عندنا بل بدايته. وبالتالي لن يكون زوجي هنا في الغد ليقاسمني ضجري، ولكوني عائدة من حمام نسائي أشعل شهوتي، وبني رغبة في أن اهدي أنوثتي إلى رجل.

طبعًا.. لم أكن أدري أنه يكفي أن أنوي الحب، كي تنقلب البلاد رأسًا على عقب. ولا توقّعت أن التاريخ سيهدي إلى الجزائر يومها إحدى مفاجاته. ولا أن الرئيس الشاذلي بن جديد، سيختار ذلك السبت بالذات، ليعلن في نشرة الثامنة مساءً من ليلة 11 يناير 1992 استقالته، وحلّه البرلمان.. ومن ثمة دخول البلاد في متاهة دستورية.

لم أعتب على الشاذلي بن جديد إهداره ليلتها رغبي.

فقد أهدر قبلها سنوات بأكملها من رغبات شعب.

قطماً

وحده الزّمن سيّدك على الصّوّاب، عندما يفقد الآخرون صوابهم.
أمّا التّاريخ.. فلا تتوقّع في هذه الحالات أن يقول كلمته على
عجل.

هو أيضًا ينتظر.

ثمانية وعشرون عامًا من الانتظار. وطائرة تحطّ على مطار. ورجل
تجاوز الثانية والسّبعين من عمره، ينزل. يمشي على سجّاد أحمر،
مذهولاً من امره.

أكان بين الوطن والمنفى مسافة ساعة فقط؟ لماذا.. كان يلزمه إنن،
ثمانية وعشرون عامًا ليقطعها؟!

رجل نحيف، ومستقيم، وفارع كما هو الحقّ، اهدوب ظهره
قليلاً، وخشنت يده كثيرًا، ويانت عظام وجهه وعظام أصابعه.
قبل قليل.

قبل التّاريخ بقليل. كان اسمه محمد بوضياف. وكان يسكن في
مدينة صغيرة بالمغرب. يدبر بينديه اللّتين اخشوشنتا مصنّعا بسيطًا
للأجر. ويعيش بعيدًا عن كلّ عمل سياسيّ. سوى ذكريات ثورة

تتكررت له، وأخبار وطن حذف حكامه اسمه حتى من كتب التاريخ المدرسية، كزعيم أشعل ذات نوفمبر سنة 1954 الشرارة الأولى للثورة التحريرية.

اللحظة لم يعد له اسم.

من خطا على تراب الوطن، أصبح اسمه هو «التاريخ».

ليس التاريخ «هو ما يمنع المستقبل من أن يكون أي شيء»؟

الآن.. لم يعد له من عمر.

لقد أصبح له أخيراً عمر أحلامه، تلك التي جاءت متأخرة بجيلين وأكثر.

الآن.. في هذا العمر، هو يتعلم المشي من جديد على تراب وطن، لم يمش عليه يوماً بحرية ولا بأمان. فقد طارده فرنسا فوقه أرضاً وجواً. ولم تجد من سبيل لإلقاء القبض عليه هو ورفاقه سوى خطف طائرتهم سنة 1956، وهي تعبر أجواء البحر الأبيض المتوسط، في رحلة تقلهم من المغرب نحو تونس، فحوّلت وجهتها نحو فرنسا، واقتادت بوضياف مع رفاقه الأربعة: أحمد بن بلّة وأيت أحمد ومحمد خيدر ورابع بطاط، موثقى الأيدي نحو معتقلاتها، أمام اندهاش العالم الذي لم يكن قد سمع بعد ببذعة خطف الطائرات، وأمام غضب الشارع العربي ومظاهراته، والذي كان عبد الناصر في السنة نفسها قد الهب خطابات حماسية، وملاء عنفواناً وغروراً قومياً.

حتى إن إذاعة صوت العرب من القاهرة لم يكن يلزمها أكثر من

أيام، لتخرج إلى العالم العربي بالحن حماسية تطالب بإطلاق سراح
الرُعماء الخمسة، أناشيد تلففتها أفواه أطفالنا، وحنأجر رجالنا،
وزغاريد نساننا، فرددنا معها:

«باسم الأحرار الخمسة حنودُ الفأر يا فرنسا..»
كنّا نبكي.

ووحده التاريخ كان يضحك. فهو وحده كان يدري ما لم يكن
يتوقعه أحد

فما كادت الجزائر تنال استقلالها، ويصبح «الرُعماء الخمسة»
أحرارًا، حتّى أرسل بن بللّة وقد أصبح رئيسًا، من يقبض على رفيق
نضاله محمد بوضياف، في حزيران 1963، وهو يغادر بيته. واقتيد
بوضياف من مكان إلى مكان. حتّى انتهى به المطاف في معتقلات
ضائعة في غياهب الصحراء، حيث خبر رجل الثورة الجزائرية
الأول، قبل غيره، مهانة أن يكون لك وطن، أقسى عليك من أعدائك.

وهو ما اكتشفه بعده بسنتين، بن بللّة نفسه. عندما جاءه بومدين
ذات حزيران (أيضًا) من سنة 1965. فازاحه من السلطة ورمى به في
السجن، ليخرج منه بعد خمسة عشر عامًا عجزًا.

أمّا بوضياف الذي لم يطالب يومًا بالسلطة، وإنّما رفض منذ
البدء، أن يكون قد كافح ليحرّر وطنًا من الاستعمار، كي يسلمه
ليكتاتورية الحزب الواحد، فقد تساوى عنده الحاكمان.

يوم اختفى، لم يوجد من بين رفاقه أحد ليسأل أين ذهبوا به!
كانوا مشغولين عنه باقتسام الوليمة.

فمضى بذلك القدر الهائل من الغياب، كما عاد بهذا القدر الهائل من الحضور.

تذكّروه، هكذا فجأة، بعد ثلاثين عامًا، وقد شيعوا وانتفضوا، وملأوا جيوبهم وأفرغوا جيوب الجزائر. وانسحبوا، تاركين لنا وطنًا مرهونًا لدى البنك الدولي - مع كثير من التمني - لعدة أجيال فقط. فقد كان الوحيد الذي مازال على ذلك القدر من النُحافة.. والنزامة.. ولم يجلس يومًا حول طاولة الصنّقات المشبوهة للسلطة.

كان لابدّ من اسمه ليعيد الثقة إلى شعب لم يعد يثق بشيء، ولا بالأحد. وقد تناوب عليه حكمًا بعد آخر، علي بابا والأربعون حراميًا. جاؤوا به. قالوا له الكلمات التي لم تصمد أمامها شيخوخته «الجزائر في حاجة إليك.. أنت الرجل الذي سينقذها».

فقام العجوز. غسل يديه من طين الآجر، وذاكرته من الحقد. فقد آمن دائمًا أنّه لا يمكن أن تبني شيئًا بالكرامية. وكان له قدرة مذهلة على الغفران، فاحتضن من نفوه ومضى نحو «وطنه». فمئذ الآن، لم يحدث أن نأنته الجزائر ولم يستجب لندائنا.

ها هو ذا..

يرتدي بذلة لم يتوقّع أنّه سيرتديها لمناسبة كهذه.

يتعلّم المشي أمامنا. يتعلّم الابتسام لنا. يرفع يده اليمنى ليحيينا بفجل، كمن يعتذر عن يدر لم تحمل يومًا سوى السلاح.. والآجر، ولم تكن مهيةً لمثل هذا الدور.

ها هوذا.. بوضياف.

ياتينا مشياً على الأقدام، مشياً على الأحلام. فتخرج لاستقباله
الاعلام الوطنية، وجيل لم يسمع باسمه قبل اليوم. ولكنه يرى في
قامته، تاريخ الجزائر في عظمتها الخرافية.
ها هوذا..

ليست أقدامه التي كانت تبوس تراب الوطن مع كل خطوة، إنما
تراب الجزائر، هو الذي كان يختفي بخطاه، ويقبل حذاه.
فلا تملك القلوب إلا أن تهتف: أيها التاريخ توقّف.. لقد جانا
رجل من رجالك.

كان يوم 14 يناير 92 يوماً استثنائياً، حتى في ملقه. فقد توقفت
فيه الأمطار التي هطلت قبل ذلك بغزارة، وجاء يوم مشمس. وكان
الطبيعة تطابقت مع مشاعر الجزائريين، أو كأنها أرادت أن تتواطأ
مع التاريخ، وتهدى إلى بوضياف يومه الأجل.

طوال الظهيرة، تعلقت عيون الجزائر بشاشة التلفزيون؛ الكل يريد
أن يرى ويسمع هذا الرجل الذي دخل حزب الصمت، منذ ثلاثين
سنة. ماذا تراه سيقول؟

الكل يريد أن يقبل، ولو بعينيه، هذا الذي يناديه رفاقه «سي
الطيب الوطني» والذي تناديه قلوبنا اليوم «أبي».

فمنذ موت بومدين ونحن يتامى. نعاني إفلاساً عاطفياً، يفوق
إفلاس اقتصادنا، وعجزاً وطنياً في المحبة، يفوق عجز ميزانيتنا.

نحن نبحث عن رجل له قامة عبيد الناصر، وكلمات بومدين،
ونزاهة بوضياف؛ رجل في بساطة أهلنا، يمرر يده على رأسنا، يريت
على اكتافنا، يقول لنا أشياء بسيطة نصديقها. يعدنا بأحلام بسيطة
ندري أنه سيحققها، يبكي أمامنا عن كل من ماتوا، دون أن يحقق في
انتقامهم. يعتذر للأحياء عن موتهم.. وللموتى عن اغتيال أحلامهم.
رجل منذ نزوله من الطائرة يعلن الحرب على من سطوا على
مستقبلنا، وينوا وجاهتهم.. بإذلال وطن.

يقول «الجزائر قبل كل شيء» فيوقف فينا الكبرياء.

وتصبح كلماته البسيطة شعارنا.

قطعاً.. منذ الأزل، كنا ننتظر بوضياف، دون أن ندري. ولكن
بوضياف، ماذا تراه كان ينتظر؟ هو الذي قال يومها لزوجته «كل هذه
الحفاوة لن تمنعهم من اغتيالي.. فلا ثقة لي في هؤلاء».
وعندما سأله إن كان جاء إذن بنية الانتحار. أجابها كمن لا مفر
له من قدر «إنه الواجب.. كل أمني أن يمهلوني بعض الوقت».

في اليوم التالي استيقظت المدينة بمزاج جاهز للجدل. واستيقظت
بمزاج جاهز للكتابة، وكأني لم أجد من طريقة للاحتفاء بعودة
بوضياف، سوى العودة إلى تلك الدفتر.
فتحت حيث توقف بي الحب. وتوقف بي الحبر، منذ أربعة أشهر،
عند قبلة.

كانت نيتي أن أكتب شيئاً عن الحاضر، أن أصف اندهاشي
الجميل أمام بوضياف.

ولكن كانت عواطفني تلوي عنق قلبي نحو الماضي، وتوقظ داخلي
رجلاً آخر، رجلاً أكاد لا ألتح هذا الدفتر حتى يحضر.

رجل قال لي «تمنيت أن أموت وأنا أقبلك. إذا كانت كل القبل
تموت. فالأجمل أن نموت أثناء قبلة».

ورحل.

من وقتها، وأنا أغذي الذاكرة بكلماته المحمومة. كي لا تنطفئ في
انتظاره نيران الجسد.

أهي الرغبة؟ أم حاجة إلى الكتابة؟ أم.. قدر يجعل دائماً كل قصة
فردية، موازية لقصة جماعية، لا ندري أيتهما تكتب الأخرى؟
والأفما تفسير تلك المفاجأة التي كانت تنتظرني بعد ثلاثة أسابيع
من عودة بوضياف؟

وإذا بي. أنا التي لم يفارقني هاجس اللقاء به، في كل مكان
ذهبت إليه أو مررت به، أعثر عليه حيث لم أتوقعه، في بيتي، على
صفحات جريدة مهملة.. ملقاة عند أقدام مكتب زوجي!

أحب تلك الهدايا التي تقبّلها لك الحياة، خارج المناسبات، فتقلب
بمصانفة حياتك، حتى تلك التي كهذه يرمي لك بها القدر أرضاً.
فتحنني لالتقاطها ممنوناً، لأنك تعرّرت دون قصد.. بالحب!

وماذا لو تكون قد تعثرت بشيء آخر؟ فلم يحدث للحب أن كان مجاوراً للسياسة إلى هذا الحد.

* * *

في صورة تذكارية تجمع بوضياف مع أعضاء من «التجمع الوطني» أراه، وأكاد لا أصدق عيني.

يتسمّر نظري عند وجهه بالذات: هذه الملامح أعرفها تماماً، وهذه النظرة الغائبة، إنها نفسها التي استوقفتني يوم خلع ذلك الرجل نظاراته السوداء في موعدها الأخير، ليقبّلني. وهذا الشعر.. هذا الغم.. هذا الكل.. أعرفه. إنه... (هو)!

أعيد قراءة ذلك المقال المرافق للصورة بعجل، ثم بتأنٍ كي أجد تفسيراً لوجود هذا الرجل هنا.

أفهم أن بوضياف قرّر إنشاء المجلس الوطني الاستشاري، وهو تجمع يضم عدداً كبيراً من شركائ المجتمع الجزائري، معظمهم من المثقفين والسياسيين الجزائريين المعروفين بنزاهتهم، وغيبتهم الوطنية. وغير المحسوبين على أي نظام سابق، كي يساعده في إخراج الجزائر من مأزقها السياسي والتشريعي.

أواصل قراءة المقال في الصفحة الثالثة، التي تملأها عدّة صور، مرفقة ببطاقة تعريف بعض الأعضاء. فاعجب لنسبة الكتاب والمثقفين، الذين اختيروا ليكونوا أعضاء في هذا المجلس. حتى إن أحد الذين سيتناوبون على رئاسته، لن يكون سوى الكاتب عبد الحميد بن

هدوقة. وإنَّ من أعضائه كثيرًا من المثقّفات والأساتذة الجامعيّين
والصحافيّين. في بلد لم يسأل فيه المثقّفون ولا النّساء.. يومًا عن
رايهم.

اطالع كلّ الاسماء.. وكلّ المهن. ولا أعثر على أيّ رسّام بين كلّ
هؤلاء، حتّى اكاد اقتنع أنّ بي هوسّا، وأنّني أصبحت أرى صورته
في كلّ مكان، خاصّة أنّني أدري بوجوده في باريس. وتبدولي
مشاركته في تجمّع كهذا أمرًا مستبعدًا، إلّا إذا كان قد عاد من
السّفر..

ثمّ تخطر في ذهني فكرة، وأجدّها قادرة على أن تحسم شكوكي،
فأتّجه نحو الهاتف وأطلب تلك الأرقام التي مازالت يدي تحفظها عن
ظهر قلب، أو قلبي عن ظهر يد.

كانت السّاعة التّاسعة صباحًا. لم أتسأل حتّى إذا كان الوقت
مناسبًا، أو إذا كان ذلك الرّجل نفسه هو الذي سيّردّ على الهاتف،
بل إذا كانت تلك الأرقام التي كنت أطلبها بيد مرتبّكة، وقلب
يتضاعف نبضه.. صحيحة حقًا.

فجأة أصبحت على عجل. لا وقت لي حتّى للتحقّق من صحتّها.
أريد أن أسمعها، أو أسمع على الأقلّ ذلك الهاتف وهو يرنّ في
بيت عرفت فيه الحبّ، فيوقظ أثاثه، ويتحرّش بذاكرته.
ولكن في الدّقّة الثّانية رُفعت السّماعة، وكاد قلبي معها يتوقّف عن
النبض..

أوشك أن أقول شيئًا، ثمّ أنتظر أن يردّ أحد قبل أن أنطق.

بعد شيء من الصمت، يأتي ذلك الصوت الذي لم أعد أنتظره
لفرط ما انتظرته.

تراه عرفني من أنفاسي كي يسأل دون مقدمات:

- كيف أنت؟

أكاد لا أصدق ما يحدث لي. أرد:

- أنت هنا؟

ثم أوصل بالاندهاش نفسه:

- كيف عرفتني؟

يجيب بسفريته المحيية:

- من صمتك.. الصمت كلمة السر بيننا.

ولا أجد شيئاً أرد به سوى كلمات محمومة.. أردّها كيفما اتفق

كمن يهذي:

- اشتقتك.. كيف تخلّيت عني وسأمتني إلى هذه المدينة المجنونة..

أريد أن أراك.. كيف أراك؟ أجبني. أندري أنّ الحياة لا تساوي شيئاً

دونك.. ماذا فعلت بي لأحبك إلى هذا الحد؟

ولا يجيب بشيء، وكأنّ كلماتي لم تصله. يسألني فقط:

- من أين تتكلمين؟

أجيب:

- من قسنطينة..

يوصل:

- من أي مكان بالذات؟

أجيب:

- من البيت.

يرد:

- اطلبيني من مكان آخر.

أسأله:

- لماذا؟

لا يرد.

أسأله:

- متى؟

يجيب:

- متى تشائين.. أنا باق هذا الصباح في البيت.

ويضع السماعة.

حدث كل هذا في دقائق. ولم يكن يلزمني أكثر من هذه الدقائق
لأعود تلك المرأة الأخرى التي كنتها قبل أشهر.

ها أنا ادخل الدوامة نفسها من الفرح والخوف والترقب
والتفاؤل.. والتساؤل.

لماذا يعود هذا الرجل دائماً عندما أكف عن انتظاره؟ لماذا يأتي
دائماً بتوقيات الأحداث السياسية الكبرى؟ لماذا لم يعطني إشعاراً

بوجوده، مادام قد عاد من فرنسا؟ ولماذا يسألني من أي مكان
بالتحديد اتحدث إليه؟ ولماذا.. كما عبّر نهر، يأخذني إليه دائماً تيار
الرغبة الجارف. يهجرني من شلالات شاهقة للمجنون.. يمضي بي
من شهقة إلى أخرى.. يجذبني عشقه حيث لا أدري.

جميل ما يحدث لي هذا الصّباح.

كان تستيقظ من نوم شتويّ، تزيل ستائر نافذتك بكسل، وفضول
من يريد أن يعرف ماذا حدث في العالم اثناء نومه. وإذا بالحب،
يطالع جريدة على كرسيّ في حديقة بيته.. وينتظروه!

بينك وبينه، لم يكن سوى زجاج النّافذة المبلّل.. وفصل.

وحيثما كنت، ستستيقظ حتماً، على حبّ لا علاقة له بالفصول.

المطر لن يمنعي من مغادرة البيت، فلي هذا الصّباح نشرتي
الجويّة الخاصّة. وهكذا في أقلّ من نصف ساعة، كنت قد ارتديت
ثيابي.. ونهيات للخروج.

أمّي التي لم تتعوّد زياراتي الصباحيّة، فاجأها حضوري في
ساعة قلّما أكون قد غادرت فيها السرير.

ولكنّها راحت تستفيد من وجودي الذي لم تجد له من مبرّر عدا
ضجري، واشتياقي إليها، كي تحجزني أمام فنجان قهوة، وتبدأ
بسردها همومها ومتاعبها الصحيّة.

استمعت إليها بما أوتيت من صبر، وبما أوتيت من نكاه أيضاً.

فقد وجدت لتابعيها حلاً فورياً على قياسي: ان نساfer معاً إلى
العاصمة للاستجمام!

طبعاً.. قبلت أمي فكرتي بحماس.. فإضافةً إلى كلِّ الأقارب
والاصدقاء الذين بإمكانها زيارتهم هناك.. سيكون بإمكانها ان
تحجزني معها في بيت واحد لعدة أيام.. وهذا في حدِّ ذاته، تسميهِ
أمي «تغيير جو»!

كان لهذا المشروع الذي ارتجلته تَوّاً مفعولٌ منشطٌ على أمي، التي
ذهبت نحو المطبخ، تعدّ غداءً يتناسب مع مفاجأة زيارتي.. ومفاجأة
سفرنا.

أمّا أنا.. فأتّجهت نحو الهاتف بالتوتر والفرحة نفسها.. لأطلب
ذلك الرقم إيّاه.

وبالهدوء نفسه، عاد ذلك الصوّت نفسه يسأل:

- كيف أنتِ؟

أجبته كمن يحلم:

- الآن فقط بإمكانني أن أقول إنني جيّدة.

- وكيف كنت من قبل؟

- كنت أعيش فراغاً في كلّ شيء..

- احذري الفراغ.. إنّه يصنع الرداة.

- ولكنّه زمن رديء على كلّ حال.

- قد يصبح أجمل.. يكفي أن نشق بذلك.

- انت نفسك سبق ان قلت إنك لم تعد تثق بشيء.. أتذكر؟ قلت هذا في ذلك اليوم الذي التقينا فيه عند بائع الجرائد.

- أنكر.. ولكنني اثق برجل. ولأنه عاد، عادت ثقتي بالقدر

أسأل:

- أعدت من أجله أم..؟

اصمت وكأني أمنحه فرصة اعتراف عاطفي ما.

ولكنه يجيب متجاهلاً بإحائي:

- أجل.. عدت من أجله.

- وأنا..؟

يصمت قليلاً وكأنه لم يتوقع سؤالي ثم يقول:

- أنت..؟

ويغرق في صمت آخر.

أواصل:

- في ذلك اليوم الذي التقينا فيه عند بائع الجرائد. أتذكر؟

نصحتني أن لا اطالع الجرائد. ومنذ ذلك اليوم.. لم اطالع جريدة.

ولو لم اتصفح جريدة هذا الصباح مصادفة، لما كنت عرفت بوجودك

هنا. أيعقل أن تعود دون أن تعطيني علماً بذلك؟

- ولكنني فعلت.. أعتقد إنك عثرت مصادفة على تلك الجريدة؟

لا شيء يحدث مصادفة حقاً. ثمة أشياء لفرط ما نريدها بإصرار وقوة

تحدث. حتى يبدو لنا في ما بعد كأننا خططنا لها بطريقة أو بأخرى.

- ولكنك تبدو فائز المواقف.. غير مشتاق!

ردّ بنبرة ساخرة:

- بلى. أنا مشتاق وعندي لوعة.. ولكن

- ولكن ماذا؟

- ولكن هاتك في البيت مراقب.. وربما هذا أيضاً. تخاشتي طلبي
من البيت. أفضل أن تأتي إلى العاصمة. سيكون ذلك أفضل.

أجبت بثقة امرأة:

- سأتي..

ثم أضفت قبل أن ينقطع الخط

- حتماً.

* * *

النساء أيضاً كالشعوب: إذا هنّ أردن الحياة فلا بدّ أن يستجيب
القدر. حتّى إن كان الذي يتحكّم في أقدارهنّ ضابط كبير، أو
دكتاتور صغير في هيئة زوج.

حتّى الآن، لا أدري كيف استطعت إقناع زوجي بفكرة سفري إلى
العاصمة للاستجمام على شاطئ البحر، في عزّ الشتاء!
وكيف لم يجد في سفر كهذا شبهة ما.

اتذكّر تلك المقولة الساخرة «ثمة نوعان من الأغبياء: أولئك الذين
يشكّون في كلّ شيء. وأولئك الذين لا يشكّون في شيء!».

أما زوجي الذي يملك من التذاكبي المهني ما يجعله دائماً على حذر، فقد بدا حياته الزوجية معي، كأي عسكري، بالتجسس والتحري والاشتباه في كل شيء.

ثم أمام غياب الألفة، أعطاني من الحرية ما فاجاني، أو ربما بقدر ما يلزمه من الوقت كي ينصرف عني إلى مهامه، وأثقا من سطوة نجومه الكثيرة.. علي.

وهذه المرة أيضاً، من الأرجح أنه مشغول عني بالمستجدات السياسية، وإن لا وقت له للتجسس على مشاغلي النسائية، التي حتى الآن، لم يكن فيها ما يستحق الإخفاء أو الحذر.

مشكلتي الآن مع «الآخرين»، أولئك الذين عوض القنصت إلى الإرهابيين.. ينتصتون إلى هواتف العشاق!

ساعة في طائرة، لا أكثر، وإذا بي أبتعد عن قيودي بمئات الكيلومترات. وأعود إلى ذلك البيت نفسه الذي جنته منذ أربعة أشهر مع فريدة.

بيت اسميته بيت الحلم، فهنا كل شيء يصبح ممكناً كما في الأحلام.

ما كدت أصل، وأضع شيئاً من الترتيب حولي حتى اسرعت إلى الهاتف. وجاء ذلك الصوت بحرارة هذه المرة يؤكد لي أنني لا أحلم.

- أخيراً أنت.. لو تدرين كم افتقدتك.. سارك غداً.. اليس كذلك؟

كلمات، وسؤال لا أكثر، ويصبح العالم أجمل، وتصبح الأسئلة

أكبر. ولكن لا وقت لي للإجابة عنها؛ مأخوذة أنا بهذه الحالة
انعشقية.. مأخوذة حدّ الأرق.

مقولة لبوبلير منعنتني من النوم.

«كلّ إنسان جدير بهذا الاسم، تجثم في صدره أفعى صفراء،
تقول (لا) كلّما قال (أريد)».

قضيت ليلي في محاولة قتل تلك الأفعى.

اكتشفت قبل الفجر بقليل أنّ «لا» أفعى بسبعة رؤوس، وأنّك كلّما
قتلتها، ظهرت لك «لا» أخرى، شاهرة في وجهك - لأسباب أخرى -
أكثر من حرف نهى وتحذير.

وبرغم ذلك، غفوت وأنا أقرض تفاحة الشهوة، على مرأى من
رؤوسها.

لي موعد مع «نعم». وكلّ شيء داخلي يعيش على مزاج «نعم».

صباح «نعم» أيها العالم. صباح «نعم» أيها الحب.

يا كلّ الأشياء التي تصادفني، والتي أصبح اسمها «نعم».

يا كلّ الكون الذي يستيقظ جميلاً على غير عادته: من نقل إليك

خبر «نعم»؟

أيّتها الأغاني التي يرندها المذياع هذا الصباح.. وكأنه يدري ما
حلّ بي. أيّتها الطرقات المشجرة التي تمتد أشجارها حتى قلبي،
أيّتها الطاولات التي تنتظر على رصيف شتويّ عشاقها، أيّتها الأسرة
غير المرتبة، التي تنتظر في مدن «نعم» متعتها.

أيها الليل الذي مساؤه «ريما»، صباحك «نعم». فكم كان مساؤك
«لا» يا أيها المساء!

في اليوم التالي استيقظت من ليل تقاسمته مع بحر شتوي هانج.
وبداته بصباح مفعّخ بأسئلة أمي ومشاريعها.

ولكنني نجحت في إحياء كل برامجها المشتركة بكذبة. وذهبت
نحو مشروعي الأجل.

انطلقت بي السيّارة ظهراً، سالكة طريق الحبّ نفسه. الذي بدا لي أطول رغم سرعة السائق، ورغم خلوّ الطرقات هذه المرة، من حواجز التفتيش.

شعرت بالأطمئنان، وأنا أرى الشوارع قد عادت إلى حياتها الطبيعية.
وفرغت من المتظاهرين، والمتحجّين، واختفت منها اللافتات، والهتافات.

ولذا، نزلت عند ساحة الأمير عبد القادر. وواصلت طريقي مشياً على الأقدام.

رقم.. رقمان.. بنائية.. بنائيتان. وطوابق أربعة أصمدها بسرعة
سارقة، وبلهفة عاشقة.

شوق پركش بي.. قلب تسرع دقانه. وباب يفتح من دقة واحدة،
وينفلق خلفي.

باب يفصلني عن مدينة «لا» ويدخلني عالم «نعم».

رجل لا اسم له ينتظرنى. يتأملنى. يضمنى. وقبله خلف باب مغلق
توّاً على فرحتى تسمونى بين عالمين.

يسألني وهو يراني ألتقط أنفاسي:

- هل وجدت صعوبة في الوصول إليّ هذه المرة؟

وأجيب:

- الأصعب كلّ مرّة أن اجتاز هذا الباب..

ثمّ أواصل بعد شيء من الصمت:

- دخولاً.. وخروجاً!

يردّ بشيء من السخرية:

- ابقِ هنا إذن!

أرتمي متعباً على الأريكة. أقول:

- احجزني رهينة عندك.. أيمكنك هذا؟

يجيب ساخراً:

- كلّنا رهائن.

- رهائن من؟

أتوقع أن يقول «رهائن الحب».. ولكنه يقول:

- رهائن الوطن..

أردّ بشيء من العصبية:

- أرجوك.. دعني من السياسة. أنا لست هنا لأحدثك عن الوطن.

أنت لا تعي كم أنا أجازف للوصول إليك.. فقط لأعيش لحظة حبّ.

- ولكن ليس ثمة من حبّ خارج السياسة. ألم تفهمي هذا بعد؟

أصمت لأنني لم أفهم. ولا أريد أن أفهم. لماذا تُصيح السياسة طرفًا ثالثًا في كل علاقة؟

لماذا تنام في سرير الأزواج، وفي سرير العشاق؟
لماذا تتناول معنا فطور الصَّبَاح.. وكلَّ وجبات النَّهار. وترافقنا
إلى زيارة الأحياء والأموات من أهلنا؟
لماذا تسبقنا إلى مدن الحلم، وحال وصولنا، تجلس معنا على
الأريكة. ولماذا تبعث بقریب إلى الغربة، وتعود متى شئت بمن نحب؟
أقول:

- ربّما كنت على حقّ.. في النّهاية السياسة هي التي عادت بك.
- ثمّ أوصل
- لحسن حظّ الحبّ.
- وماذا لو كان العكس؟
- لا أصدّق أن تكون قد عدت من أجلي..
- أنا لم أقل إنني عدت من أجلك.. لنقل إنني عدت كي مواصل
- كتابة الرواية معًا.. أليس هذا الذي يعنیک؟
- ربّما.. ولكن لا أفهم أن يعنیک أنت إلى هذا الحدّ.
- يضحك:
- طبعًا يعنيني.. لأنني لا أريد أن أخلف نهايتي، أريد لنا نهاية
- جميلة.
- حقًا؟

- طبقاً.. مهمة هي النهايات، في الكتب كما في الحياة.

اقاطعه:

- اتدري ما يعنيني الآن بالتحديد؟ يعنيني إن أعرف من تكون.
ولا شيء غير هذا. منذ ذلك اليوم وأنا أشتري كل الجرائد، أتفحص
كل الصُّور، أطلع كل المقابلات السياسيّة التي يُدلي بها أعضاء
المجلس الوطني. أعرف حياة الجميع. أقرأ تصريحاتهم جميعاً حول
كل شيء، ولا أقرأ شيئاً لك.. لماذا؟

يردّ ساخراً:

- لهم نياشين الكلام.. ولي بريق الصمت.

- ولكن مع أيّ جهة أنت؟ إلى أيّ حزب تنتمي؟

يردّ:

- السؤال الحقيقي. هو عمّ أنت منشقّ. وليس إلى أيّ حزب

تنتمي.

لا املك إلا أن أتبع منطقته في قلب الأسئلة. أسأل:

- وعمّ أنت منشقّ؟

يصمت وكأنّ السؤال فاجأه. ثمّ يجيب:

- لي أكثر من جواب عن سؤال كهذا. لنقل إنني منشقّ عن

أحلامي. أنا الشاهد الأخير يا سيّدتني على الأفول العربيّ. قضيت
عمري على شرفة الخيبة. أتفرّج على غروب أحلامي ووطنًا.. ووطنًا،
بما في ذلك وطني. أفهمت لماذا كان لابد أن لا أخلف نهايتي في هذه

القصة؟ تسأليني عن سرّ صمتي، أنا رجل كنت قبل مجيء
بوضياف فارغاً بلا أحلام. كلّ أحلامي كانت خلفي.

- وأنا؟

- أنت؟

- أين تضعني في كلّ هذا؟

- اضحك تمامًا حيث أنت الآن.

- أي...؟

- أي على ورق. أحلامي معك. كمشاريعك معي، لا تتجاوز
مساحة صفحة. حتّى عندما تكون هذه الصفحة في حجم سرير. إنّهُ
قدرنا.

هذا الرجل يتقن الكلام، إلى درجة يمكنه معها أن يمرّ بمحاذاة
كلّ الاسئلة، دون أن يعطيك جوابًا، أو هو يعطيك جوابًا عن سؤال لم
تتوقع أن يجيبك عنه اليوم بالذات، وأنت تطرح عليه سؤالاً آخر.

وهكذا ها هو يجيبني عن سؤال كان يشغلني في البدء. بل كان
سبباً لبدء هذه القصة. يوم كان همّي أن أعرف لماذا دخل هذا الرجل
دير الصمّات، واختصر اللّغة حتّى لم تعد تتجاوز بضع كلمات ثراوِجُ
بين «حنماً» و«قطعاً» و«طبعاً» و«دوماً» وكان كلّ الحياة يمكن أن
تختصر بها.

لماذا حول العالم كلمات قاطعة، والحبّ كلمات متقاطعة، يصعب
على أية امرأة أن تجاريه فيها أو تهزمه؟

وانا التي دخلت معه هذه المباراة اللغوية، ككاتبة تحترف الكلمات، وترفض ان يهزمها «بطل» في عقر دارها، وفي كتاب هي صاحبة، ها انا اهزم امامه شوطاً بعد آخر، واتورط معه سؤالاً بعد آخر، بعدما اصبح كل سؤال يوصلني إلى اسئلة أخرى.

ومنذ البدء كنت أدري تماماً ان الاسئلة تورط عشقي. ولكن.. لم اكن أعرف أنه، مع هذا الرجل بالذات، تصبح الاجوبة أيضاً انبهاراً لا يقل تورطاً

احب أجوبته، وأعترف أنني كثيراً ما لا افهم ما يعنيه بالتحديد. كثيراً ما يبدو لي وكأنه يحدث امرأة غيري عن رجل آخر. ولكنني احب كل ما يقول، ربما لأنني مأخوذة بغموضه.

اقول وأنا اعبت بيده:

- احبك.. حرّوني قليلاً من عبوديتك.

يحتضنني. ويسحبني نحوه قائلاً:

- الحب أن تسمح لي بحبك بأن يجتاحك ويهزمك، ويسطر على كل شيء هو أنت. لا بأس أن تنهزمي قليلاً.. الحب حالة ضعف وليس حالة قوة.

- ولكن..

- ولكن.. لأنك لم تعي هذا، أنت تكررين خطأ سبق أن ارتكبته في كتاب سابق.

أريد أن أسأله متى حدث هذا، وفي أي كتاب، ولكن شفّتيه

تسرقان اسلّتي وتذهبان بي في قبلة مفاجئة.. كأجوبته. فاستسلم
لاجتياح شفّتيه لي. وكأنتي أريد أن أثبت له، مع كل مساحة تسقطا
تحت سطوة رجولته، كم أنا أحبه.

في الواقع، لم أكن أملك القوة، ولا الرغبة في مقاومته. كنت أجد
متعتي في اندهاشي به، وهو يضع مفاتيحه في الأقفال السريّة لجسدي.
في المتعة كلمة سرّ، وشيفرة جسدية، تجعل من شخص عبدًا
للآخر دون علمه. وهذا الرّجل الذي لم يستعمل معي سوى شفّتيه،
مَنْ دلّه على متعتي، كي يسلك ممرات سريّة للرغبة، لم تعبرها شفّتا
رجل قبله؟

ثمّ فجأة وضع قبلتين متلاحقتين على فمي. كما يضع نقاط
انقطاع بعد جملة مفتوحة، ونهض ليبحث عن علبة سجائر.

اغتنمت فرصة انشغاله. فاتّجهت نحو الحمام كي أجدّد هياّتي.
تأمّلت دون اهتمام تفاصيل أشيائه الرّجالية، التي استوقفتني
منها على رفا المغسلة، زجاجتا عطر من النّوع نفسه، إحداهما
مفتوحة، والأخرى مازالت مغلّفة بورقها الشفّاف.

سحبت تلك المفتوحة. ورحت أتأكلها بفضول من وقع على سرّ.
تذكّرت كلّ تلك المرات التي كنت سأسأله فيها «ما اسم عطرِكَ يا
سيّدي؟».

تذكّرت أيضًا أنّ قصّتي مع هذا الرّجل، ولدت بسبب كلمة وعطر.
وربّما بسبب هذا العطر وحده. الذي لولاه لما استدلت عليه.

كنت لا أزال ممسكة بتلك القارورة، عندما عبر الممر، متجهًا نحو المطبخ.

سألته مازحة، وأنا أجرب العطر على كفي:

- الآنني أبديت إعجابي بعطرك، أصبحت تشتري منه قارورتين دفعة واحدة؟

ردّ ضاحكًا:

- لا.. لقد أحضرت معي هاتين القارورتين من فرنسا. كلما سافرت أحضرت واحدة لي، وأخرى لصديقي عبد الحق. في الحقيقة، هو الذي جعلني أكتشفه. إنه لا يستعمل غيره.

كنت على وشك أن أغادر الحمام عندما عاد وكأنه تذكر شيئًا. ثم قال وهو يمدني بتلك القارورة المغلقة:

- اعتذر، لأنني لم أحضر لك شيئًا معي. لقد عدت على عجل. هل تسمحين لي بأن أهدي إليك هذا العطر؟ يقال إن المرأة تحب استعمال عطر الرجل الذي تحبه.. ضعيه كلما اشتقت إليّ.

قلت وأنا أتسلم منه تلك القارورة:

- لم أكن أعرف هذا.. تبدو لي الفكرة جميلة. ولكن أخاف أن تلزمني قارورة كل أسبوع إذا كان الأمر يتعلق بالشوق!

ثم أضفت مستبدكة:

- وصديقك؟

أجاب:

- لا تهتمّي .. سأتدبّر أمره.

سعدت بتلك الهدية. شعرت أنني أطوق هذا الرجل موعداً بعد
آخر. اتسلّل إلى عالمه الحميميّ من حيث لا يتوقّع، واسطو على كلّ
ما قد يدلّني عليه.

عدت إلى قاعة الجلوس. كان يدخّن بهدوء على الأريكة المقابلة لي.
وكأنه قرّر أن يتأمّلني. أو يتأمّل ما فعله بي في عمر قبلة.

أخفيت تلك القارورة في حقيبة يدي، بفرحة تشبه تلك التي
أحسست بها يوم أخذت منه كتاب هنري ميشو. عساني أكتشف
أخيراً من يكون.

وجدتني أقول له دون تفكير وأنا أعيد الحقيبة إلى مكانها.

- اتدري ما هو أجمل شيء يمكن أن تهديني إليّ؟

ردّ وهو يواصل تدخين سيجارته، واضعاً قدميه على طرف
الطاولة:

- ما هو...؟

قلت:

- الحقيقة! أبصرك أن تهدي إليّ الحقيقة؟ من خطّي أن أعرف من
تكون.

ردّ ساخراً:

- أجلي خبيثك قليلاً!

واصلت بإصرار:

- ما أسمك؟ هل صعبٌ إلى هذا الحدّ أن تبوح لي باسمك؟
ردّ ضاحكاً:

- لا... ولكن أيّ الاسمين يعنيك؟
قلت:

- وهل لك اسمان... لماذا؟
ردّ:

- لأننا نعيش في عصر، حتّى الدول والانظمة والاحزاب، غيّرت فيه أسماءها في ظرف سنوات قليلة، وبجراحة قلم. أي بما يعادل لحظة من عمر التاريخ. في روسيا وحدها توجد ثمان وعشرون مدينة غيّرت اسمها. بما في ذلك لينينغراد. ولماذا لا نستطيع، نحن الناس البسطاء، أن نفعل ذلك عندما نغيّر معتقداتنا... أو عندما يطراً على حياتنا ما يغيّر مجراها؟

أتدري.. تعجبني حكمة الصينيين، وذلك التقليد الجميل، الذي يتبعونه في اختيار اسم جديد لهم، في آخر حياتهم. كأنهم، وقد خبروا الحياة، أصبح بإمكانهم أن يختاروا اسماً يناسبهم لحياة أخرى. في النهاية، إنّ الأسماء التي تشبهنا تهينا إياها حياتنا. أمّا تلك التي نأتي بها الحياة، فكثيراً ما تجرر علينا. لنقل إنني أعجبت بهذه الفكرة، وقررت أن أكون رجلاً باسمين.

جوابه كالعادة لا يحمل أيّ جواب. وإنما قدرة مدمشة على تحاشي الأسئلة.

ولكنني لا أستسلم. بل أطارده بإصرار.

- أعطني أي اسم شئت. أريدَ اسمًا أناديك به.

يجيب بنبرة عادية:

- اسمي خالد بن طوبال.

أردّد مذهولة:

- خالد بن طوبال؟ ولكن..

يقاطعني:

- أدري.. إنّه اسم بطل في روايتك.. أعرف هذا ولكنه أيضًا

اسمي..

أجلس على طرف الأريكة. أنفُرج على رجل اتعرف إليه. وأستعيد آخر عرفته يومًا في كتاب سابق. كان أيضًا رسامًا من قسنطينة.

رجل أعرف كلّ شيء عنه، كما لو كان أنا. ولم تفصلني عنه سوى الرّجولة، وجسد شوّهت الحرب ذراعه اليسرى.

أيعقل أن يكون هو؟ أتأملّه دون أن أصدق هذا. أتوقّع أن يقول شيئًا. ولكنه لا يفعل. يواصل تدخين سيجارته بالهدوء نفسه.

في لحظة ما: مرّ أنني اقترب من الحقيقة، ولا يفصلني عنها سوى سؤال واحد. هل خالد بن طوبال هو اسمه الأوّل أم اسمه الثاني؟.

والجواب عن هذا السؤال سيكون مخيفًا وحاسمًا، لأنّه سيقطب كلّ مقاييس هذه العلاقة، ومعها هذه القصّة. وإذا تماديًا في الغموض والمراوغة.. لا أتوقّع أن يجيبني عنه بسهولة.

أَسْأَلُهُ:

- هل هذا هو الاسم الذي يناديك به أصدقائك وزملاؤك في الشَّغل؟

يرد:

- طبعاً.. وهو أيضاً الاسم الذي أوقع به مقالاتي.

ثمَّ أمام دهشتي. يمدّني بجريدة على منقربة منه. ويدلّني على مقال سياسي يحمل توقيع خالد بن طويال.

أخذ منه الجريدة غير مصدّقة لما أرى.

طبعاً، كنت توجّست من مطالعتي لكتاب «هنري ميشو» أن يكون صحافياً. وأذكر تماماً، ذلك البيت لهنري ميشو:

«في انتظار الشَّمْس، تعلّم أن تنضج في الجليد».

والذي أضاف أسفله، بقلم أزرق (أو في جريدة)!

ولكنّني لم أتوقّف طويلاً عند البيت الآخر.

«ليس لي اسم

اسمي تبذير للأسماء»

والذي وضع تحته سطرين. وكأنّه البيت الذي يشبهه الأكثر.

بقيت ممسكة بالجريدة، بينما واصل هو تدخين سيجارته متجاهلاً نظراتي. وربما تمايلاً في التجاهل، أشعل جهاز التلفزيون. وها هوذا يفرق في متابعة تحقيق أخباري حتّى يكاد ينسى وجودي معه.

كان التلفزيون يعرض تغطية مباشرة للجولة التي يقوم بها
بوضياف في الوطن، لشرح مبادئ التجمع الوطني. كان بوضياف
يخطب ملوحًا بيده:

«إن في هذا البلد مافيا ومسؤولين استحوذوا على أموال ليست
لهم. اعدكم بإعلان حرب حقيقية على هؤلاء. إن العدالة ستدرس كل
الملفات. وستقوم بدورها. وإنني أطلب من المواطنين أن يساعدوا
العدالة في ذلك.. أن يكتبوا إليها.. ويزودوها بكل ما لديهم من
معلومات..»

لن يكون هناك بعد الآن من أحد فوق العدالة، العدالة ستطول
الجميع. فمن حق الشعب أن يعرف الحقيقة. من حقّه أن يعرف أين
ذهبت أموال هذا الوطن...»

كان لكلمات بوضياف المرتجلة، في ذلك النقل المباشر، والتي
الهدت الحضور هتافات وزغاريد، ما جعل مزاج جلستنا يتغير بعض
الشيء، قبل أن يكسر ذلك الرجل الصمت بيننا.. ويتوجّه نحوي
معلقًا:

- لن يتركوه ينجز ما جاء من أجله.. أنا واثق من هذا...

لا أدري بالتحديد ماذا كان يعني. فقد كان ذهني ما يزال مشتتًا،
ولكنني سألتني بنيتي مدّ الحديث:

- لماذا؟

أجاب بلهجة تهكمية:

- لماذا؟ لأنهم لم يأتوا به ليفتح الملفات المغمومة، وإنما واجهة

يواصلون خلفها حكم الوطن ونهبه. ولذا يقول المقرَّبون منه، إنَّه يفلق على نفسه ساعات طويلة في النَّهار واللَّيل. إنَّه يبحث عن الحقيقة التي يريد أن يهديها إلى الشَّعب بعد ثلاثة أشهر.. بمناسبة عيد الاستقلال.

ثمَّ يواصل بعد شيء من الصَّمت:

- تبحثن عن الحقيقة؟ الكلَّ يبحث عن الحقيقة.. ولكنَّ الكلَّ يخافها. اتدرين لماذا؟

أنتم:

- لماذا؟

يطفئ سيجارته في المنفضة ببطء، وكأنَّه يسحقها. ثمَّ يقف فجأة، ويشرع في فكَّ أزرار قميصه الواحد تلو الآخر بيد واحدة.

اتذكَّر أنَّني لم أراه يوماً يستعمل معي إلاَّ يده اليمنى. يذهلني هذا الاكتشاف المتأخَّر، والذي يعيدني إلى ذلك البطل في روايتي. وقبل أن أتمادى في تفكيري، أراه يلقي بقميصه على الأريكة المجاورة. ويواجهني ب صدره العاري قائلاً، وكأنَّه يواصل الحديث عن أمر آخر:

- لأنَّ الحقيقة تعبَّر عن نفسها دائماً بشكل رديء!

ثمَّ يتابع بعد شيء من الصَّمت:

- وأحياناً بشكل قاتل، حتَّى عندما لا تتعدَّى جريمتها قتل أو هامنًا.

أنتبه فجأة لזراعاه اليسرى. التي تبدو مصابة بشلل يمنعها من

الحركة، بينما تظهر اعلاها بعض التشويهاات، وكأنَّ عمليةَ جراحيةٍ أُجريت لها في موضعين أو ثلاثة، دون أية مراعاة جمالية.

تتناوبي قشعريرة، وحالة من الذعر، ليس مصدرها ما أرى. وإنما خوفي من أن أكون قد بدأت أجنّ، ولم أعد أعرف الفاصل بين الكتابة والحياة.

...أو كأنني حلمت يوماً بأنَّ ما يحدث لي سيحدث. وما هوذا يحدث فعلاً. وإذا بي أمام رجل خلقته، وشوّهته بنفسني.

كنت أعني أنه يختبرني. ويتابع وقع المفاجأة عليّ بحساسية مفرطة. فتدركت ارتباكِي وقلت بنبرة صادقة:

- لا يعنيني ما تعتقده اللحظة. ولكن ثِقْ أنني أحبك كما أنت. وإلا لما كنت خلقت رجلاً يشبهك، تماماً لأعيش معه سنوات في كتاب.
ردّ ساخرًا:

- لقد مارست دائماً بجدارة صلاحيات الحبّ في التدمير!
قلت:

- بل مارست صلاحيات الكاتب في التخيل ليس أكثر.
ردّ:

- كفّي عن التخيل.. كلّ الذي أجهدت نفسك في خلقه.. قد سبقتك الحياة إليه. الإنجاز الوحيد بالنسبة إلى كاتب، هو ما يتركه في كتابه من بياض.

كلّ صفحة بيضاء في كتاب، هي مساحة مسروقة من الحياة،

لأنها تصلح بداية لقصة أخرى أو كتاب آخر. ومن هذا البياض جنتك.. وليس ممّا توقّعينه أدباً.

قلت متحاشيةً الدخول معه في جدل:

- لا يعنيني أن أعرف من أين جنتني.. كلّ ما أدريه أنّني أريدك.
ردّ ساخرًا:

- حقاً.. توقّعت أنك تريدني الحقيقة!

أجبت بشيء من العصبية:

- أيّ اعتراف تريد منّي بالتحديد؟

ردّ بالسخرية نفسها:

- أنا لا أريد منك أيّ اعتراف؛ يعنيني فقط أن تكوني صريحة مع نفسك، وتعترفي ولولها، أنّ ما يحدث بيننا كرجل وامرأة يعنيك بالدرجة الأولى. وأنّ هذه القصة من دونه لا تستحقّ مشقة الكتابة.

- ثمّ؟

- ثمّ لا شيء.. عدا كونك تمرّين بمحاذاة هذه الحقيقة الكبرى، وتنشغلين بالبحث عن حقيقة أخرى، أقلّ أهميّة، تدور كلّها حول سؤال واحد «من أكون؟».

السؤال الأهمّ في اعتقادي هو «لماذا أنتِ هنا؟».

حشرنني في المربّع الأخير للاعتراف. ولم أجد ما أجيب به سوى:

- أنا هنا.. لأنّ واجبي ككاتبة هو البحث عن الحقيقة.. وكامرأة..

من الطَّيِّبِى أن أبحت عن الحبِّ. ولكنني معك لم أعد أحسن التمييز بينهما.

ردّ بنبرة أستاذ:

- سأؤدِّك على طريقة، تتعرَّفين بها عليهما دون خطأ. فالحقيقة تعبر دائماً عن نفسها بشكل بشع، والحبُّ يبدو دائماً أجمل ممَّا هو! كان يتحدث إليّ، وهو يرتدي من جديد قميصه، ويده اليمنى تحاول بصعوبة إدخال تلك الأزرار.

وبدل أن أساعده على تزييرها، امتدَّت يدي تخلع عنه القميص. وراحت شفتاي تتدحرجان على مساحة صدره. ثمَّ تنزلقان نحو ذراعه الثابتة مكانها، فتكسوها قبلاً، بشراسة العشق الذي هو وحده قادر على جعل أية حقيقة.. جميلة في بشاعتها!

* * *

عندما غادرته، انتابتنى أحاسيس متناقضة تراوح بين المتعة، والخيبة، والاندھاش الجميل والمؤلم في الوقت نفسه.

أن تذهب إلى موعد حبٍّ، وإذا بك مع شخص خارج نوا من كتابك، يحمل الاسم نفسه، والتشويه الجسدي، نفسه لأحد أبطالك، وأن تبقى برغم ذلك على اشتهاكك نفسه له، لا بدَّ أن يترك في نفسك كثيراً من فوضى المشاعر... وفوضى الأسئلة، خاصة عندما ترى اسمه، كما اخترعته أنت، وأجهدت نفسك للعثور عليه، قد غادر

كتابك، وأصبح مكتوبًا، أسفل مقال صحافيّ على جريدة، كاسم
لرجل لا علاقة له بك، لولا تلك الخصوصية الثانية التي تذهلك: كيف
يمكن أن يكون معطوب الذراع أيضًا.. كبطلك؟

ما يدهشني هو كون هذا الرجل، يواصل معي قصة بدأت في
رواية سابقة، وكأنّه يعيد إصدارها في طبعة واقعية. من نسخة
واحدة.

حتىّ. إنّهُ يوم قبلني لأول مرة، أمام مكتبته، قال «نحن نواصل
قبلة.. بدأناها في الصفحة 172 من ذلك الكتاب.. في هذا المكان
نفسه».

وعدت إلى كتبي، بحثًا في رواياتي عن الصفحة 172 في كل
كتاب. وعثرت على تلك القبلة، مطوّلة، مفصّلة، مرتجلة، كما حدثت
ذات يوم بين ذلك الرّسام، وتلك الكاتبة.

ثمّ عندما استعرت منه كتاب هنري ميشو، قال إنّهُ يخشى أن
يكون يكرّر معي حماقة حدثت في كتاب سابق، ملصّحًا إلى حبّ
البطلة في تلك القصة لصديق البطل.. بسبب كتاب.

أمّا أنا، فانتبهت أنّني كنت أكرّر في الحياة تصرفات تلك البطلة
بعد قبلة، واستعير كتابًا.

كلّ شيء كان يعيدنا منذ البدء، إلى تلك القصة، بما في ذلك
المدينة التي جمعتنا.

بل حتىّ في حديثه عن الجسور.. وعن قسنطينة، ثمّة رجوع ما،

أو تراجع متعمد، عن كل ما قاله ذلك الرسام في تلك الرواية. وكان المسافة الزمنية قد جعلته يراجع آراءه، ويصححها، عن خيبة وتطوُّف عشقي.

وبرغم كل هذا، يبقى الأمر مريبًا. فانا لا أريد أن أصدق أن ذلك الرجل الذي ما انفك منذ ستّة أشهر يقلب حياتي رأسًا على عقب، هو خالد بن طويال، ذلك الكائن الحبري الذي خلقت منذ عدّة سنوات. ثم نسيت داخل كتاب. أقيت به إلى جوف مطبعة كما تلقي بجثّة إلى البحر، بعد أن نقلها بالصخور، حتّى لا تعود إلى السطح، ولكنّه عاد.

هذا الكائن أعرفه عن ظهر قلب. فقد عشت معه أربع مائة صفحة وما يقارب الأربع سنوات. ثم افترقنا. انتهى عمره مع آخر سطر. وبدأ عمري دونه منذ ذلك الحين.

ولكن من ممّا كان يبيحني عن الآخر، خلال كل ذلك الوقت؟ ومن ممّا ترى كان الاحوج إلى الآخر؟

أذكر مقولة لروائي سئل «لماذا تكتب؟» فأجاب ساخرًا «لأنّ أبطالني في حاجة إليّ.. إنهم لا يملكون غيرة على وجه الأرض!».

طبعًا كان يراوغ. ويقدم اعترافًا بيئته دونهم. فكلّ روايتي هو في النهاية يتيم.. ومخلوق عجيب، تخلى عن أهله، ليخلق لنفسه عائلة وهميّة، وأصدقاء، وأحبّة، وكائنات حبريّة، يعيش بينها، مشغولًا بهمومها، محكومًا بمزاجها، حتّى لكأنّه لا يملك على وجه الأرض غيرها!

فآين العجب في أن يصبح هذا الرجل كلَّ عائلتي، ويشغل مكان زوجي، وأخي، وأمي.. وكلَّ من يحيطون بي؟!

في الواقع، كان عجبي الوحيد أن اتعلَّق بهذا الرجل بالذات، من بين كلِّ من خلقت من أبطال، وإنَّ يقع بيغماليون في حبِّ تمثال خلقه بيده، وكأن آية في الكمال، فهذا الأمر يبدو منطقيًّا، كما جاء في الأسطورة. أمَّا أن يحبَّ نحات التمثال الذي أخفق في خلقه، ويحبَّ روائي البطل الذي شوَّهه بنفسه.. فهذا تكمن الدَّهشة.

ذلك المساء.. توقَّعت أن يكون في جلوسي إلى أُمِّي الحنَّ الامثل للهروب من نفسي؛ فقد كنت أهملتها بعض الشَّيء، بعد أن أغريتها بالاتِّصال ببعض معارفها في العاصمة.. واعدت لها برنامجًا على قياس حُرِّيَّتي.

كانت سعيدة، أو ربَّما بدت لي كذلك، وهي تحدَّثني عن قريبة بعيدة، تعقد قران ابنها في نهاية الأسبوع، وتدعونا لحضور احتفال الزَّواج. ولم يعد صعبًا أن أتوقَّع برنامجها للأيام القادمة.

أُمِّي تعيش دائمًا بين عرسين، أو حجَّتين، أو نذرين. وحيثما حلَّت، تعثر على من يوشك أن يزوج قريبًا، أو من له قريب عائد قوًّا من العمرة أو الحجِّ. أو «شيخ».. يدعوها لدعوة، أو لدزدة!

وبرغم هذا، لم تكن سعيدة تمامًا، قد كان ينقص سعادتها شيء اسمه «ناصر».

قبل اليوم كانت تتمنَّى أن تزوَّجه، ويمتلئ البيت بكثرة تتحكَّم فيها. ويأحفاد تربِّيهم وتتسلَّى بهم.

أما الآن وقد رحل ناصر، فقد أصبح كلّ زواج يعيدها إليه، بل أصبحت لا تريد أكثر من عودته، ليقاسمها ما بقي من العمر.

وأكثر ما كان يؤلمها في سفر ناصر أنّها لم تكن مهية له. فلا شيء في طبع ناصر ولا في نمط حياته، كان يوحي بأنّه قد يأخذ قراراً مفاجئاً وحاسماً كهذا.

منذ سفر ناصر، من ثلاثة أشهر، وأنا أحاول أن أجيب أمي عن السؤال نفسه الذي أخفي عليها دائماً نصف حقيقته.

هي تسأل:

- لماذا سافر اخوك يا ابنتي؟ أخبريني؛ أنت تقول لك كلّ شيء.

وأنا أجيب:

- لقد سافر لأنّه غير مرتاح في هذا البلد.. يريد أن يجرّب حظّه في الخارج مثله مثل الآخرين.. ولكنّه سيعود.. لقد وعدني بذلك.

- ولكن متى؟ بعد أسابيع؟ بعد أشهر؟ بعد سنوات؟

ولا املك إلا أن أجيبها:

- عندما تهذا الأوضاع قليلاً.. وتحسّن الحالة..

فترد:

- آية أوضاع؟ وآية حالة هذه التي ستتحسّن؟ ألم تسمعي بما حدث منذ يومين في البلدة..؟ لقد روت لنا امرأة اليوم أنّهم...

واقاطعها:

- لا أريد أن أعرف.. لا تقصّي عليّ أيّ شيء، أرجوك..

لم أكن أريد أن تُفسد عليّ ليلتي بأخبار الموت، كما تعودت.
أن تفعل ليلاً، بين حين وآخر، عندما كانت تطلبني هاتفياً عن ضجر،
أو عن خوف، ولا تجد ما تقصّه عليّ إلا قصصاً لم أشاهد مثلها
حتى في أفلام الرعب.

وكانت قد شاعت فجأة بدعة تشويه الجثث، والتمثيل بها، كي لا
ترتاح نفوس أصحابها، ولا تدخل الجنة، وكي يعتبر بها «الكفار» أو
أولئك الذين يعملون في خدمة «الدولة الكافرة».

وهي صفة لا تعني غالباً، سوى رجال الأمن، وبعض اليانسين من
شرطة السير، الذين انقضوا في بضعة أشهر رمياً بالرصاص،
ونهباً ومطاردة حتى المقابر، حيث اغتيل العديد منهم وهو يرافق
قريباً إلى مثواه الأخير.

أمّا أولئك «الأذكياء» الذين جاؤوا لزيارة موتاهم بعد يومين أو
أكثر، فقد فوجئوا بمن ينتظرهم ليلاً ونهاراً خلف القبور، وذهبت بهم
المفاجأة في مقبرة، فكلّ القبور هنا مفتوحة تنتظر تهمة لتنفلق على
أحد.

فماذا يمكن لأمي أن تضيف إلى مسلسل الرعب الذي أتابعه
مذهولة كلّ يوم، مثل كلّ سكان هذا البلد؟

فجأة، سألتني أمي وقد عادت إلى هاجسها الأهم:

هل ترك لك ناصر عنواناً في الرسالة التي بعث بها مع ذلك

الصديق؟

قلت:

- أجل -

قالت:

- اكتبني إليه إذن..

قلت:

- سأفعل حال عودتي إلى قسنطينة. فقد سألني عن أمور لا بد أن أراجعها هناك.

في الواقع، لم يكن قد سألني سوى عن أخباري وأخبار أمي. ولكنني كنت فقط أريد إرجاء هذه الرسالة إلى ما بعد. فقد كان ذهني مشغولاً بأمر واحد: ذلك الرجل، تماماً كانشغال أمي بأمر واحد هو ناصر. ناصر الذي أصبح يذكّرها فجأة بأبي الذي غاب هكذا منذ أكثر من ثلاثين سنة، مع حفنة من الرجال كي يخطّطوا لما سيسمى في ما بعد «ثورة نوفمبر».

ربّما منذ ذلك الحين، أصبحت أمي تخاف الرجال الذين يرحلون هكذا فجأة، دون أن يتركوا عنواناً لغيابهم، ولا تاريخاً لعودتهم؛ فقد لا يعودون، أو قد يعودون عندما لا نتظرهم، لفرط ما انتظرناهم. في ذلك اليوم الذي لا نصدّق ذلك الصوت الصّغير الذي يردّد على مقربة منا، أنهم سيأتون، اليوم.. وربما الآن. ثمّ فجأة تحدث المعجزة، وتدنّق يد عجلي الجرس. وينفتح الباب، على رجل متعب، مغبرّ الكياب، يرفعنا كدمية نحوه، يضمّ جسدنا الصّغير إلى صدره. يقبلنا.. يقبلنا.. ولا ندري لصفر سنّا، أكانَ لاحظتها يبتسم أم يبكي.

كنتك الحادثة المذهلة التي تحكيها أمي، والتي حدثت يوم كنت طفلة في الخامسة من عمري، وكنا في شهر رمضان، وكانت أمي تعدّ «البريك» للإفطار، فرحت لاحقاً طالبة منها أن تعدّ واحدة لأبي، لأنه يحبّه. وكانت تجيبني أنّه غائب، ولا يمكنه أن يحضر. وأجيبها بعناد الأولاد «بلى سيحضر.. أعدّي له واحدة!». ٢

وما كدنا نجلس حول طاولة الإفطار، حتّى دقّ الباب، وجاء أبي قادمًا من الجبهة، بعد غياب سنة تمامًا. فقد كانت زيارته الأخيرة تعود إلى رمضان الفائت. لحظتها أجهشت جدّي بالبكاء وهي تردّد «لقد قالت لنا حياة إنك ستأتي.. ولم نصدق!».

ولذا اتوّع أن تطاردني أمي بعد الآن بالسؤال «متى يعود ناصر؟» معتقدة أنّي ما زلت أملك تلك الحاسة السادسة أو ذلك الحدس الذي يملكه الأطفال دون غيرهم، والذي يدلّهم على ما يجهله الكبار.

طبعًا، فقدت ذلك الحدس منذ زمن بعيد، من جملة ما فقدت من أشياء جميلة، تركتها خلفي، كلّما تقدّم بي العمر.

ولو كنت ما زلت أملكه، لوجّنت الجواب عن أسئلة كثيرة أخرى. كان أحدها في الماضي «متى يعود ذلك الرّجل؟» وأصبح الآن «من يكون؟» و«متى أراه؟» وأين هي ذاهبة بي هذه القصة الغريبة؟

ما كدت أتذكّره حتّى انتابتنى رغبة جارفة في الحديث إليه، وحاجة عجلّى إلى سماع صوته، فانتظرت أن تنام أمي وذهبت لأطلبه.

ولكن طوال ربيع ساعة، كان خطّ هاتفه مشغولاً دون توقّف. وهو ما
فاجأني وأزعجني. كأنني لم أتوقّع أن يكون في حياة هذا الرجل
شخص آخر، قد يتحدّث إليه ليلاً.

ثمّ دقّ الهاتف أخيراً، وجاء صوته:

- كيف أنت؟

- بي شوق إليك. رأيت أن أطلبك وكان خطّك مشغولاً طوال
الوقت.

- كنت في حديث مع قسنطينة.

- أما زال أملك هناك؟

- لا.. كنت أتحدّث مع صديقي عبد الحقّ.

- تتحدّث إلى صديق؟ في هذه الساعة المتأخّرة من الليل!

ردّ كمن ينفي شبهة:

- إنّه رجل الوقت ليلاً.

- ماذا تقصد؟

- إنّه صحافيّ يعمل ليلاً في الجريدة.

- وهل ثمة من جديد؟

بدا لي وكأنّه كاد يقول شيئاً. ولكنّه بعد شيء من الصمت، أجاب
وكانّه يخفي أمراً:

- لا.. لا شيء.

ثمّ.. بصوت غائب:

- وانت؟

- انا.. كنت اريد ان اسمعك.

صمت قليلاً. ثم قال:

- وانا اريدك.

فاجأتني مباشرة. سألته متعجبة:

- حقاً؟ لماذا إذن استمتت البارحة في الدّفاع عن جماليّة

الحرمان؟

اجاب:

- يحدث أن نقول كلاماً.. ليس تماماً ما كنّا نريد قوله.

- وما الذي تريد قوله حقاً؟

- اللّيلة.. لا شيء.. إنّي ثمل بالأضداد. لا تتوقّعي منّي كلاماً منطقياً.

- أمّا انا.. فلي كلام كثير إليك. ولكن أصبحت أتعاشى المكاشفة. قد خوّفتني بالهاتف: ربّما كانوا يتنصّتون إلينا الآن.

ردّ ساخرًا:

- لا تهتمّي.. ما فائدة السرّ إذا لم يسمع به الآخرون!

صحت:

- هل جننت؟

- لا.. ولكن ألا تحبّين جماليّة الفضيحة في الحب؟

فاجاني استهتاره.. قلت:

- ولكنني متزوجة..

ردّ قائلاً:

- أدري.. ولهذا أنا في كل لحظة أتزوجك وأقتك.

- لماذا؟

- كي أشرّع حبك.. أريدك حلالاً كي أمارس معك كلّ الحرام.

- وهل أنت في حاجة إلى كلّ هذا كي تحبّ امرأة؟

- طبعاً.. لقد حدث أن كنت رجلاً بكثير من المبادئ.. ومثلاً كنت

أشهى ما أرفض.

- ثمّ؟

- ثمّ لا شيء.. الآن أريدك دون أسئلة.. لم يبق من الوقت الكثير.

يصمت قليلاً ثمّ يواصل:

- تعالي غداً.. أريد أن أسرّب إليك جنوني.

أسأله:

- وهل تعدني لو جئت أن تخبرني من تكون؟

يردّ:

- لا أعدك بشيء عدا المتعة.. وستأتين.

- لماذا أنت واثق إلى هذا الحدّ بقدومي؟

- لأنّ ثمة من يحوم حولي.. وقد يسرقني منك.. ألا تشعرين

بالغيرة من كائن قد يستحوذ عليّ إلى الأبد؟

أسأله غير مصدقة:

- هل ستتزوج؟

يردّ بحزن مستتر:

- بإمكانك أن تسمّي هذا زواجًا.. مع اختلاف في بعض التفاصيل. إنّه الارتباط الأبديّ الوحيد الذي لا ننجو منه ولا نخاره. لا أفهم ما يقوله. استنتج أنّه يمازحني، كيّ يحثّني على المجيء. أقول:

- سأجيء.. وبرغم هذا احذر غيرتي. أنا امرأة من برج الحمل. إنّه برج يشكّل أكبر نسبة من مرتكبي الجرائم العشقيّة. وسأتيك بتحقيق يؤكّد قولي.. يضحك.. يقول:

- تعالي.. قد أكون أنا من سيقبلك..!

لماذا يصرّ هذا الرّجل على إضرام النّار في جسدي وفي دفاقري؟ وما الذي غيّر قناعاته، هو الذي كان يقف دائماً على حافة الحرام. مكتفياً بقبلة؟ وهل حقاً ثمة امرأة تحوم حوله؟ من تراها تكون؟ وكيف حدث هذا.. وأنا أتحدّث إليه يومياً؟

حاولت أن انام، وأنا أبحث عن أجوبة عن هذه الأسئلة. ثمّ تذكّرت قوله «انتهى زمن الأسئلة، فأخفيت علامات استفهامي تحت الوسادة. ورحت أحلم بالموعد القادم.

* * *

كان في انشغال أمي بذلك العرس هنيئة نزلت عليّ من السماء.
فأمام معرفتها بمزاجي المضادّ للأفراح، وبعد اليأس من مرافقتي
لها، ذهبت لحضوره بمفردها، وتركنتني أستعدّ لتلك الأفراح السريّة
التي كانت وحدها تعنيني.

كان الوقت ظهرًا عندما وصلت إلى ذلك البيت.
فتح لي ذلك الرّجل الباب، بمزاج بحريّ. فقد بدا لي غامضًا،
وغير متوقّع، كما هو البحر.
قبّلني دون أن يقول شيئًا.
فجلست على الأريكة المقابلة له، أتأمله.
قلت:

- فيك شيء من البحر.

قال:

- أكان لقبلي مذاقه المالح؟

قلت:

- لا.. بل كان لها هدوء الكانّب.

لم يجب.

كان الصمت يجعلنا أكثر فصاحة. نذبذبات الرّغبة التي تعبّرنا
صمتًا تضعنا دائمًا في كلّ موعد في منطقة حزام الزلازل.
الشّهوة حالة ترقّب صامت للحسد. وإذا كنّا نحبّ صممتنا
المفاجئ هذا، ونخافه.

كان اذان الظهر يأتي من مؤننة بعيدة، بدا لي كأنه يستمع إليه
باهتمام خاص. فلم أجرؤ على التحدث إليه.

ما كاد ينتهي حتى وقفت. رأيت مشغولاً عني بتدخين سيجارة.
قلت وأنا أهم بالتوجه نحو المطبخ:

- ايمكن أن احضر ماء؟ إنني عطشى.

ولكنه لم يجب.

امتدت يده تستوففني، وتجذبني نحوه. ثم سألني فجأة:

- أما زلت تحبين زوريا؟

فاجأني سؤاله. بدا لي شبيهاً بتهمة حبتي لرجل آخر.

قلت:

- ربما.

اجاب:

- بل تحبينه. مازال بك افتتان بكل ما هو رائع ومهلك. وبذلك

الخسارات الموجهة التي تقلب المنطق.

قلت:

- أجل.

قال:

- تعالي إذن.. عندي لك ما يناسب مزاجك من متعة.

كان في نبرته شيء من الحزن الساخر الذي لم أفهمه.

كنت سأسأله ماذا كان يعني. ولكن، كان قد سحبني من يدي.
وذهب بي نحو أسئلة أخرى.

في غرفة مجاورة، يؤتتها سرير شاسع، وتفتش الجرائد والكتب
الملقاة أرضاً، زاوية من سجادها المتواضع، تركني واقفة للحظات،
واتجه نحو جهاز على مقربة من السرير وراح لدقائق ينتح بين
الأشرطة عن شيء ما، قبل أن يضع شريطاً لديميس روسوس ويعود.
قلت وقد أريكني وجودي في غرفة نومه:

- يبدو أنك تحبّ الموسيقى.

أجاب وهو يسدل بإمعان ستار النافذة الوحيدة:

- إن الموسيقى تجعلنا تعساء بشكل أفضل... ألا تعرفين هذه

المقولة؟

قلت:

- لا.

قال:

- إنها لرولان بارت.

ثم واصل:

- وهذا الشريط هل تعرفينه؟

قلت:

- أنا أعرف معظم أغاني ديميس روسوس... وأحبّ كلّ ما يفنيه..

ولكن لا أدري أيّ شريط هو هذا..

أجاب:

- أنا أيضاً لا أدري.. فقد وجدته هنا مع اشربة أخرى.. ولكن على أحد وجهيه أغنية ستحببها حتماً.

لم أسأله أية أغنية يعيها. فقد شعرت فجأة. أننا كنا نستنجد بالموسيقى في محاولة لإنقاذ ما قد يلحق بنا من دمار إثر متعة قد تفضي بنا الى حزن، لأكثر من سبب.

غير أن رغبة مخيفة في صمتها، وحواس في حالة تأهب، كانت تجعلنا دون مناعة عاطفية، أمام صوت يوناني يفني بالإنكليزية، بيحة الالم، خيالاته العاطفية.

كنا على مشارف قبلة، عندما جاءت تلك الموسيقى إيّاها. مباغته لنا، زاحفة نحونا، متباطئة، كسلى، ثم متقاربة الإيقاع، بمزاجية الرغبات الطاعنة تناقضاً.

كخطى راقص على أرض صفة الشفق، تحت مطر المساء، كانت الأقدام الحافية تنقل لنا إيقاعها العشيّ منتعلة خفة شهوتنا.

في حضرة زوريا.. خلع البحر نظاراته السوداء وقميصاً اسود، وجلس يتأملني.

رجل نصفه حبر، ونصفه بحر، يجردني من أسلتي، بين مدّ وجزر، يسحبني نحو قدري.

رجل نصفه حياء.. ونصفه إغراء، يجتاحني بصمّي من القبل.
بذراع واحدة يضمّني. يلقي يدي ويكتبني. يتأملني وسط ارتباك. يقول:

- إنها أول مرة أطلّ فيها من نافذة الصّفحة لأتفرّج على
جسدك.. دعيني أراك أخيراً.

احاول أن أحتمي بلحاف الكلمات، يطمئنني:

- لا تحتمي بشيء.. أنا أنظر إليك في عتمة الحبر، وحده قنديل
الشّهوة يضيء جسدك الآن. لقد عاش حبنا دائماً في عتمة الحواس.
أودّ أن أسأله:

- لماذا أنت حزين إلى هذا الحدّ؟

ولكن زوينة بحرية ذهبّت بأسننتي. وبعثرتني رغبة.. على سرير
الشّهوة.

كان البحر يتقدّم، يكتسح كلّ شيء في طريقه. يضع اعلام
رجولته، على كلّ مكان يمرّ به.

مع كلّ منطقة يعلنها منطقة محتلة واعلنها منطقة بحرّة، كنت
أكتشف فداحة خسائري قبله.

كمن يتعمّل داخل قفص الجسد، انتفض واقفاً. كان يريد أن
يفادر ذاته ويؤحد بي.
أسأله:

- ماذا أنت فاعل بي؟

يجيب:

«لا تملك الأشجار إلاّ»

أن تمارس الحب واقفة

تعالني للوقوف معي

أريد أن أشيع فيك صديقي

إلى مثواه الأخير»

أسأله مستغربة:

- ماذا تقول؟

يجيب وهو يحاول الإمساك بي.

- إنني أضمر لك قصيدة.

فجأة، تصبح كلماته كأطراف أصابعه، أعواد كبريت تشعل كل

شيء يمر به. ولا أفهم ماذا يعني. ولا.. لماذا يريد لنا حريقاً كبيراً

ومخيفاً إلى هذا الحد؟

رجولته تباغتني، فانتفض بين ذراعيه كسمكة. ثم أدخل طقوس

الاستسلام القديري.

فجأة يستوقفني:

- هل تحبينني؟

كانت ذراعه الوحيدة تنقل إليّ عدوى شراسته العشقية، في

محاكاة جسدية ملتبسة، فأجبت مذعورة:

- طبعاً أحبك.. لم يحدث للحب أن أوصلني إلى الخطيئة قبلك.

ولكنه أجاب بحسرة ساخرة:

«حتى متى سابقي خطيئتك الأولى

لك مَنَسَع لأكْثَر من بَدَايَة
وقصيرة كلِّ النِّهَايَات
إنَّني أنْتَهِي الآنَ فيكَ..
فمن يعْطِي للعمر عمراً
يصلح لأكْثَر من بَدَايَة؟
كان لَصَوْتُهُ مذاق متأخَّر للبكاءِ..
كَدَت أسَالُهُ «أَيَحْدِثُ للبحر أن يبْكِي؟». ولكِنَّهُ اخْتَفَى..

تَنْتَهِي العاصِفَة..
يَتْرَكْنِي البَحْر جُثَّة حَبٍّ عَلَى شَاطِئِ الذَّهْوِلِ. يَلْقِي عَلَى جَسَدِي
نَظْرَةً خَاطِفَةً..

قَبْلَةً.. قَبْلَتَانِ
مَوْجَةً.. مَوْجَتَانِ

وَيَنْسَحِبُ البَحْر سَراً.. مَعَ الدَّمْعَةِ الْقَادِمَةِ..
البَحْر أَيْضاً يَرْحَلُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ. بَعْدَمَا يَكُونُ قَدْ أَتَى
صَاحِبَهَا.. هَانِجاً، عَلَى عَجَلٍ. أَيَحْدِثُ لَهُ أَيْضاً، أَنْ يَمَارِسَ الحَبَّ عَنْ
أَلَمٍ؟

انْسَحَبِ البَحْرِ إِذْنِ. غَادِرِ جَسَدِي بَيْنَ قَصِيدَتَيْنِ وَدَمْعَتَيْنِ. وَبَقِيَ
الْمَلْحُ..

وَبَقِيتُ هُنَا.. إِسْفَنْجَةً بَحْرِيَّةً..

لحظتها، كان زوربا بوعي الخذلان المبكر، يواصل الرقص حافياً على شاطئ الفاجعة، فاردًا ذراعيه الى اقضاءهما كنبى مصلوب، يقفز على مقربة منى، على وقع الطعنات المتلاحقة، بشراسة وجع يجعلك مازوشياً حدّ النشوة. فرُحت أواصل الرقص معه، منتفضة كسمكة خارجة، تَوأ من سطوة البحر.

عندما تنتهي العاصفة.. يشعل البحر سيجارة. يدخن متكئاً على الأسئلة.

ثمّ عندما يعثر على الأجوبة، يكون قد أصبح رجلاً من جديد.
دوماً، بعد الحبّ، تعود أسئلة ذكورية أبدية، يصوغها الرجال حسب ذكائهم، ليطمئنوا إلى دوام رجولتهم:

- لقد خفت عليك دائماً من لحظة كهذه! على سرير الواقع تصبح المشاعر أقلّ جمالاً!

أطمئنه...

- جميل ما حدث بيننا. ولا أريد أن أعرف، إذا كان كذلك حقاً، أم أن الحبّ جعله يبدو أجمل ممّا هو.

أحاول أن اتحاشى الانتباه لذراعه وأنا أحدثه. ولكن كنت في انشغالي عنها أتأمله.

في الواقع، مشكلة الروائي أنّه لا يستطيع إلا أن يراقب كلّ شيء، حتّى أولئك الذين يقاسمونه سريره.
سألني وهو يصلح من جلسته:

- ما الذي تريد من رؤيته؟

فاجابني نبرته الساخرة. قلت وكأنني أبرّ ذنباً:

- أريد أن اطالع التاريخ السري لجسدك، كي أعرف إن كنت حقاً
خالد بن ولول. أنت تتصرف مثله في كل شيء. عجيب كم تشبهه!
أرحني.. قل لي من تكون.

أجاب ساخراً:

- رجالك جميعاً يتشابهون.

ثم أضاف بعد شيء من الصمت..

- ولكنني لست هو.

لفظ هذه الكلمات الأخيرة بهدوء. بالوقع نفسه الذي يقول به بقية
الكلام، وكأنه لم يلفظ شيئاً يغير مجرى قصتنا.

قلت:

- ولماذا أخفيت عني الحقيقة كل هذا الوقت؟

أجاب:

- ليس هناك من حقيقة واحدة. الحقيقة ليست نقطة ثابتة. إنها

تتغير فينا.. وتتغير معنا. ولذا لم يكن ممكناً لي أن أدلك إلا على ما
ليس الحقيقة.

وأضاف:

أتذكرين.. كنت تقولين «أحبّ جسدك» وكنت أجيب «إنّ جسدك قد

يخفي جسداً آخر» ولا تصدقين. وكنت تقولين «أحبّ الرجال في

الأربعين» وأصحح؛ أقول «لست الرجل الذي تتوهمين» ولا تصدقين.
بل تماذياً في الخطأ، وقعت في حبّ يديّ. وكنت تطارديني عنهما
بالاستئالة. تقولين «أحبّ يديك.. ما عمرهما؟» وأجيب «لقد أحببت
دائماً عقدي..» ولا تفهمين. ولا أملك الآن سوى هذا الجسد. لأردّ به
على كلّ استئلتك.

أجيب:

- ولكن لم يكن من داعٍ للمراوغة. فانا أحبّه كما هو..

يبتسم.. يقول:

- أنت تتوهمين

ثمّ يواصل:

- الحقيقة الوحيدة هي أنّك كنت جاهزة للحبّ. وكان يمكن أن
أتيك متنكرًا في أيّ شخص، وفي أيّ زمنيّ، أن أقول كلامًا كنت
تنتظرينه، أو لا أقول شيئًا. كنت ستحبّيني.

تابع قائلاً:

ذلك أنّ الحبّ يتلقم مع كلّ الحالات. وله هذه القدرة الخارقة على
إضفاء جماليّة حتّى على الأشخاص العاديين. والكيل أنّك عندما
ستكتشفين من أكون، ستجدين أيضًا في تفاصيل قصّتنا ما يذهلك،
ويقنعك بأنك تحبّيني أنا... وليس ذاك الذي كنت تتوهمين!

- ولكنك أريتنى جريدة عليها اسم خالد بن طويال.

- تلك حقيقة أخرى. إنّه اسمي. أو إذا شئت إنّه الاسم الذي

اخترته لأنه يشبهني. ولأنه مذ وصلتني تهديدات بالقتل. كان لابد أن
أختار اسماً جديداً أوقع به مقالاتي. ولا أشعر أنني سرقت هذا
الاسم من أحد. كل كلمة وقعتها في تلك الجريدة، كنت أشعر أنه كان
بإمكان ذلك الرجل الخارج من كتاب أن يقولها.. لو أنه نطق.

يذهلني كلامه. الآننا كنا نعيش وضعا روائياً، كل ما ينتج عنه
أصبح روائياً أيضاً؟

سألته:

- ما عدا هذا.. من أنت؟

ضحك.. أجاب:

- أنا قارئ جيد..

- لا أفهم.

- لنقل إنني قرأتك جيداً، قرأتك دائماً، وأنتي أعرف عنك ما
يكفي لإدهاشك. أنا ذاكرة أخرى لك.. أعرف عنك ما نسيت..

- ولكن في الحياة.. من أنت؟

- في الحياة.. أعمل صحفياً. ولن تصدقيني لو قلت لك إنني منذ
ثلاث سنوات كان هاجسي أن أتعرف إليك، بحجة إجراء حوار
للجريدة.

أضاف قائلاً بعد شيء من الصمت:

في الواقع، كنت أريد أن أطرح عليك أسئلة، لم تكن تعني غيري.
فقد صادف صدور كتابك مع تلك الحادثة التي شلت فيها ذراعي.

وهو ما جعلني اقضي فترة النِّقاهة في قراعتك. اذكر ان صديقي عبد الحق جاني بكتابك إلى المستشفى. وقال لي وهو يمّني به: «جنتك بكتاب سيعجبك...». تصوّري: خفّته قبل ان اقراه.. ثم خفّته لفرط ما قراته. اذهلني ان اعثر على بطل يشبهني إلى هذا الحد. كان بيني وبينه مدينة مشتركة، واهتمامات وخيبات مشتركة، وعامة وذوق مشترك. ووجدك كنت الشيء الذي لم يكن مشتركاً بيننا. فقد كنت حبيبته وحده.

وقابع:

يوم التقيت بك، اصبحت عندي يقين بأن حياتي ستطابق بطريقة او بأخرى، قصّتك معه. حتّى إنني خفّتك. وكثيراً ما راودتني رغبة في عدم الاتصال بك. لو تدرين كم أحبيتك.. وكم حققت عليك بسبب كتاب!

- ثم؟

- ثم لا شيء... اعتقد أنك كنت تكتبين لقلب الأشياء، عندما اخترت بطلاً فاقد الذراع. ولكن تظّل الحياة أكثر غرائبيّة من القصص التي نبتكرها. أي فخ كبير هي الحياة!

تصوّري.. كنت أريد منك أجوبة لا أكثر. ولكنّ الحياة كانت تعدّ لي دوراً معاكساً. لقد جنتك في زمن الأسئلة. انقضى هذا الكتاب، وأنا أردّ على أسئلتك. اعترف أنّه دور أجمل ممّا توقّعت. ولكنني لم اسع إليه. اكتفيت بمجاراة قدرتي، ومجموعة المصادفات التي واكبتها.

- واثناء ذلك، كنت تقوطني إلى تيه النصّ، والمتاهات السريّة للعواطف.. وكما نرى المواعيد.

- بل كنت أقودك إلى العشق. إنَّ أجمل حبٍّ هو الذي نعثِر عليه
أثناء بحثنا عن شيءٍ آخر. أدري.. كنت تبَحثن عن رجل، خارج من
كتبك. خلقتَه أنت، على قياسك. ولكن اليس أجمل أن أكون أنا الرَّجل
الداخل إلى هذا الكتاب.. ولست الخارج منه؟

- الهذا جئت اليوم؟ لكي يمكنك أن تدَّعي بعد الآن، أنك كسرت
ذلك الوهم الجميل، وحصلت على تلك المرأة التي لم تمتلك منها
سوى كتب.. وأسئلة لا جواب لها.

- طبعًا لا. وأنت تعرفين تمامًا أنَّ هذا ليس صحيحًا. فأننا أملك
من الكلام ما يمكنني من إقناعك بما أشاء، ولكنني كنت أحرص على
أن لا أكسر أيَّ شيء فيك. ولا أيَّ شيء بيننا. لقد اعتقدت دائمًا أنَّ
الاشتِّهَاء هو وحده حالة الامتلاك، أمَّا المتعة فهي بداية الفقدان.

- وما الذي أوصلنا إلى هذا السرِّير إذن؟

- أوصلنا إليه الموت.

- ألا ترى في قولك إهانة للحبِّ؟

- بل ردًّا اعتبار له. لا تظنِّي أنَّ من السَّهل أن تأتي المتعة عن ألم،
أو تأتي الجنس بذريعة موت الرَّفاق. يلزمنا كثير من الحبِّ لنُشار به
من الموت.

- ولكن.. مَنْ مات من معارفك كي يداهلك كلُّ هذا الحزن؟
يستنجد بسيجارة ثمَّ يجيب:

- مات سعيد مقبل.. ألم تسمعي بموته البارحة؟

قلت كمن يمتذر:

- انا لم اشاهد التلفزيون منذ أيام.. ولا قرأت الجرائد.

ثم واصلت:

- هل كان صديقًا مقربًا إليك؟

اجاب:

- لا. انا لم ألتق به أبدًا. أصبح صديقي البارحة. فقد رفعه القتلة برصاصتين إلى مرتبة صديق. تصوّري.. لي تسعة وعشرون صديقًا، لم ألتق بمعظمهم، إلّا على الصفحات الأولى للجرائد بمناسبة نعيمهم. ولكنّه كان صديقًا مقربًا من عبد الحق، فقد كان يعمل معه في الجريدة قبل أن يتركها عبد الحقّ ويسافر إلى قسنطينة. ولقد اتّصلت به منذ مدة، لأعرض عليه الكتابة في الجريدة نفسها.. وكان مفترضًا أن نلتقي هذه الأيام..

أسأله:

- وكيف قتلوه؟

يجيب:

- كان يتناول غداءه. رفقة زميلة له في مطعم صغير جوار الجريدة. عندما اقترب منه شخص، توهم منه أنّه يريد محادثته؛ ولكنّه أخرج مسدسًا، وأطلق النّار عليه ومضى بهدوء. تصوّري.. كان اسم المطعم «الرّحمة»!

- ولكن.. كيف لم يأخذ حذره؟

- طبعًا كان على حذر. مذ حاولوا اغتياله منذ شهرين وفشلوا، وهو يغيّر عناوين نومه، ومواعيد قدومه إلى المكتب، والطرق التي يسلكها في العودة، والأماكن التي يرتادها. ولم يغيّر كلّ هذا شيئًا من قدره. لقد وصف كلّ هذا الرعب اليومي الذي يعيشه الصحفي في الجزائر هذه الأيام في نصّ جميل ومؤثّر قبل أسبوعين من اغتياله. وأعادت الجرائد نشره اليوم في صفحاتها الأولى وهي تنعاه. ألم تقرايه؟ لقد تناقلته معظم وكالات الأنباء.

قلت بنبرة خافتة:

- لا

فمضى. ثم عاد بجريدة أعطاني إيّاها قائلاً:

- إقرايه إذن.. وستبكين صديقًا.

وما كدت أتوقّف عند عنوان المقال «هذا السارق الذي...» حتّى أخذ منّي الجريدة وراح يقرأ:

«هذا السارق الذي يتسلّل في الليل بمحاذاة الجدران، عائداً إلى بيته. إنّه هو.

هذا الأب الذي يوصي أولاده، بأن لا يفضحوا في الخارج المهنة التي يتعاطاها. إنّه هو.

هذا المواطن السّيئ، الذي يجزّ أذياله في قاعات المحاكم، منتظرًا دوره للمثول أمام القاضي. إنّه هو.

هذا الفرد الذي يساق خلال مداهمة لحيّ، والذي يدفع به كعب بندقيّة إلى قاع شاحنة. إنّه هو.

هو الذي يغادر منزله كلّ صباح، غير واثق بأنّه سيصل إلى مقرّ عمله.

وهو الذي يغادر عمله مساءً، غير متأكد من أنّه سيصل إلى بيته.
هذا المشرّد الذي لم يعد يعرف عند من يقضي ليلته. إنّهُ هو.
إنّهُ هو الذي، يتعرّض للتهديد في سرّيّة إدارة رسميّة.
الشاهد، الذي ينبغي عليه أن يبتلع كلّ ما يعرف.
هذا المواطن الأعزل.

هذا الرّجل الذي أمّنيته أن لا يموت مذبحاً. إنّهُ هو.
هذه الجثّة التي يخطّون عليها رأساً مقطوعاً. إنّهُ هو.
هو الذي لا يعرف ماذا يفعل بيديه، سوى كتاباته الصغيرة.
هو الذي يتمسّك بالأمل، ضدّ كلّ شيء؛ ألا تنبت الورود فوق
أكوام القاذورات؟
هو الذي كلّ هذا. وليس سوى صحفيّ.

لقى بالجريدة على الطاولة المجاورة، ثمّ واصل.
- كيف أحمل حداد رجل كان في السابعة والخمسين من عمره،
يواجه الموت بكلّ هذا العناد، ويصدر الجريدة بعد الأخرى، في زمن
لم يبق فيه أحد ليفامر بوضع توقيعه أسفل مقال؟ ويسمّي زاويته
«مسمار جحا»، معلنًا أنّه باق هنا بنية إزعاج الجميع، ساخرًا من
السلطة والإرهابيين على حدّ سواء.

سحب نفساً من سيجارته، وواصل بنبرة محببة:

لا افهم، كيف يمكن لوطن أن يفتال واحداً من أبنائه، على هذا
القدر من الشجاعة؟ إن في الأوطان عادة شيئاً من الأمومة التي
تجعلها تخافك، دون أن تعاديك، إلا عندنا، فبإمكان الوطن أن
يقتلك، دون أن يكون قد خافك! حتى أصبحنا حسب قول عبد
الحق.. نمارس كل شيء في حياتنا اليومية.. وكأننا نمارسه كل مرة
للمرة الأخيرة. فلا أحد يدري متى وبأيّة تهمة سينزل عليه سخط
الوطن.

سألني فجأة:

- أتدري لماذا طلبت منك الحضور اليوم؟

وقبل أن أجيب واصل:

- لأنني خفت أن أموت، دون أن أعيش هذه اللحظة:

قاطعه بشيء من العتاب:

- ما هذا الذي تقوله؟ نحن لسنا هنا لتحدث عن الموت.

ردّ بسخرية:

- طبعاً، نحن هنا لنلعب معه، لنتحايل عليه. ولكنه موجود في

جدول تفكيرنا اليائس. المتعة أيضاً.. كما عشناها منذ قليل، بتلك

الشراسة وبذلك العنف، وكأننا على أهبة اقتراس جسدي متبادل،

ليست سوى حالة تطبيع مع الموت لا أكثر. في زمن النهايات المبالغية،

والموت الاستعجالي، والحروب البشعة الصغيرة التي لا اسم لها،

والتي قد تموت فيها دون أن تكون معنيًا بها، الجنس هو كل ما نملك
لننسى أنفسنا.

- والكتابة؟

- الكتابة؟ إنها وهمنا الكبير بأن الآخرين لن ينسونا!

- اتقول لي هذا لتجعلني أعدل عنها؟

- بل لأجلك تعيلين عن الحلم، والأوهام الكبيرة. هذا الذي مات،
صديقي الذي يوارونه في هذه اللحظة تحت التراب، الآن بتوقيت
صلاة العصر، يسلمونه للديدان، كان يؤمن أيضًا بجدوى الكتابة،
وبأن عموده اليومي ضروري لتغيير المجتمع، وأن القارئ لا يمكن أن
يبدأ صباحه دون تعليقاته الساخرة، ونكاته اللاذعة. الآن، لم يعد
بإمكانه أن يضحك أو يتحدث أحداً. لقد ضحك عليه الموت وتحذاه.
هو الذي كان يتوهم أنه يغير العالم كل يوم ببضعة أسطر. ها هي
الحياة تستمر بعده، والجريدة تواصل العدور دونه، والناس الذين
مات من أجلهم، سينسون مكانه في تلك الصفحة، حيث أقام لعبة
سنوات، ففي الصحافة كثير من تكران الجميل.

كلامه وضعني في حالة من الإحباط المفاجئ: أفقدني رغبتني في
الجدل، أو حتى في الحب.

«أكل هذا.. من أجل هذا؟»

كل هذه المجازفة، وهذه المخاطر، وهذا الترفُّب، وهذا التخيل، كي
أخلو برجل يحدثنني عن الموت؟

قلت:

- كان من الأفضل لو كنت كائنًا حبريًا، وبطلاً وممياً في قصة: هؤلاء على الأقل لا يُغتالون، ولا يموتون، ولا نخاف عليهم من شيء. لماذا جئت إذا كنت رجلاً حقيقياً؟

ردّ وهو يسحبني نحوه:

- جئت لاسرّب إليك الرّغبة. جئت لإمتاعك، وإمتاع نفسي بك. هؤلاء لا يمكنهم أن يفعلوا هذا.. اليس كذلك؟

وراحت شفتاه في تقبيلي من جديد، باللّفة نفسها، وكأنا التقينا توّاً، أو كأنّه انتبه فجأة لوجودي معه. برغم تلك الجئة الموجودة بيننا.

كان يحلولي أن أتابع تقلّبات مزاجه العشقي.

أحاول أن أفهم ما الذي أثاره فجأة من جديد، ليجتاحني بكلّ هذا النّهم الجسديّ.

أناّمه في انشغاله بي، لم يكن جسده هو ما كنت أحبّ. بقدر ما أحبّ كرم رجولته، وأخلاق جسده.

كان لجسده ذلك الحضور السّخيّ، الذي يعطي ويعطي كما هو الحبّ. كأنّه يعوّض عن نقصانه بالعطاء. ثمّ يأخذ ويأخذ كما هي اللّفة.

وكانت له تلك الرّجولة التي تحسن التواضع أمام الانوثة، وكأنّها مدينة لها بكلّ شيء.

فجأة ضمّني إليه وقال:

- سأعترف لك بشيء... لا تضحكي منه!

وقبل أن أجيب واصل:

- حدث أن غرت من زياد. تصوّري لم أغر من زوجك يوماً..
وغرت من كائن حبري. تقاسم معي بطولة ذلك الكتاب. مازلت أشعر
أنّه وجد حقاً في حياتك. وأنّه سبقني إلى جسدك.
اضحك.. أقول:

- أيّها المجنون.. هذا الرّجل لم يوجد أبداً. لقد أوجدته.. لأنني
أحبّ قصص الحبّ الثلاثيّة الأطراف. وأجد في قصص الحبّ
الثلاثيّة، كثيراً من البساطة والسّذاجة التي لا تليق برواية. ولذا كان
يلزمني رجل يعيش بمحاذاة تلك القصّة، قبل أن يصبح هو بطلها.
لأنّ هذا هو منطق الحبّ في الحياة، نحن نخطئ دائماً برقم.
- وبرغم هذا أحسده. كنت أريد لي قدرًا مطابقاً لقدره. حتّى
إنّني أحفظ أشعاره. مازلت أحلم بحبّ كبير.. بقضيّة كبرى، وبموت
جميل.

- ولكن انتهى زمن الموت الجميل. لم يعد بإمكان أحد الآن حتّى
في رواية، أن يموت في معركة كبيرة. لقد أفلست جميع قضايانا،
ولذا أحببت أن يموت زياد أثناء الاجتياح الإسرائيلي لبيروت. تصوّر،
هو الذي كان يحلم بالعودة إلى غزة. لو عاش، لدخل اليوم مباشرة
إلى سجونها. أو انتهى به الأمر شرطياً فيها، يقوم بسجن وتعذيب
فلسطينيين آخرين بتهمة المسّ بأمن إسرائيل. كم من الأوهام ماتت
معه. فبعده، لم يعد ثمة شيء اسمه فلسطين.. سعيدة أنا من أجل
الذين سيأتون بعدنا: لقد وفرنا عليهم أعماراً لن ينفقوها في أوهامنا.

يصلح من جلسته. يترك رأسي على كتفه، ويشعل سيجارة.
يياشر بتدخينها في بطة قائلًا:

- دعينا من فلسطين.. أجيبيني: هل أنت سعيدة معي؟

يفاجئني سؤاله. لا أدري كيف أردّ عليه أقول:

- حين نكون تغساء ندرك تعاستنا. ولكن عندما نكون سغداء، لا
نعني ذلك إلا في ما بعد. إنّ السعادة اكتشاف متأخر.
يردّ ساخرًا.

- أوجب أن انتظر الكتاب القادم، كي اعرف إن كنت سعيدة
معي؟
أردّ ضاحكة:

- طبعًا لا.. بإمكانني أن أجيبك الآن. ولكن في الواقع تعلّمت أن
أخاف السعادة. ما اكتشفتها مرة إلا وفقدتها.

يجيب:

- ولذا عليك أن تعيشيها كلحظة مهنّدة. أن تعني أن اللذة نهب،
والفرح نهب، والحب.. وكلّ الأشياء الجميلة، لا يمكن إلا أن تكون
مسروقة من الحياة، أو من الآخرين. فالمرء لا يبلغ المتعة إلا سارقًا.
في انتظار أن يأتي الموت، ويجرده من كلّ ما سطا عليه.
أقول:

- أنت تذكّرني بفيلم «حلقة الشعراء الذين اختفوا». أتذكر ذلك
المشهد الأول، عندما تطلق الطلّبة حول الأستاذ، ليتأمّلوا الصّور

المعلقة على جدران الصف، لطلبة سبقوهم منذ أجيال إلى ذلك
المعهد. عندما كان الاستاذ يرند «تأملوا هياتهم وشبابهم الذي يشبه
شبابكم اليوم. إنهم يقولون لكم.. استفيدوا من اليوم الحاضر.. لتكون
حياتكم مذهلة.. خارقة للعادة.. فذات يوم لن تكونوا شيئاً..»
يعلق نون اهتمام:

- أنا لم اشاهد هذا الفيلم.. ولكن اتوقع أن يكون المشهد جميلاً..
أسأله دهشة:

- أحقاً.. أنت لم تشاهد هذا الفيلم؟

يجيب متعجباً من نبرتي:

- أكان يجب أن أراه؟

ولا أجد شيئاً أبرز به اندهاشي امام هذا الاكتشاف سوى كلمات
مرتبكة:

- توقعت أن تكون قد شاهدته.. فقد حصل على عدة جوائز..

وأعود إلى صمتي. أستعيد قصتنا منذ البدء.. أحاول أن أفهم: إن
لم نكن قد التقينا في ذلك العرض، فمنذا الرجل الذي يا ترى جلس
إلى جواربي في ذلك اليوم.. بالعطر نفسه.. والصمت نفسه؟

كانت الأسئلة تذهب بي في كل صوب.. عندما قطع تفكيرني قائلاً
كمن يعتذر:

- حدثني عبد الحق عن هذا الفيلم. وعرض عليّ أثناء زيارتي إلى
قسطنطينة أن أرافقه إلى مشاهدته. كان يريد أن يكتب عنه مقالاً

للجريدة. ولكنني شغلت ذلك اليوم بأمور أخرى. فذهب لمشاهدته بمفرده. من المؤكد أنه لا يزال يعرض في قاعات بالعاصمة. سأحاول أن أحضره هنا، حتى يصبح بإمكانني أن أتحدث معكما عنه، بدل الاستماع إلى كل واحد منكما وهو يروي مشهداً من الفيلم.

ثم يواصل وهو يمرر يده على شعري:

- أيسعدك أن أراه؟

أجيبته وأنا أضغ قبلة على خدّه:

- حتماً.

بدا لي فجأة أنني أستعمل معه لغة «عبد الحق». فلم أضف شيئاً إلى ما قلته.

بعد قليل، كنت أغادره. كان هو يعود إلى حداده. وأنا أعود -
حتمًا - إلى أسئلتي!

* * *

ما كدت أخلو بنفسي ذلك المساء، حتى فتحت ذلك الدفتر الأسود. متصفحة قصتي مع ذلك الرجل، كما كتبتها يوماً بعد آخر، على ذلك الدفتر.

رحت أستعيد بداياتها، أتوقف عند منعطفاتها، عساني أفهم، كيف ولدت هذه القصة. ومن أين جاعني هذا الرجل؟
كيف تمكن خلال ثمانية أشهر، أن يتهرّب من كل أسئلتي، وينجو

من كلِّ مقالبي، ويعيش داخل هذا الدفتر، متنكراً في رجل آخر، ثم يفاجئني بالحقيقة عندما يشاء هو.

ولكن أية حقيقة؟ ألك التي باح لي بها؟ أم الأخرى التي لا يعرفها هو نفسه، والتي أوصلني إليها دون أن يدري، مؤكداً كلاماً سابقاً له: «ليس ثمة من حقيقة واحدة. الحقيقة ليست نقطة ثابتة. إنها تتغير فينا وتتغير معنا. ولذا، لم يكن ممكناً لي أن أدلك إلا على ما ليس الحقيقة».

حبه أيضاً أصبح وسط التساؤلات، حقيقة متحركة. في الواقع، كان لنا زمن سرّي وذاكرة مشتركة، لشيء شبيه بالحب، عشنا معاً، حتى قبل أن نلتقي.

هو قال «أجمل حب هو الذي يأتيك اثناء بحثك عن شيء آخر» وأنا صدقته، ونسيت من انبهاري به عن أي شيء بالتحديد كنت أبحث، يوم صادفته.

ها هوذا اليوم، في دوره الأخير، يصبح قارئ.

فكيف يمكن لقارئ أن يفعل بكاتب كل هذا؟

يربكني تدخل البعد اللاعقلاني في السلوكات والقرارات الإنسانية. وتذهلني الحياة السرية للمشاعر.

أذكر أنني، قرأت يوماً بحثاً نفسياً، يقول إن وقوعنا في الحب، لا علاقة له بمن نحب. وإنما لتصادف مرورنا في حياتنا بفترة نكون فيها دون مناعة عاطفية، لأننا خارجون توتاً من وعكة عشقية. «فلنلتقط حباً» كما نلتقط «رشحاً» بين فصلين!

واستنتجت يومها أنَّ الحبَّ عارض مرضيَّ.

ثمَّ قرأت بعد ذلك مقالاً طبياً عن «كيمياء الحبِّ» جاء فيه أنَّنا نرتكب أكبر حماقاتنا في الصيف لأنَّ الشمسَ تغيِّر مزاجنا. ولها تأثيرات غريبة في تصرفاتنا: فاشمعتُها تخترق بشرتنا وكرياتنا الدموية.. فتعبت بجهازنا العصبي، وتحولنا أناساً غريبين بإمكانهم فعل أيِّ شيء..

وقلت.. الحبُّ إذن حالة موسمية.

وقرأت أيضاً... أنَّ الكتابة تغيِّر علاقتنا مع الأشياء، وتجعلنا نرتكب خطايا، دون شعور بالذنب. لأنَّ تداخل الحياة والادب يجعلك تتوهم أحياناً أنَّك تواصل في الحياة، نصّاً بدأت كتابته في كتاب. وأنَّ شهوة الكتابة ولعبتها تغريك بأن تعيش الأشياء، لا لمتعها وإنما لمتعة كتابتها.

واستنتجت أنَّ مشكلة الكاتب أنَّه لا يقاوم أحياناً شهوة الخروج عن النصِّ، والتورط الأدبيِّ مع الحياة، حتَّى في سرير. وهكذا بعد شيء من التفكير، توصَّلت إلى كون ما حدث لي لا علاقة له بالمنطق. وإنما بتصادف عدَّة شروط لامنطقية.

فقد دخل هذا الرَّجل حياتي ذات صيف، مستفيداً من فقداني لأيَّة مناعة عاطفية، وانشغالي بين فصلين، بكتابة قصة حبٍّ وهمية. وحبّه ليس إلا تصادف اجتماع عدَّة ظروف استثنائية.

في الواقع، من كثرة ما قرأت، اكتشفت أنَّ مصيبتني هي فيكوني لست أمية. فكُم من الأشياء قد تحدث لنا بسبب ما نقرا..

ذلك أنَّ ثمة قراءات تفعل بنا فعل الكتابة، وتوصلنا إلى حيث لا نتوقع.

وأذكر مقابلة صحافية للكاتب الأرجنتيني بورخيس سألته فيها الصحافي «ماذا كنت تعني عندما سئلت مرة عن حياتك فقلت «حدثت لي أشياء قليلة.. ولكنني قرأت كثيراً»، فأجاب «كنت أقصد لأنني قرأت كثيراً.. حدثت لي أشياء كثيرة».

وأنا التي كنت أحلم بكتابة كتاب واحد، يمكنني بعده أن أموت «كاتباً»، كتاب يتدخل في حياة القارئ، حدّ منعه من النوم، وجعله يعيد النظر في حياته، ها أنا وقُفْتُ على الأقل، مع قارئ واحد. من اندهاشه بكتاب، تطابق مع بطلتي حدّ إدهاشي، وقلب حياته وحياتي.. رأساً على عقب!

وهكذا أصبحت خلاصتي في النهاية، أنَّ على الكاتب أن يفكر كثيراً قبل أن يكتب قصة.

ففي أية لحظة، قد تأخذ الحياة قصته مأخذ الجدّ، وتعاقبه بها، أو تعاقب ذلك المسكين الذي وقع تحت سطوة الكلمات، ولم يعد يدري وهو يقرأها، أين يقع الخطّ الفاصل بين الوهم والحياة.

عندما كتب غوته كتابه «الام فرتر»، ليصور فيه قصة حبّ يانس، أصبح الوف من شباب أوروبا يرتدون ثياباً مثل بطله فرتر، ويتصرفون مثله في المجالس. ويحملون تحت إبطهم مثلما كان يفعل، ديوان هوميروس. وكثير منهم أقدموا على الانتحار مثله، حتّى وجّه إليه النقد اللوم لأنّه زَيّن لهم الانتحار.

والواقع أنَّ غوته لم يَزِنَ لهم الموت، بل زَيْنَ لهم الحياة بين دفتي كتاب. في تلك المساحة المخصصة للحلم والوجاهة، والتي اسمها «الادب».

وإذا كان من المعقول أن تحبَّ كاتبًا، حتَّى تتوهم أنَّك بطل من أبطاله، فأين العجب في أن يحبَّ كاتب بطلاً من أبطاله، حتَّى يتوهم بدوره، أنَّه موجود في الحياة، وأنَّه حتمًا سيلتقي به يومًا في مقهى.. ويتبادلان كثيرًا من الأخبار، والذكريات!

* * *

عودة أمي. أعادت إلى حياتي وجهها الطبيعي، وأخرجني لوقت من أسطنتي الدائمة. فقد جاءت ومعها أخبار عن عرس. أتوقع أن تحدثني عنه كثيرًا في المستقبل. فهي تؤكد أنَّ شروط الانفجار جاهزة بين الزوجتين. الأولى والجديدة.

أتسلَّى بالاستماع إليها، وأنا أعرف مسبقًا المنحى الذي سيأخذه حديثها. فهي على يقين ثابت من أنَّ ضررتي هي سبب عقمي، وبعض ما حلَّ بي، وهو ما لا أصدق.

طبعًا، لم يكن سهلاً أن اتقبل فكرة مقاسمة رجل مع امرأة أخرى. بل كان بإمكانني أن أشتراط طلاقه منها. فقد كان يريدني وقتها، إلى درجة الرضوخ لكلِّ مطالبتي. ولكنني كنت أشفق على تلك المرأة، التي تكبرني بخمس عشرة سنة، والتي شاركت زوجي عشرين سنة من حياته. وأعطته ثلاثة أولاد قبل أن يصبح ضابطًا.

على قدر من الأهمية، بحيث كان لابدّ له ككلّ المسؤولين من حوله، أن يعيد النّظر في حياته الزوجيّة.

أعتقد، أنّ استسلامها منذ البدء للأمر الواقع، هو الذي جرّدني من أسلحتي. لا أعتقد أنّها كانت من الطّيبة إلى درجة التّحمّس لهذا الزواج. ولكنّها لم تكن شريرة، ولا حاولت يوماً أن تكيد لي.

ثمّ مع الوقت ولد بيننا شيء من التّواطؤ النّسائي الصّامت، بعد أن أدركت كلّ واحدة منّا، أنّها لا يمكن أن تلغي الأخرى، أو تنفرد بامتلاك ذلك الرّجل.

كثيراً ما سألت نفسي إن كنت أغار من هذه المرأة، التي من الأرجح أن يكون زوجي الآن في بيتها، يقاسمها سريراً، لا يشغله إلاّ نادراً، وغالباً أثناء غيابي.

والدهش أنّ الجواب يأتي دائماً بالنّفي. وبرغم ذلك لم يتقبّل جسدي تماماً فكرة وجودها. بل إنّّه لم يتقبّل هذا، منذ اللّيلة الأولى.

وأذكر أنّه طوال ليلة زفافي، لم تفارقني فكرة وجودها، ولا مشهد حضورها الصّامت، في تلك السّهرة مراعاةً لزوجي، الذي كان يريد أن يثبت للحضور مباركتها لهذا الزّواج.

ربّما لذلك السّبب، صنع جسدي يومها، حاجزاً لم يستطع زوجي تخطّيه، رغم ما أوتي من إمكانيّات فحوليّة.

ورغم اشتغائي له، شيء كان لا يطاوعني، ويرفض الاستسلام له. خاصّة أنّ مقاطعة ناصر لكلّ احتفالات الزّواج، قد وضعتني في حالة نفسيّة سيّئة.

تراودني كل هذه الأفكار، وأمّي تنقل لي «وقائع» هذا الزفاف الذي لم تسفر ليلته عن نتائج ترضي كبرياء العريس الممتلئ فحولة ذكورية، وهو ما جعل النساء كعابتهنّ يجتهدن في تفسير الأمر.

أما الخبر الأهم، فكان بالنسبة إليّ شعور أمّي المفاجئ بالضجر، ورغبتها في العودة إلى قسطنطينة في أقرب وقت.

خبر تلقّيته بمذاق سابق للحزن، اسرعت بإخفائه عنها.

فقد تعلّمت أن أخفي عنها حزني وفرحي، حتّى لا أجد نفسي مجبرة على شرح الأول، أو على تبرير الأخير. فلم تكن لنا يوماً المقاييس نفسها للسعادة.

السعادة، ذلك العصفور المعلق دوماً على شجرة الترقّب، أو على شجرة الذكرى. ها هو على وشك أن يفلت منّي الآن أيضاً. ولأنّني أدركت ذلك، بدأت أعيش ذلك الحبّ، بشراسة الفقدان.

كالذين يعيشون عمراً مهدداً، علّمني الموت من حولي أن أعيش خوف اللحظة الهاربة، أن أحبّ هذا الرجل كلّ لحظة.. وكأنّني سالفقده في أيّة لحظة، أن اشتيه، وكأنّه سيكون لغيري، أن أنتظره.. دون أن أصدّق أنّه سيأتي. ثمّ يأتي.. وكأنّه لن يعود، أن أبحث لنا عن فرحة أكثر شساعة من موعد، عن فراق، أجعل من أن يكون وداعاً.

غير أنّه كان يبدو فجأة غير مبالٍ بمداومة الحياة لنا، بل إنّّه كان يملك من ترف الوقت، ما جعله يصرّ على أن لا يكون موعدنا الأخير في بيته، وإنّما في مطعم بحريّ على بعد نصف ساعة سيراً على الأقدام من بيتي.

وعبثًا حاولت إقناعه بأننا قد لا نلتقي قبل زمن طويل، وأن هذا المكان لا يصلح لوداع، ولا لموعد أخير. ولكنه كان يجيب: «سيكون لنا هناك موعد أجمل».

* * *

التقينا.

في مقهى ارتجله الحب لنا، كان هنا. هو والبحر.. وطاولة صيف مسائية..

هو وأنا.. وتنهّدت الأمواج بيننا.

قلت عاتبة:

- كان بإمكاننا أن نلتقي عندك. لماذا أصررت على تبذير ثروة الحلم أمامي؟

أجاب دون أن يتوقّف عن التدخين:

- تبذير الحياة.. هو أيضًا جزء من الحياة.

- ولكنني أريدك.. وقد لا نلتقي قبل زمن طويل.

وضع بيننا كعادته منفضة الصّمت. وأعقاب جمل لم تكتمل ثم قال:

- لفرط ما أردتك أفهم معنى أن تريدني. ولكن لا بد أن نتعود الحرمان، حتّى عندما نكون معًا.

- ولكن لماذا؟

- لَأَنْ قَدَرْنَا أَنْ لَا نَكُونَ مَعًا دَائِمًا.

- لماذا أهديت إليّ إذن كُلَّ تلك المتعة.. إذا كنت تعدّني لكلّ هذا الألم؟

- أنا أعدّك لمتعة أجمل. قبلك لم يكن الحرمان جميلاً. لأنّه لكي يكون كذلك، لابدّ أن نريده، أن يكون تواطؤاً سرّياً بين اثنين. وقتها فقط يغيّر اسمه، تصبح له تسمية أجمل.

يسألني بعد شيء من الصمت:

- أتعرفين ما اسمه؟

أقول دون تفكير:

- لا

يجيب:

- يصبح اسمه الوفاء!

تترك الحروف خلفها ذيلًا من الدخان الذي يفتّته بكسل نحوي.

أجيب:

- أنا أفهم تمامًا ما تقول. ولكن، ألا تعتقد أنّك تزايد على القدر،

وتعاقبنا أكثر ممّا عاقبتنا الحياة؟

يردّ:

- ما أعتقدّه هو أنّك كنت دائماً الطفلة المدلّلة للحبّ. أتوقّع أن

يكون قد منحك دائماً ما أردته دون جهد. ثمة أناس لهم تلك القدرة الخرافية على المشي فوق قلوب الآخرين، دون شعور بالذنب.

أتمتم:

٩ - لهذا:

يقاطعني:

- لا.. ليس لهذا أعاقبك اليوم بالحرمان. والأأ أكون أعاقب نفسي بك. ولكن جميل أن يروّضك رجل، لم يفهم قبلك في الخيول..

وقبل أن انطق يقول:

- أندرين.. مع الخيول الوحشيّة، الأصعب دائماً هو لحظة الاقتراب منها. أمّا ترويضها بعد ذلك فهو قضية وقت. ولهذا أوجد رعاة البقر لعبة الروديو، التي يتنافسون فيها على عدد الدقائق التي يبقون فيها على ظهر حصان وحشي، قبل أن يرمي بهم أرضاً، لتتهشّم عظامهم عند أقدامه. ففي دقائق قد يربحون حصاناً، كما أنّهم قد يخسرون حياتهم في دقائق!

ثمّ واصل وهو ينفّض سخانه بيّطه في المتفضّة، دون أن تغادرني نظراته:

ولذا عكس ما تتوقّعين، لم أربحك في موعدنا الأخير، وإنّما في موعدنا الأوّل. في تلك الدقائق القليلة التي سألتك فيها في مقهى «الموعد»، إذا كنت تسمحين لي بالجلوس. وكنت على وشك أن تقولي «لا». ولكنك قلت «طبعاً». ولم أكن أملك بعد ذلك سوى حبل الكلمات لأطوّقك به، وأوقف جموحك الفطريّ. يومها فقط.. جرّيت رعب الاقتراب من فرس.

- ثمّ ٩.

- تم ها نحن معاً، أمام امتحاننا الأصعب. عكس موعدنا الأول،
لسنا نحن الذين نختبر بعضنا بعضاً اليوم، أو نقيس استعدادنا
للمُمود في وجه الحب، أو قدرتنا على الإيقاع بغيرنا. إنما الحياة
هي التي تختبرنا معاً، وتختبر الحب بنا. ولكي نتجح علينا أحياناً أن
نتساوى بالعشاق المفلسين، أن نتخلّى عن ترف تملّكنا لمفاتيح شقة.
ونعيد للحبّ جماليته.. واستحالته الأولى.

- جميل ما تقوله.. لولا أنك تجرّب فينا نظريات في الحب، لا
يمكن أن تطبق على واقعنا. أنت تنسى وضعي الاجتماعي.. وتنسى
أنّني موجودة معك هنا خلصة.. ومجازفة.

- لم انس هذا. ولكن أنت نفسك قلت إنّك لا تعيشين حبّاً بخجل،
وإنّك تكرهين العلاقات المستترة التي تعيش في ظلّ الشوارع
الخلفية. فامنحي حبّاً شرعيّة الضوء، وشيئاً من الكرامة التي
تخرجنا من صنف السراقين.

- وماذا لو رانا أحد معاً؟ كيف أَدافع عن تهمة معرفتي بك.. أو
وجودي معك هنا؟
يقاطعني:

- تدافعين عن هذه التهمة؟ أية تهمة؟ وأمام من؟ أمام زوجك؟ وهو
أحد المتهمين في هذا البلد الذي أعجب له الأكثر، أن يكون الحب هو
الفعل الذي يحرص الناس على إخفائه الأكثر، والتهمة التي يتبرأون
منها بإصرار. ما عدا هذا.. فبإمكانك أن تكون مجرماً وسارقاً
وكاذباً وخائناً وناهباً لأموال الوطن.. وتقرّد ما سطوت عليه أمام

النَّاسَ دونَ خجلٍ، وتواصل حياتك بينهم محترماً. اليس هذا الأمر
مدهشاً؟

يضيف متذمراً:

بين الذين أهدروا ماضيها، والذين يصرون على إهدار مستقبلها،
بين الذين أفرغوا أرصدتها، وأولئك الذين سطوا على أحلامها، نظلّ
نحن أثرياء الحبِّ أشرف من غيرنا.

يواصل وهو ينفخ سيجارته بشيء من العصبية:

- مذ شلّت ذراعي، تعلّمت شيئاً: الأجدر أن يُعرّف الإنسان بما
فقد، وليس بما يملك. فنحن دائماً نتيجة ما فقدناه. ولكن لا أحد
يسألك عن الذي فقدته؛ هم يسألونك فقط عما تملك وانتِ نفسك، لم
تسأليني يوماً كيف فقدت ذراعي، ومتى شلّت... وكيف؟ ألا يعنيك أن
تعرفني هذا؟

أقول معتذرة، وقد باغتني بسؤال لم أجزو على طرحه:

- توقّعت أن يكون في الأمر إزعاج لك.

يقول بسخريّة المرارة:

- ولم يخجلني أمر لست فاعله؟ اتعرفين قصّة بيكاسو، عندما
رسم لوحته الشهيرة «غرنيكا»، مصوراً فيها خراب تلك المدينة على
أيدي الفاشيين. فجاء منهم من يسأله «أنت الذي فعلت هذا؟» فردّ
عليهم بجوابه الشهير «لا.. بل أنتم». لو سألتني لأجبتك مثله: «لست
أنا.. بل هم».

لم أفهم من كان يقصد بالتحذيد. سألته:

- ومتى حدث هذا؟..

أجاب وهو يسحب سيجارة جديدة، ويشعلها ببطء من يشعل فتيلة الذكريات:

- حدث ذلك أثناء أحداث أكتوبر 1988. كنت وقتها أعمل مصورًا صحافيًا. فذهبت لألتقط صورًا لتلك التظاهرات التي اجتاحت فيها الحشود الشوارع دون سابق قرار. وكان شيئًا مذهلاً ذلك الذي شاهدته: سيارات مسرعة.. وجوه مرعبة وأخرى مرعوبة، رصاص طائش وصدور تتلقى قدرها بغثة. مدينة تحكمها الديابات. كل شيء قائم فيها قد أصبح أرضًا، حتى أعمدة الكهرباء.

كان العسكر يضعون حاجزًا بشريًا أمام آلاف الشبان الذين راحوا يكسرون في طريقهم كل شيء يرمز إلى الدولة، ويوجهون رصاصهم تارة في الهواء، وتارة وسط الناس لإخافتهم دون جدوى. بينما احتل جنود سطوح المباني الرسمية. أذكر أنني حاولت أن ألتقط صورة لعسكري، وهو يقف على مبنى مقر الحزب، مرجها رشاشه نحو الشارع، وخلفه علم الجزائر. عندما انطلق رصاص من ذلك المبنى، واخترق زراعي اليسرى. ولم أدر إن كان العسكري قد اشتبه في أمري عندما رفعت آلة تصويري، وتوقع أنني أرفع سلاحًا، أم أنني تلقيت رصاصًا طائشًا كان موجهاً إلى أي شخص.

ثم واصل بنبرة غائبة:

تصوري، تلك اللحظة التي نزلت كي أصورها، وتختزنها آلة

تصويري اختزنها جسدي إلى الأبد. وأصبحت ذاكرة جسد،
اتقاسمها مع منات الجرحى والقتلى الذين سقطوا في تلك الأحداث.

مرة أخرى، فاجأني هذا الرجل بقصة لم يكن مقرراً أن يقصّها
عليّ اليوم بالذات. في هذا المكان، وهذا الخُرف بالذات.

وكعادته، أجابني عن السؤال، الذي عدلت عن طرحه، لفرط ما
طاردتني علامات استفهامه.

تأملته، وهو يفكّ آخر زرّ في هذا المعطف الكثير الأزرار. ويحلّ
آخر لغز في تلك الفوازير التي شغلتنني عدّة أشهر. وكأنّه بلغ حالة
تعب من المراوغة، وقرّر أن يهدي إليّ أخيراً.. الحقيقة.

بدا لي في عنفوانه، أجمل من وهمي به.

قلت:

- اتدري.. أنّ الحقيقة تزيدك إغراء!

أجاب:

- تمنيت أن تزيدني احتراماً. فلا اعتقد أنّ بإمكاننا أن نحبّ أو
نشتهي شخصاً فقد احترامنا. ولذا حرصت أن لا أصغر في عينيك
بسبب عاهتي.. والأجمل أن أكبر في عينيك بها.

قلت:

- لم التق قبلك برجل ثمل كبرياء إلى هذا الحدّ..

أجاب:

هل افهم انك تحبينني؟

كدت اقول «طبعاً» ولكنني قلت:

- حتماً..

واصل:

- اتاذنين لي بأن أسألك إن كنت تحبين زوجك؟

أجبت:

- حدث أن أحبيته.

- وهل انت سعيدة معه؟

- لا ادري.. أحياناً أكتشف تعاستي.. ثم أعود فأنسى.

- ولماذا بقيت معه إذن؟

- لأنه زوجي.. لأنني وحيدة.. ولأنني متعبة ولا قدرة لي على

اتخاذ أي قرار.

- ولكنك حرة في تغيير مجرى حياتك والانفصال عنه.

- أظنه أندريه جيد الذي قال «من السهل أن تعرف كيف تتحرر

ولكن من الصعب أن تكون حراً». قد انجح في أن اتحرر من هذا

الرجل. رغم أنني لا اتوقع أن يكون هذا امراً سهلاً. ولكن الأصعب

سأكون حرة بعدده. فحياة امرأة مطلقة في بلد كهذا، هي عبودية

أكبر. إنها تتحرر من رجل، كي يصبح كل الناس أوصياء عليها.

أصمتُ فجأة ثم أسأله:

- لو انفصلت عنه.. فهل تنزويني؟

يجيب بنبرة المفاجأة:

- أتزوجك؟ أنت تمزحين؟

- الا يسعدك ان اكون امرأتك؟

- طبعاً.. ولكن...

- ولكن ماذا؟

- انا لا املك شيئاً يا سيّدي. لا شيء مما تعودته في نمط حياتك. كل ثروتي في بيت للإمام الشافعي:

« غني بلا مالٍ عن الناس كلّهم وليس الفنى إلا عن الشيء لا به»

- كل هذا لا يعنيني.. تلك الشقة التي تسكنها تكفيننا لنكون سعيدين معاً.. أنا أحبها.

- ولكن حتى تلك الشقة ليست لي، انا اقيم فيها مؤقتاً فقط.

- ولن هي إذن؟

- إنها لعبد الحق.. ذلك الصديق الذي حنّك عنه. تركها بعد ان وصلته تهديدات بالقتل. فذهب ليعيش لمدة في قسنطينة، حيث مازال اهل يقيمون. وقد يعود إليها عندما تتحسن الأوضاع.

- وكل ما في البيت له؟

- طبعاً.

- وتلك المكتبة أيضاً؟

- أيضاً.

- وكتاب هنري ميشو الذي استعمرته منك.. هل هو له؟

- هو أيضاً له..

تفاجئته أسئلتني التي تبدو له غريبة. بينما أصاب أنا بصاعقة
الذهول. وأدخل في حالة صمت لا يجد لها تفسيراً.

سألني مازحاً:

- ما الذي يزعجك الأكثر، أن يكون ذلك البيت له؟ أم أن يكون
ذلك الكتاب له؟

أجبتُه بابتسامة غائبة:

- لا شيء يزعجني من كل هذا.. ولكنك فاجأتني..

- وأنت أيضاً فاجأتني. هذه أول مرة تطلب فيها امرأة يدي. قبلك
طلب العسكر يدي اليسرى وأخذوها في أحداث 88 مع آلة التصوير.
أما اليمنى فما كدت أتحوّل إلى الصحافة المكتوبة حتى أصبح
الإسلاميون يطالبون بها! تصوّري: أنا رجل مزعج، اتفق الفريقان
على قطع يديه. وعليك أن تقرّري بسرعة إن كنت تريدني حقاً. قد
يأتي زمن لن يتمكّن فيه أحد في هذا البلد من طلب يد صحافي
للزواج!

أضحك لهذه «النكتة» ولهذه الرّوح الساخرة التي يخفي بها دائماً
حزنه. ولكنه لا يشاركني الضحك.

أسأله:

- أنت قلّما تضحك.. لماذا؟

- علّمتني الحياة أن أبتسم عشر مرّات قبل أن اضحك.. وأن أعيد صياغة كلماتي عشر مرّات قبل أن أنطق بها، ولهذا اخترت في الماضي مهنة التصوير. الصّورة لحظة صمت طويل.. إنّها كالرّسم، تجربة في الصّمت.

- وماذا علّمتك الحياة أيضاً؟

- علّمتني الصّبر. أنا رجل من برج الصّبر. وهذا آخر ما أريد أن أعلمك إيّاه.

يضع يده في جيبه، ويخرجُ حاملةَ مفاتيحٍ جلدية يضعها على الطاولة، ويواصل:

- بيننا وبين المتعة مفتاح لا أكثر. ولكنني أرفض أن يتحكّم هذا المفتاح فينا وإلاّ فسيكون في هذا إهانة للحبّ. أنا لا أقلّ عنك اللّحظة رغبة ولا اشتهاً بل إنّني أحوج منك إلى الحبّ، من حاجتك أنت إلى هذا الحبّ، وهذه المتعة ذاتها. ولكن عندما نبليغ ذلك القدر الخيف من اللّذة، كلّ متعة لا تزيدنا إلّا جوعاً. وعلينا الآن أن نجرب لذة الامتناع، لتتصالح مع أجسادنا، لنعرف كيف نعيش داخلها عندما لا نكون معاً.. ولنكتشف جماليّة الوفاء عن حرمان.

أقاطعه:

- لا أفهم، لماذا أغريتني بالخيانة، إذا كنت ستطالبني بالوفاء..

عن جوع!

يردّ ساخراً:

- أنت تسينين فهمي مرة أخرى. أنا لم أطالبك بشيء. أعددتك للإخلاص، دون أن أطلبك بأن تكوني مخلصاً لي..

- تمنيت أن تقول غير هذا. كان يسعدني أن تطلب مني ذلك..

- ولكن الإخلاص لا يُطلب: إن في طلبه استجداءً ومهانة للحب. فإن لم يكن حالة عفوية، فهو ليس أكثر من تحايل دائم على شهوة الخيانة، وقمع لها. أي أنه خيانة من نوع آخر. وإذا أجد في تسمية الخيانة بالمغامرة قلباً للحقيقة. إن المغامرة الحقيقية هي الوفاء... لأنها الأصعب حقاً.

- لماذا الأشياء معك معقدة دائماً إلى هذا الحد؟ أريد منك كلمات بسيطة. كتلك التي يقولها العشاق وهم على وشك غياب. كلمات جميلة في بساطتها. موجزة، مريكة، ممتعة، موجعة. كلمات تذهلنا، تخترقنا ولا تغادرنا، لكنك لا تقول شيئاً من كل هذا.

- لا أريد لنا حباً يقتات بالكلمات، حتى لا يقتله عند البعد صمتنا. نريد كلمات قراتها في الكتب، وشاهدتها في الأفلام، ولكن أجمل مما قراته وما شاهدته قصتنا.
توقف لحظة، ثم أضاف:

عندما قرأت كتابك منذ ثلاث سنوات، تسالحت كيف يمكن لقصتي أن تبدأ حيث انتهت قصة خالد، في السنة والأحداث نفسها؟ تراني فقدت ذراعي فقط لأمنح الحياة ترف مطابقها لرواية، أم لأمنح الأدب وهو مواصلة قصة في الحياة؟ أدركت الجواب عندما التقينا. لقد توأما الأدب والحياة، ليهديا إلينا قصة الحب التي هي من الجمال

بحيث لم يحلم بها قارئ وكاتبة قبل اليوم. أنت نفسك كزواينة تجاوزتك قصتنا لأنها أغرب من أن تجرؤي على تصورها في كتاب. أجيب:

- اعترف بأنني ما كنت تصورت أمراً كهذا. برغم كوني حلمت دائماً بقارئ يأتي ليقتاصصني بكتاباتي. جميل كل ما يمكن أن يحدث لنا بسبب كتاب. يمكن أن نكرم، يمكن أن نسجن، يمكن أن نُغتال، يمكن أن نُحب، يمكن أن نُكره.. يمكن أن نُقدس، يمكن أن نُثني. فلا يمكن أن نخرج بحكم البراءة من كتاب. البراءة في هذه الحالات، ليست سوى شبهة أن لا نكون في الواقع كتاباً. العجيب في قصتنا أن الحياة هي التي قرأتني وعاقبتني بتحويل ما كتبته إلى حياة. ربما لأنني كنت كاتبة بنزعات إجرامية، تجلس كل مساء إلى مكتبها، ودون شعور بالذنب، تقتل رجالاً لا وقت لها لحبهم، وآخرين خطأ أحبهم، تصنع لهم أضربة فاشرة في كتاب، وتذهب للنوم. أصمت. ثم أوصل بنبرة غائبة:

كيف كان لي أن أعرف أننا في كل ما نكتبه نكتب قدرنا؟ لشدة ما نأتي الحياة متنگرة في بساطة كتاب، في أي يوم، أمام أي نصر، قد يكتشف أحدها أن صفحة من كتاباته قد وقعت في قبضة الحياة.. وأصبحت هي حياته.

يتوقف فجأة عن التدخين ويسألني متهمكاً لفرط حزنه:

- هل لي أن أعرف إن كنت تنوين قتلي؟

أرد ما زحة:

- طبعًا لا. انت بالذات ساستميت في الإبقاء عليك حيًا.

وأواصل كما لتأكيد قولي:

- ثم إنَّ خالد لا يموت في تلك الرواية.

يقاطعني:

- أدري.. يموت زياد. ولكن لا أرى حولي أحدًا. أصدقائي جميعهم قُتلوا.. لقد حان دوري، اليس كذلك؟ أي رقم سيكون رقمي في قائمة الاغتيالات حسب رأيك؟

لا أدري إن كان يحدثني حقًا عن لعبة الكتابة، أم أنَّ هاجسه الحقيقي كان الحياة، أو على الأصحَّ الموت الفعلي فيها مغتالاً ككلِّ رفاقه.

وقبل أن أجيبه يضيف:

- حياة.. أجلي موتي قليلاً. ولكن أحببني وكأنتي ساموت. لقد وقعت على اكتشاف عشقي مخيف. لا يمكنك أن تحبِّي أي شخص حقًا، حتَّى يسكنك شعور عميق بأنَّ الموت سيباغتك، ويسرقه منك. كلَّ الذين تلتقن بهم كلَّ يوم، ستففرين لهم أشياء كثيرة، لو تذكَّرت أنَّهم لن يكونوا هنا يومًا، حتَّى للقيام بتلك الأشياء الصغيرة التي تزعجك الآن وتغضبك. ستحتفين بهم أكثر، لو فكَّرت كلَّ مرة، أنَّ تلك الجلسة قد لا تتكرَّر، وأنَّك تودَّعينهم مع كلِّ لقاء. لو فكَّر النَّاس جميعًا هكذا لأحبَّوا بعضهم بعضًا بطريقة أجمل.

أسأله:

- وهل تفكَّر فيَّ بهذه الطريقة نفسها؟

يردُّ ضاحكًا من ذعري:

- معك.. أوجدت فلسفة أجمل. أنا أعمل لدنياي كأنني سأراك
غداً. وأعمل لآخرتي وكأننا سنموت معاً! ولذا أنا أستعدُّ كلَّ يوم
للقاتك هنا.. أو هناك، بالتألق والشوق نفسه.
انتم:

- أخاف إحساسك هذا. أشعر وأنا أستمع إليك بأنَّ حبنا
استغفال للحياة، وإنَّه لم يبقَ لنا من الوقت سوى قبلتين وضمة.
- بل لنا متسع من العمر. وسأنتظرك في الحياة.. وفي الكتب. إنَّ
لحظة حبٍّ تبرَّرَ عمراً كاملاً من الانتظار.. هل تعين هذا؟
- أحاول ذلك.. ولكن كلَّ شيءٍ ضدنا.

- الحبُّ ككلِّ القضايا الكبرى في الحياة، يجب أن تؤمني به
بعمق، بصدق، بإصرار، وعندها فقط تحدث المعجزة. انظري مثلاً
بوضياف: رجل في الثانية والسبعين من عمره. قضى نصف حياته
في مكافحة الاستعمار، والنصف الآخر منفياً من وطنه. رجلٌ نُفيَ
حتى من الذاكرة الوطنية، أُلغيَ حتى من الكتب المدرسية. ثمَّ جاء به
التاريخ، رئيساً بعد ثمانية وعشرين عاماً من المنفى. اليس هذا أمراً
مذهلاً.. ورائعاً؟ صدقيني إنَّها قضية وقت فقط..

- ولكنني أخاف الوقت.. إنَّه عدوُّ العشاق
- بل هو عدوُّ الثورات، الكبيرة منها.. وتلك الصغيرة المرتجلة.
جميعها يقتلها الوقت. وسننتظر موت الأوهام الثورية.

* * *

طبعاً.. الوقت عدو العشاق

ها هوذا يفرقنا.. ويتواري خيال رجل يعود إلى عتمته الأولى، مرتدياً سواده.

فاعود رفقة البحر مشياً على الأقدام. أمشي وتمشي الأسئلة معي. وكأنني انتقل علامات الاستفهام.

نيتشه كان يقول «إن أعظم الأفكار، هي تلك التي تأتيها ونحن نمشي» فأمشي.

ولكن كل فكرة يأتيك بها البحر، تذهب بها الموجة القادمة.

كنت اعتقد أن الرواية هي فن التحايل، تماماً كما أن الشعر هو فن الدهشة. ولم أفهم كيف أن هذا الرجل الذي لم يكن مهياً لدور الشاعر، ولا لدور الروائي، تمكن من إدهاشي، والتحايل على كل حواسي إلى حد جعلني أمة أمام الرجولة.

كيف دون أن يدري، كتب هذه القصّة على قياسي، في هذا الكتاب الذي غيّرنا فيه أكثر من مرة، أماكننا وأدوارنا، كيف أصبح ذلك الصديق الغائب فجأة، هو البطل الرئيسي.

فقد بدا واضحاً الآن أنه الرجل الذي جلس إلى جواربي عند مشاهدتي لذلك الفيلم، وأتني ما فتئت أعيش بمحاذاته منذ ذلك اليوم. أستمع عطره.. أطالع كتبه.. أستمع إلى موسيقاه، أجلس على أريكته.. اتحدث على هاتفه.. واقع في حبّ بيته!

لم أفهم، كيف بغباء مثالي وقعت في فخ كل الإشارات المزورة التي وضعها الحبّ في طريقي.

وإذا بي اثناء وهمي باكتشاف رجل، كنت أكتشف آخر.
لا أدري في أية محطة، أخطأت قطار الحب «الأول»، فأخذت
قاطرة أوصلتني إلى حب آخر.

كسائح شارد يأخذ الميترو لأول مرة، كمغامر يكتشف قارة دون
قصد. في لحظة شرود عاطفي، أخطأت وجهتي. وقبلني أخطأ
كولومبس، فاكشف أمريكا، ومات وهو يعتقد أنه اكتشف الهند.
يا للروائيين، كما البحارة هم يموتون دائماً في لحظة جهل!

قطعاً.. لم تصل.

أنت المسافر في كل قطار صوب الأسئلة، من قال إنك وصلت؟ من
قال إنك تدري أين هي ذاهبة بك الأجوبة؟ فدا الأجوبة عمية.. وحدها
الأسئلة ترى».

الوقت سفر..

مراكب محملة بالأوهام عادت، وأخرى بحمولة الحلم ذاهبة.
ضحك البحر لما رأيته أبحر على زفدق من دوق، وأرفع الكلمات
أشربة في وجه المنطق. عساني أعرف.. كيف كل هذا قد حصل.
الوقت مطر..

غيمة تغادر الهاتف. وتأتي كي تقيم في حقيبتني. وخلف نافذة
الخريف، مطر خفيف.. يطرق قلبي على مهل.
الوقت قدر..

يفلق البحر قميصه. يتفقد ليلاً أزارار الذكري. يفلقها أيضاً
بإمعان، حتى لا يتسرّب الملح إلى الكلمات.

ثم يرتدي صوته الأجل. يذير أرقام هاتف.. يسأل:

وتجيب امرأة:

- ألونعم!

الوقت ألم..

لماذا نحن نقول دائماً «نعم» عندما نردّ على الهاتف.. حتى عندما
يكون الوقت «لا»؟

الوقت «لا»..

في بهو الحزن الفاخر، تعلّمي الاحتفاء ليلاً بالآلم.. كضيف مفاجئ.

هو ألم فقط.. فلا تستعدي له كما لو كان دمك الأول.

متأخّر هذا البكاء، لحزن جاء سابقاً لأوانه، كوداع.

فالوقت وداع..

يقول الحب: ألو.. «نعم»

وتجيب الحياة: ألو.. «لا». والملح يتسرّب عبر خطّ الهاتف

يجتاحنا. بين استبداد الذاكرة، وحياء الوعود. تتابع الأشياء
رحلتها.. دوننا.

* * *

أغادر سيدي فرج فجراً، قبل أن يستيقظ البحر، ويستبقيني
بدمعة.

له كل ذلك الموج، ولي الملح، وطائرة تنتظر.

عندما جئت إلى هنا منذ أسبوعين، كان بودليير يرافقني بتلك
المقولة الجميلة، التي كانت تستبقه إلى كل سفر «الشهوة تناديني..
والحب يتوجني».

الآن، أترك عرش الحب خلفي. فالشرعية تناديني.. وقسنطينة
تنتظرنني. والحياة التي استغفلتها وخرجت على قانونها، تعيدني إلى
بيت الطاعة، متوجةً ببريق الذكريات.

أعود إلى قسنطينة، متحاشيةً النظرة إلى هذه المدينة.

كنت أتمنى لو أراها بعيون بورخيس عندما يرى بوينوس آيرس
بعينين فاقدتي البصر. عساني أحبها دون ذاكرة بصرية.

أحياناً يجب أن نفقد بصرنا، لنتعرف مدناً لم نعد لفطر رؤيتها
نراها.

هنا شوارع نخاف من عيون عابريها، مطاعم لا نجرؤ على
ارتيادها، بيوت لا يمكن أن ندخلها معاً.

هنا.. مدينة لا تعترف بالحب، إلا في أغاني «الفرقاني». لا تغادر
بيتها إلا لتذهب إلى المسجد، أو إلى مقهى. لا تفتح نافذة إلا لتطلّ
على مئذنة.

وأنا جئتُها بأعراض عشقية، وكلمات اسخيليوس في مواجهة
أثينا:

«يا سيّدتني.. تخلي قليلاً عن الآلهة. واعطيني شيئاً من شقائق
العظيم...».

وهل أكثر شقاءً من عاشق في قسنطينة؟

زوجي قابلني بلطف مثير للشبهات، أو ربّما أنا التي كنت أبالغ في تضخيم أخطائه. بل أترىص بهاء ليتمكنني فيّ ما بعد، المبالغة بعدم الشعور بالذنب تجاهه.

بدأ لي سعيداً بعودتي. أو ربّما كان سعيداً، لأسباب أخرى. فمذ جاء بوضياف، عاد شيء من الأمان إلى قلوب النّاس. وعادت الحياة الطبيعية إلى المدينة. ومعها تلك الحمى التي تسبق الصّيف دائماً، وتذهب بالعائلات أفواجاً إلى مروج عين الباي، وجبل الوحش.

وبدا النّاس يجروون أخيراً على القيام بمشاريع قريبة أو بعيدة الأمد، مراهنين على خروج البلاد من النّفق.

هذه الطمأنينة المبالغتة، جعلتني اتعلّم الاستكانة إلى الوقت والمكان، واثقة بكلام ذلك الرّجل.

تراني تعلّمت منه التفاؤل.. أم تعلّمت التريث؟ حتّى إنني كثيراً ما قاومت تلك الرّغبة التي تستيقظ داخلي، وتغريني بالتحريّ لمعرفة من يكون عبد الحقّ.

ما كان يريكني هو كوني حيث كنت، أو اصل العيش بمحاذاته مادمت حتّى هنا، أتناقش معه المدينة نفسها.

أحياناً.. كانت تذهب بي الأحلام، فأتصوّر مكاناً قد يجمعنا مصادفةً، قد لا يتعرّف إليّ، برغم أنّه قرّاني، بل كتبني طوال هذه

القصة، مادام هو الذي أهدى تلك الرواية لصديقه وأوصله دون أن يدري... إليّ.

وحده كتاب هنري ميشو قد يدلّه عليّ. لو أنا أخذته معي. أمّا أنا فستأخذني عليه بصمته، أو بتلك الكلمات القليلة التي كانت ميزته، والتي كعطره، سرّيتها لصديقه.

سأسأله:

– هل عرفتني؟

وسيحيب:

– طبعًا.

أو قد يحيب:

– حتمًا.

...الكلمتين الوحيدتين اللتين قالهما يوم جلس إلى جوارِي في قاعة السينما.

عندها سأعترف له:

– اشتقتك... أدري روعة أن نشأت إلى شخص لم نلتق به؟

كنت أحلم، أتصوّر لنا أكثر من بداية. وأتصوّر لي أكثر من طريقة للعثور عليه. ثمّ أعدل عن افكاري، وأنا أتذكّر أنّي أكرّر معه مغامرتي مع صديقه بكلّ حذافيرها.

هذه المرّة أيضًا، أنا أمام رجل لا أعرف اسمه. فعبد الحقّ ليس اسمًا عائليًا، ولا يكفي للعثور على صحافيّ، لا أدري في أيّة جريدة..

ولا بآية لغة يكتب، ولا بأي اسم يوقع مقالاته، في زمن أصبح فيه لكل صحافي اسمان.

في الواقع، كان يسعدني أن يكون هذا الرجل، لا أحد.
رجل لا اسم له بالتّحديد. لا أوصاف، لا صفات مميزة، ولا أوراق
ثبوتية.

فقد تعلّمت من تجربتي السابقة. أن في ما نجهله جمالية، تفوق
فرحتنا بمعرفة الحقيقة.

ولذا، قرّرت أن أترك موعدي مع عبد الحقّ للحياة، تتدبّره كما
تشاء. حتّى لا أفقد عنصر المفاجأة.. وحتّى لا أستعجل الخاتمة.
فعندما نعثر على الشيء الذي يبحثنا دائماً عنه، تكون بداية
النهاية.

أمّا السبب الأهمّ لعدولي عن البحث عنه، فهو كوني كنت أجد في
انشغالي الدائم، واللاشعوريّ به، شيئاً من الخيانة المستترة، لذلك
الرجل الذي قضى موعداً الأخير، في إقناعي بالإخلاص، وكأنّه كان
يستبق الأحداث، أو كأنّه كان يعرف عني في كتاب، ما يكفي ليحذر
نزعتي لحبّ صديقين في الوقت نفسه.

الهذا أعطاني من شراسة الحبّ وتقلّباته، كما لو كان أكثر من
رجل. وقال وهو يودّعني على الهاتف ذلك الاعتراف الذي ألمني: «لا
املك إلاّ الحبّ.. لأردّ عنك خطرته».

ما كدت أذكره، بذلك القدر من التفاصيل، حتّى عاودتني حالة من
الاشتواء له، حاولت أن أهرب منها إلى الكتابة. ولكن..

للبيد ذاكرة لاتنكف تطاردك بالسؤال عن جسد الفقدان. وأنا مازلت
لا أفهم، كيف أن جسده الذي لم يكن الأجمل.. أصبح الأشهى إلى
حدّ إرباك سكينتي، ومنمي لأيام من الكتابة.

* * *

مرّ شهران..

كنت خلالهما أكتفي بوجبات الاحلام، ورشقات حبر سريعة،
وأترك للآخرين ولائم الضجر.. وقهوة النيمة.

فمنذ الازل، كانت عقدة النار، كيف التوحد مع الماء. وأنا لم أتقن
يوماً، فنّ هدر الوقت والجلوس إلى النساء. كنت سيّدة الحزن، وكُنّ
خادمات لدى الفرح.

وأذكر الآن، تلك المقولة الجميلة «إنّ عظمة النار في كونها تحرق..
وتحترق». وأفهم لماذا، كنت منذ الازل، لا أجالس غير الرجال.

فمع النساء، لم أكن أحرق سوى أعصابي..!

وبرغم ذلك، قبلت يومها، حضور دعوة لدى إحدى القريبات،
احتفالاً بنجاح ابنتها في امتحانٍ ما.

كنا في نهاية حزيران. وكانت النساء من حولي يتبادلن أحاديث
حول قهوة.. وأصناف من الحلوى. وكنت أمرب من ثرثرتهنّ،
وأسترق النظر أحياناً إلى جهاز التلفزيون، الذي كان مفتوحاً.. لمزيد
من الضجيج.

رحلت أتابع، بين حين وآخر، خطاب بوضياف الذي كان التلفزيون ينقله مباشرة، من دار الثقافة في عنابة. ولكن، لم يكن يصلني منه الكثير. فاكتفيت بتأمله، لأول مرة، دون أن أدري أنني أتأمل ذلك الرجل، في حضوره الأخير.

حتى دون صوت، كان بوضياف يخترق بعينين حزينتين، لهما ذلك الحزن الغامض، الذي يجبرك على أن تتق بما يقوله.

عينان تعرفان تدرب الوطن على الغدر منذ الأزل. عينان تغفران وتنسيان، مذ داهمهما حزن المنافي، وإحساس عميق بخيانة الرفاق. فلم يعد يغادرهما حزنهما ولا عادتا تقويان على الضحك.

وكان بوضياف في وقفته الأخيرة تلك مولياً ظهره إلى ستار القدر.. أو «ستار الغدر».

يبدو واثقاً، وسادجاً، وشجاعاً، وبريئاً.

فكيف لا يحصل له.. كل الذي حصل؟

لا أدري عن أي شيء، كان يتحدث لحظتها. أذكر أن آخر كلمة قالها كانت «الإسلام»..

وقبل أن ينهي جملة، كان أحدهم، من المسؤولين عن أمنه، يخرج إلى المنصة من وراء الستار الموجود على بعد خطوة من ظهره، ويلقي قنبلة تمويهية.. جعل دورها الحضور ينبطحون جميعهم أرضاً.

ثم راح يفرغ سلاحه في جسد بوضياف، هكذا مباشرة أمام أعين المشاهدين، ويغادر المنصة من الستار نفسه. كنا في التاسع والعشرين من حزيران.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وسبع وعشرين دقيقة.
وكانت الجزائر.. تتفرّج مباشرة على اغتيال أحلامها.

كان الجميع ينتظر سيارة الإسعاف التي لم تأتِ.
وكان علم الجزائر الموجود على المنبر، قد أصبح مصابفًا لقطاء
لرجل ينام أرضًا. جاء ليرفع رؤوسنا.. فجعلنا أحلامه تنحني في
بركة دم.

ذلك كان قدر بوضياف مع حزيان الوطن.
منذ أربعين سنة، في الشهر نفسه، اقتاده رفاقه إلى سجون
الصّحراء.

ثم جاء به الوطن، كي يحكمه 166 يومًا. وما هو يكافئه ذات
حزيان.. بكفن!

وابل من الرصاص، مقابل خمسة أشهر من الحكم.
لم يمهله سبعة أيام فقط. كل ما كان يلزمه كي يصل به العمر
حتّى 5 يوليو، عيد الاستقلال الذي كان يريد أن يهدي فيه إلى
الجزائر، خطابه المنتظر.

فجأة، توقّف بنا القدر، كما تتوقّف عجلات سيارة في الوحل،
وهي في طريقها إلى مشوار جميل.

فقد كان كل شيء جاهزًا كي لا يخلف بوضياف هذه المرة مواعده
مع الموت، بما في ذلك سيارة الإسعاف التي أضاعت طريقها إلى
المستشفى وهي تنقله.. فكان آخر من يصل من المصابين.

يوم موت بومدين، قال بوضياف «لقد كنت دائماً على خلاف مع بومدين في كثير من القضايا. ولكن عندما شاهدت جنازته، شعرت بأنني ظلمته. فلا يمكن لرجل يشيعه شعبه بهذا القدر من الفجاعة.. أن يكون قد أخطأ في حق الوطن».

أولئك الذين كانوا يطلقون الزغاريد من الشرفات عند سماع الخبر، ويعلنون دون خجل أمام التلفزيون سماتهم بموته، ويتسابقون إلى المساجد، متصنّعين بولائم «الكسكسي» احتفالاً بدمه المسفوك.

والأربعون حرامياً، الذين كانوا يسعدون سراً.. أمام جثمانه، ويفركون أيديهم فرحاً بغنائم، يمكنهم مواصلة التناوب على السطو عليها لسنوات أخرى، أولئك الذين ظنّوا أنّ جثمانه قد يمرّ سهواً في غفلة من الوطن، أنّ موته قد يكون حادثاً لا حدثاً في تاريخ الجزائر. تراهم توقّعوا له.. جنازةً كذلك؟

انهيار صاعق للأشياء.

وطن يغمى عليه، يدخل حالة من الهستيريا، يبكي رجاله كالأطفال في الشوارع. يهتفون «إنّا هنا». تخرج نساء ملتحفات بالأعلام الوطنية، حاملات مع موتاهنّ صورة رجل، لم يحكم كي تغطّي صورته الشوارع... إنّما كي تغطّي صورة الجزائر صور القتل الذين يملأون صفحات الجرائد.

رجل لم يمش يوماً باطمئنان على تراب الوطن، تحمله القلوب، أمواجاً بشرية نحو التراب.

رجل يمضي... ويتركنا من جديد ليتمنا. نريد خلفه.. امضِ «إنّا
هنا». فيواصل التاريخ بعدنا:

«نم.. ولا تهتمّ أبو ناصر.. إنهم هنا».

لم اغادر يومها البيت كي اشارك في تشييعه. كان حزني اكبر
من أن اتقاسمه مع احد.

ولكن في مكان ما من أعماقي، كنت سعيدة من أجله.

هذا الوطن الذي لم يُهدر إليه حياةٌ على قياس أحلامه، أهدى إليه
جنازةً على قياس حياته.

جنازة لرجل عبر الحكم مشياً على الأقدام.. 166 يوماً لا غير.
ولكنها جنازة ليست في متناول أولئك الذين حكموا أوطاناً ربع قرن
بجيش من المخبرين، متسلّطين على شعوب طحنها الذلّ الأزلي.

هؤلاء الواصلون من ولاء الدبابات لهم، عليهم أن يجزّوا الموت مرّة
ليختبروا رصيدهم في جنازة.. فيذهلوا!

* * *

اسبوعاً بعد آخر، موتاً بعد آخر، كنت اعي أنني اعيش عمراً قيد
الإعداد. تصنعه تارةً أحداث كبرى، وتارةً أحداث هامشية أخرى.

في كلّ لحظة، لأيّ سبب كان، يمكن لقنّري أن يأخذ مجرى آخر.
فانا امرأة تعيش بين رجال ثلاثة، حياتهم مغلقة برصاصة القدر.

ويتصرف بأعمارهم وأقدارهم أولئك الذين يهندسون الموت والرعب كل يوم في هذا الوطن.. ولا أدري متى سيسقط أحدهم قتيلاً بتهمة، أو يسقط الآخر بنقيضها.

ولذا أصبحت مسكونة دائماً بهاجس الصدمة، مهووسة بهذا الموت المباغت الذي أراه يعوم حول كل من يحيطون بي.

بين أخي الأصولي الذي تطارده السلطة، وزوجي العسكري الذي يتربص به الأصوليون، وذلك الصحفي الذي أحب، والذي يصفي الاثنين حساباتهما وخلافاتهما بدمه، كيف يمكنني أن أعيش خارج دائرة الذعر؟

منذ سقط بوضياف قتيلاً مباشرة على شاشة التلفزيون أمام ملايين الناس، كان واضحاً أن موسم الصيد قد فُتح، وأصبح السؤال بعد كل موت: من سيكون دوره الآن؟

كنت أحاول أن أستعين على الخوف بالكتابة، وغالباً بالحب، استعبد كل ما قاله لي ذلك الرجل، وهو يُهَيئني لزمن كهذا.

ولكنه هو نفسه لم يعد هنا ليؤكد لي ذلك. منذ اغتيال محمد بوضياف، وأنا أحاول الاتصال به دون جدوى.

كان مجرد طلبه هاتفياً من قسنطينة، أمراً فيه كثير من المجازفة، وهو ما جعلني أحاول الاتصال به كلما وجدته عند إحدى القريبات، نظراً إلى كون هاتفي مراقباً.. بحكم أنه هاتف عسكري. وهاتف أمي كذلك، بنية التجسس على أخبار ناصر وتنقلاته. وهاتف ذلك الرجل أيضاً موضوع تحت التفتيش.. لكونه صحافياً وعضواً في المجلس

الاستشاري. وهو الأمر الذي زاد من وحدتي، وشعوري بأنني أعيش قدرًا مضادًا للحب. ليس الجانب البولييسي سوى أحد أوجهه المخفية والمخيفة.

ذات صباح استيقظت، وبني رغبة للتحرُّش بالذاكرة. كنت قد تعبت من جنة الوقت بيننا، بعد أربعة أشهر من الترقُّب. ولم أجد لي سوى مكان واحد قد يوصلني إليه، أو إلى عبد الحق.

وهكذا أخذت أكثر قراراتي جنونًا. لبست أكثر ثيابي احتشامًا. وغادرت البيت دون زينة.. ودون السائق. ولا شيء في حقيبة يدي سوى كتاب هنري ميشو «أعمدة الزاوية»، الذي أخذته معي كي أحتمي به من نظرات الفضول وأستعين به على انتظارٍ قد يطول. وربما أيضًا لأجعل ذلك الرجل يتعرَّف عليّ إذا ما حضر إلى المقهى. وداني أطلع كتابه الشخصي. وهو ما سيوفِّر عليّ ارتباك مبادرته بالكلام.

مشيت خطواتي على قدمي. كدت أتوقَّف لأشتري جريدة، بعد أن أصبحت قراءة الجرائد إحدى عاداتي السيئة. مثلي مثل كل الجزائريين، الذين يهجنون كل صباح على الجرائد عن ضجر أو عن ذعر. وكان شيئًا ما حدث أو سيحدث.

ولكن هذه المرة عدلت عن الفكرة، تفاديًا لما قد يلحقني من شبهات أخرى.. إن أنا رحت أطلعها في مقهى وظنَّ البعض أنني صحفية.

سعدت وأنا أوفِّق على بعد شارع من بيتي، بسائق أجرة. فطلبت منه بكثير من التؤدَّة إيصالني إلى مقهى «الموعد». شعرت أن عليّ أن

اثبت براحتي لكل من يصادفني.. بدءًا من السائق. فقد كنت أعني
تمامًا أنني أقوم بعمل جنوني آخر.

في الواقع كنت أملك احتياطيًا كافيًا من الجنون يبدو أمامه
رصيدي من العقل هزيلًا، ورصيدي من الصبر معدومًا. وكنت
سعيدة، أن تكون ثروتي لا تتعدى روايات اكتبها لنفسي لا تدر عليّ
أي دخل.. ولكن يتدخل إبطالها في حياتي.. هذا احتمال إيصالي إلى
حتفي!

في ذلك الطابق العلوي للمقهى، جلست أمام امكنة الحب
الشاغرة. اترقب رجلاً.. تعودت أن أنتظره بصمتي. عبر إلى الوقت
من غيابه. أتأمل طاولة في الزاوية اليمنى، مستعيدة جمالية الغام
الرجبة، لحظة لقاء أول.

اكنت أنتظره حقًا؟.. من الأرجح أنني كنت أنتظر صديقه بحجة
أنه الرجل الذي سيزوّني بأخباره.. أو سيوصلني إلى عبد الحق.
حتمًا.. كنت موجودة هناك من أجل عبد الحق. ولذا وضعت كتاب
هنري ميشو على الطاولة.. عسى يلحظه إن هو حاضر.

كان في الطابق السفلي صخب يخفي حزن الناس، ويأتي حتى
طاولتي ليدخل الرعب إلى قلبي. كيف لا عقل يحرسني من طيش
رغبات صباح بارد، ولماذا بي افتتان برجال مجبولين بالعصيان..
ويأقذار يتعذر الإمساك بها؟

رحت أحاول تشخيص حالة حب، تسبقها دائمًا أعراض كتابية،
وتليها دائمًا فجيعًا ما.

ما الذي جاء بي هنا؟ وأي إحساس قادني هذا الصباح في هيئة
لا تصلح للقاء، واجلسني في مناطق منزوعة الرغبة، مقابلة لطاولة
منزوعة الشهوات؟

إنها حتمًا حاستي الكتابية السادسة، تلك التي لا تخطئ.. والتي
تعذني اليوم بمفاجأة ما.

كانت الأصوات الرجالية التي تصلني بأعداد أكثر كلما تقدّم
الوقت، تزيد رعبي، ولا يقيني منها سوى وجود امرأة ورجل يتحنّان
في زاوية قريبة مني. ولكن هما نفسيهما لم يكونا على قدر من
الطمأنينة، فقد كانا مرتبكين.. وعصبيين.

ذلك أن الرعب أصبح فجأة عدوي جماعية قابلة للانتقال من
شخص الى آخر، ومشهداً عادياً قابلاً للتضخم يوماً بعد آخر. وانت
تصغر أمامه، حتى تصبح في حجم حشرة لا تدري في جوف أي
فريق ستنتهي، وفي أية وجبة سيتم أكلك، وبأية تهمة سيكون قتلك.
إنه المنطق العبثي والعشوائي للموت، في زمن الحروب غير المعلنة،
تلك العبثية الموجهة التي اختصرها خليل حاوي في ذلك البيت
الجميل:

«كل ما اعرفه أنني أموت

مضغة تافهة في جوف حوت»

لم يكن في المقياس ما يمكن أن يثير فضولي.

فرحت أتأمل بين الحين والآخر، شاباً في مقتبل العمر بهيئة
بسيطة، يجلس على بُعد طاولة مني، يطالع جريدة.

بدا لي اصفر من ان يكون عبد الحق. وبرغم ذلك رحت أسترق
النظر إليه عن سحر. رافعة أحياناً كتاب هنري ميشو تمويهاً، أو
إشعاراً لغريب قد يحضر. ثم فجأة، هممت بمغادرة المكان عن ياس،
أو بالأحرى عن خوف، وأفكار بوليسية تباغتني، خاصة وأنا أتنبه
لوجودي في مقهى يرتاده الصحافيون.

ماذا لو كان هذا الشاب الجالس على بعد خطوة مني يخفي
مستساً، ويخفي خلف جريدة تربصاً بأحد ما؟ فمعظم الاغتيالات
ارتكبها شبان في العشرين يرتادون المقاهي، أو يقفون متكئين على
جدار، وهم يطالعون جريدة.. في انتظار ضحيّتهم.

كنت أجمع أشيائي مذعورة، وأترك ثمن قهوتي على الطاولة قبل
مغادرة المكان، عندما رأيته يفتح الجريدة على صفحة داخلية ويفرق
في قراءة شيء ما.

وإذ بي المح في الصفحة الأولى من تلك الجريدة التي كان
يرفعها، صورة كبيرة، أعرف تماماً ملامح صاحبها، وفوقها كلمتان
بالفرنسية مكتوبتان بخط أسود كبير..

كلمتان جعلتاني اتسمر في مكاني ذهولاً.

كنت أتوقع من الموت كل شيء..

تقريباً كل شيء.. من نوع تلك المفاجآت الدنيّة، التي وحده يتقنها.

ولكن هذا الصباح، كانت الجريدة التي لم اشتريها. تنقل لي الموت
الوحيد الذي لم أتوقعه.

فالبأرحة فتح ذلك العوت، فكله، وأبتلع لوجبته المسائبة من جملة
من أبتلع - عبد الحق

أي قنأص سادي هو القدر؟ يتخذ له زاوية منسية في حياتنا، ثم
ياخذ في إطلاق النار، كيفما اتفق على من أحببنا، دون شعور بالآلم.
قطعاً، لم أتوقع أن تكون لي مع عبد الحق، مفاجاتان، الأولى
موته، والثانية صورته. وكأنه كان لا بد أن يموت، ليصبح أخيراً رجلاً
حقيقياً، باسم كامل، ووجه، وملامح، وقصة حياة.. وقصة موت.

بالنسبة إليّ كانت القصة تبدأ من صورته. فلما لم أُنس هذه
الملامح التي قضيت وقتاً طويلاً ذات يوم في تأملها، بإعجاب سرّي
في هذا المكان نفسه.

أكنت قد جئت إذن هنا، لأن الحياة كانت تهينني هذا الصباح
لمفاجأتهم قذرية ظالمة.. في هذا المكان الذي رأيته فيه لأول مرة؟
أجئت أشهد غيابه، وأتأمل طاوالتة الشاغرة دونه، لأكمل
بحضوري دورة الفراق.. في قصة لم يكن فيها سوى لقاء.. وكثير
من صمت الغياب.

أثناء تفكيري، جاء أحدهم وطلب من ذلك الشاب الحضور معه..
لأنهم يحتاجونه في المظيفة.

كان المسكين صحافياً إذن.. أو مؤلفاً في جريدة. كنت احتضنه
وأجهش بالبكاء، لو كنتُ بمفريقيا. ولكنني لم أجد في صوتي شجاعة
سوى لطلب تلك الجريدة منه.. فناولني إيّاها.. ومضى.

لم تكن قدماي قاسرتين على حملي. فعدت وجلست مكاني.

هذه المرة.. لم اكن اجالس وهما.. وإنما أنا.

مهملاً كان الحزن في ركن من هذا المقهى.. حيث طاولة مغلقة
على سرهما كبيانو تنتظر رجلاً تعود أن يأتيها ليكتب. وهي الآن
صامتة دونه. وحدها تشاركني الحداد عليه. وتسأل.. لماذا اختارها
هي دون غيرها؟

أفتح الجريدة على صورته. فتؤلمني الكلمتان على بساطتهما
«ADIEU ABDELHAK».

أيكفي أن تضيف كلمة «وداعاً» إلى أي اسم.. ليثير فيك كل هذا
الآلم؟

إنه عبد الحق إذن..

الرجل الذي كان يجلس بقميص وينطلون أبيض على هذه
الطاولة. إيّاها.. في ذلك اليوم الذي..

أذكر.. كان لا يتوقف عن الكتابة والتدخين. وطوال جلوسه وحيداً
لنصف ساعة تقريباً، لم يبادلني سوى الصمت، ولحظات من
الشروود.

ثم جاء صديقه، في زيّ أسود. سلّم عليّ من بعيد، وكأنه يعرفني.
تحدثنا طويلاً. كنت أتسأل طوال الوقت، أيهما ذلك الرجل الذي..
ثم فجأة، نهض اللون الأسود. ناولني صحفاً من السكر. كنت
سأطلبه من النادل.

اذكر، فاجاني عطره. أعادني إلى ذلك العطر الذي..
فرحت أختبره بكلمات اعتذار. وإذ به يجيبني بتلك الكلمات
الصغيرة التي..

ولحظتها.. أفلقت حواسي مني. وأخذته مأخذ وهمي به.
لم أكن أدري أن الحب كان يسخر مني، مسرّباً كلمة السرّ
نفسها، لأكثر من رجل.

الآن أعي أنني يومها أخلفت، بفرق كلمة ولون، قطار الحب الذي
كنت سأأخذه.

فلحقت في لحظة من فوضى الحواس، بذلك اللون الأسود،
وأخطأت وجهتي.

هو قال: «أجمل حبّ، هو الذي نعثر عليه أثناء بحثنا عن شيء
آخر».

وكيف لي أن أعرف الآن، إذا كان ما عشته معه، هو أجمل حقاً
مما كان مفترضاً أن أعيشه، لو أنني لحقت باللون الآخر.
ولكن، أكان ثمة حقاً.. لون آخر؟

لقد أصابني الحبّ يومها بعمى الألوان. وأربك في أيضاً، حاسة
النظر.

وانذكر أنني سألت اللون الأسود، في أول لقاء لنا:
- قبلك لم أر رجلاً يلبس الأسود في هذه المدينة. حتّى لو كان
ذلك حداداً.

فاجاب:

- وأي لون توقعت ان ارتدي؟

قلت:

- لا ادري. ولكن الناس هنا يرتدون ثيابا لا لون لها.

ثم واصلت بعد شيء من التفكير:

- صديقك ايضا يبدو غريبًا عن هذه المدينة..

ردّ ضاحكًا:

- لماذا؟ لأنه يرتدي الأبيض باستفزازية الفرح.. في مدينة

تلبس التقوى بياضًا؟

ثم واصل ساخرًا:

- صديقي.. فرحه إشاعة. إنه باذخ الحزن لا أكثر، والأبيض

عنده، لون مطابق للأسود تمامًا.

لقد كنت في النهاية، أمام رجلين يرتديان، بطريقة مختلفة، اللون نفسه.

ويبدو واضحًا الآن، أنه لم يحدث للحب أن يسفر إلى هذا الحد،

من امرأة كانت واثقة من نفسها إلى ذلك الحد.

قطعًا..

الحب ليس سوى حالة ارتياب.

فكيف لك ان تكون على يقين من إحساس مبني أصلاً على

فوضى الحواس، وعلى حالة متباعدة من سوء الفهم، يتوغل فيها كل

واحد أنه يعرف عن الآخر ما يكفي ليعبه.

في الواقع، هو لا يعرف أنه أكثر ممّا أراد له الحبّ أن يعرف.
ولا يرى منه أكثر ممّا حدث له أن أحبّ، في حبّ سابق.
ولذا نكتشف في نهاية كلّ حبّ، أنّنا في البدء... كنّا نحبّ شخصاً
آخر!

من بين كلّ الميتات، جاء اغتيال عبد الحقّ، الأكثر صدمةً لي.
هل أكثر النّاس من أن تدخل حياة أحد، وهو على وشك أن يفارق
الحياة؟

هذا الرّجل الذي لا أعرفه، وأعرف كلّ شيء عنه، ماذا يمكن
للجرائد أن تضيف إلى معرفتي به سوى تفاصيل موته، التي لا أريد
أن أعرفها، والتي نشرتها كلّ الصحافة الوطنيّة في صفحاتها
الأولى، بصورة كبيرة له، وتحتها الكلمات نفسها، بلغة أو بأخرى
«وداعاً.. عبد الحقّ»

تعود الصّحافيّون هنا إنزال صور موتاهم، بالأحجام نفسها،
ورثاء أنفسهم مسبقاً مع سقوط كلّ صحافيّ جديد.

وعبد الحقّ نفسه لم يخالف القاعدة. وإذا لم يجدوا في الجريدة
التي كان يكتب فيها، أجمل من أن ينشروا في الصفحة الأولى جوار
صورته الكبيرة، تلك القصيدة نفسها التي كتبها غداة اغتيال صديقه
الصّحافيّ والشّاعر الطاهر جعوط، وكأنّه كان يرثي نفسه بها.

إذ كلّ التفاصيل التي تميّز موت عبد الحقّ عن موت صديقه، تبدو
مجرّد تفاصيل.

ولم يعد مهماً أن يكون الطاهر جعوط، قد اغتيل داخل سيارته. حاملاً أوراق مقاله الأخير، إلى الجريدة، عندما باغته قاتلوه من الخلف وأطلقوا رصاصتين على رأسه، بينما اختطف عبد الحق من أمام مسكن والدته في سيدي المبروك، وكان قد حضر سرّاً، ليودّعها قبل سفرها إلى «العمرة» أول أمس. وعثروا على جثته البارحة، مقتولاً برصاصة في الصدر.. وأخرى في جبينه.

أي أنه شاهد قاتليه وهم يطلقون النار عليه، دون أن يتمكن من الدفاع عن نفسه، لأنه قتل وهو مفلول اليدين: ربطت يده اليمنى بحزام بنطلونه، واليد الثانية بسلك حديدي، متّصل بالحزام أيضاً. ووجد منكباً على وجهه على حافة الطريق.

ربّما يكون قد استعاد لحظتها، تلك الكلمات الأخيرة التي لفظها شي غيفارا وهو يرى جلّاده قد صوّب رصاصه نحوه، غير مصدّق أن يكون ذلك الرّمز قد أصبح في متناول مسدّسه، وهو ما جعل «غيفارا» يصيح به «أطلق النار أيّها الجبان.. إنك تقتل إنساناً!». وهي المقولة التي وضعها عبد الحق منذ شهرين عنواناً لزاويته اليومية، عند رثائه لصديقه الصحافي «سعيد مقبل» الذي لم يتردّد قاتله في إطلاق النار عليه وجهاً لوجه وهو يتناول غداً..

في النهاية، قضى عبد الحق الأشهر الأخيرة، في ابتكار ست وثلاثين طريقة، لرتاء نفسه. وهي عدد أصدقائه ورفاقه في مهنة المتاعب والمصائب.. والموت، الذين سيقوه إلى تلك النهاية. ولذا لم يعد ممكناً للموت أن يباغته على الأقلّ في هذا المجال. فأيّة كانت

الطريقة التي سيأتيه بها، فقد استبقه ووصفها. وأية كانت الجهة التي سيأتي منها القتلة فقد استبقهم.. وشتمهم.. وتحذاهم بما يكفي ليمجّل موته، حاملاً الرقم (37) في قائمة الاغتيالات التي لا أحد يعلم أين تنتهي.

عدت إلى البيت محمّلة بأكثر من جريدة باللّغتين.
ها هوذا عبيد الحقّ إذن!! أصبح بإمكانني الآن ان اطالع الجرائد... وأعرف من هو.
«هذا السارق الذي يتسلّل في اللّيل بمحاذاة الجدران عائداً إلى بيته، إنّه هو.

هذا الرّجل الذي أمنيته أن لا يموت مذبحاً. إنّه هو. هذه الجثة التي يخيطنون عليها رأساً مقطوعاً. إنّه هو.

هذا الذي لا يعرف ما يفعل بيديه.. سوى كتاباته الصّغيرة.
هو الذي يتمسك بالأمل، ضدّ كلّ شيء! الا تنبت الورود فوق أكوام القاذورات؟

هو الذي كلّ هذا.. وليس سوى صحافيّ». كنت احاول ان اكتشف حياته الأخرى باندهاش متأخر، كمن أحبّت رجلاً بالمراسلة، فعرفت كلّ شيء عنه، ولم تمنحها الحياة فرصة التعرّف إليه عن قرب. وما هي تطالع الآن الجريدة كآلاف القراء المجهولين الذين يكتشفون هذا الصّباح موت رجل لم يلتقوا به. أما هو فلن يعرفها أبداً.

تلك المرأة التي كان لها في حياته دائمًا، ذلك الحضور السرّي
المنكسر، كيف له أن يدري ماذا فعل بها موته؟ هي التي عاشت في
بيته، ونامت في سريريه مع صديقه، وتحدثت مع رجل غيره على
هاتفه، وطالعت دون علمه، كتابًا كان يحمل هواجسه، واستعملت
عطرًا كان له، وتقاسمت معه في عتمة قاعة سينما، اشتعالًا مباغتًا
للرغبة، ولحظة بكاء، وتبادلت معه على بعد طاولة في مقهى، نذبات
حديث لا يقال إلا صمتًا!

كلّ هذا، دون أن يتوقع وجودها في عالمه الجميمي، على الطرف
الآخر من حياته.

انحتاج إلى موتنا كي نحب.. ونعرف أن ثمة من أحبونا؟

في ذلك المساء، حاولت أن لا أطيل النظر إلى صورته. كي لا
اكتشف على شفتيه، آثار آخر امرأة قبلها، فأحزن لها، أو تلك التي
كان يمكن أن يقبلها لو لم يمُت، فأحزن له.

تحاشيت عينيه اللّتين نظران الآن إلى مكان وحده يراه، وشاربيه
اللّذين كاحلامه، يرفضان أن يتواضعا حتّى بعد موته.

وبرغم ذلك، وجدتي، بحركة تلقائية، اقتطع تلك الصورة،
واخفيها بين أوراقتي.

في البدء، كنت أردت أن اقتطع تلك القصيدة، واحتفظ بها في
الدفتّر الأسود نفسه، الذي يعرف الكثير عن ذلك الرجل، عندما
فاجأني إحساس قديم ومربك، فقد أعادتني تلك الحركة إلى طفولتي

البعيدة، إلى ذلك اليوم الذي اقتطعت فيه صورة أبي من الجريدة،
يوم تصنّرت منذ ثلاثين سنة الصفحات الأولى للجرائد، بهذا الحجم
نفسه، ولكن في حرب كان الغرياء فيها هم القتلة، وكان للموت فيها
تسمية أجمل من الجريمة.

أجل «كلّ حرب تغيّر لبعض الوقت تعريف الموت، وبهذا تفصل
بشرخ سرّي بين الأجيال».

هَيْذِي تلك الصورة، في اصفرارها، معلّقة أمامي مذ عثرت
عليها، منذ بضعة أشهر، كما توقّفت عندها نظرة أبي إلى الأبد،
يفصلني عنها.. زجاج الوقت.

وفصلها عن الوقت، تسمية جديدة للموت.

وجوارها صورة عبد الناصر ذاتها، تلك التي رافقت وجودها في
بيتنا دائماً، صورة أبي، ولكن بحجم أكبر دائماً. وكأنّها تلخّص في
انكسار عنفوانها موتاً أكبر من كلّ المينات.. الموت قهراً.

لقد كانتا حتّى الآن، تختصران في حضورهما الصامت، صور
كلّ الشهداء، وكلّ القضايا، التي أمنت بها منذ طفولتي الأولى، نون
أن أسأل نفسي لماذا.

تماماً، كنتك المعتقدات التي نترى عليها، ولا نجرؤ على التشكيك
فيها.

ولا يعني أن لم تعد الناصرية إلّا في خانة الشاعر، أو في
أسماء جيل حمل، لمصادفة تاريخية، اسم آخر محارب عربي.. بروح
شاعر.

هل أجمل من أن يكون أبي قد أعطى لابنه الوحيد اسم «ناصر»،
قبل أن يستشهد، وأن يكون اسم الابن البكر لمحمد بوضياف، أيضاً
«ناصر».. وأن يكون في مكتبة هذا الرجل كتب عن عبد الناصر، وأن
يترك لنا كل الذين يرحلون في فجيرة وطنية.. شيئاً من وهم القومية؟

كانت تراودني كل هذه الأفكار، بينما كانت يدي تفكّ إطار صورة.
وتضع خلفها بطريقة مستترة، صورة أخرى، بعد أن وجدت أنها
الطريقة الفضلى للاحتفاظ بها حاضرة وغائبة في الوقت نفسه، كما
كان صاحبها، وتفادياً أيضاً لما قد يثيره وجودها في مكتبي من
استئلة.

كنت أستمع بآبي، لأخفي خلفه رجلاً أحببته. فقد كنت أدري أنه
وحده هو سيقفهم هذا. فطالما جاني الرجال متنكرين فيه.
كنت أخبئ موتاً.. بأخر. وأعطى وطناً بأخر. وأخفي تهمة حباً
خلف حباً آخر.

ويأمكنني الآن أن أقول، وأنا أرى صورة أبي على مقربة مني، إن
رجلاً قد يخفي رجلاً ثانياً.. وربما أيضاً رجلاً ثالثاً.. وإني وحدي
أعرف ذلك!

في اليوم التالي، استيقظت باكراً على غير عادتي. والارجح أنني
لم أنم.

كنت أبحث عن طريقة أعيش بها ذلك اليوم، بما يناسبه من
جمالية اللم.

حاولت أن أكتب، فلم أستطع.

كان ذلك الرَّجُل الذي اختفى منذ شهرين، قد فرش لي حقولاً من
الالغام في كلِّ الطُّرُق المؤبَّية بي إلى الكتابة، ونجح في إقناعي بلُزِّ
البياض هو الحدُّ الأقصى لأيَّة مساحة روائية، وأثَّه الإنجاز الوحيد
في أيِّ كتاب، وأنَّ كلَّ رواية لابدَّ أن تنتهي باحتمالات البياض.

فماذا أفعل إذن؟ وكيف أواجه كلَّ هذا «الخراب الجميل» دون قلم؟
وأذكر أنَّه قال، يوم موت صديقه:

«في زمن النهايات المبالغية، والموت الاستعجاليِّ والحروب البشعة
الصغيرة التي لا اسم لها، والتي قد تموت فيها دون أن تكون معنيّاً
بمعاركها، الجنس هو كلُّ ما نملك لننسى أنفسنا».

سألته يوماً:

- والكتابة؟

ضحك وأجاب:

- الكتابة؟ إنَّها وهمنا الكبير بأنَّ الآخرين لن ينسوننا!

فماذا أفعل اليوم بحزني؟

هل أمارس الحبَّ إذن؟ ومع من؟ وكيف لي أن أتي المتعة بذريعة
موت رجل تعنيّت أن أكون له يوماً.. ولم أكن؟

تلك الرَّجولة التي جَلَسَتْ باستفزاز صامت بمحاذاة أنوثتي، تلك
التي أردتها ولو لمرة واحدة.. استكثرتها عليَّ الحياة، وقدّمتها وليمةً
للديدان.

وذلك الجسد الذي اشتهدت شفتاي أن تغطياه قُبلاً، بعد حين
سيفطيه التراب. ولم يعد بإمكانني أن أشطه ولو وهماً.. لقد دخل
عالم الصكيع.

و... «القبر بارد يا أمي.. أرسلني لي قميصاً من الصوف».

كنت أفضل لو أن لقائي مع هذا الرجل، كان في يوم آخر، على
انفراد، بعيداً عن البكاء والدعاء والصلوات. لو كان فيه شيء من
الحميمية، والشاعرية، برغم ما بيني وبينه الآن، من مسافة ترابية.

ولكن.. لابد أن أكون هناك، كي أوصل، كامراً نكرة، حضوري
السري، في آخر مشهد من قصة حبٍ جنت أشيع فيها عن بعد رجلاً
أعرفه ولا يعرفني، وأبحث عن آخر يعرفني.. وما زلت لا أعرفه.

ولذا وصلت تلك المقبرة، بتوقيت يكون معه الآخرون قد انتهوا من
مراسيم الدفن، دون أن يكونوا قد غادروا المقبرة تماماً، عساني أعر
بينهم على ذلك الرجل.

قطعاً.. جنازته لم تكن سبب حضوري.

فأنا ساشاهدها في نشرة الأخبار المسائية، مفصلة، مطولة،
ومؤثرة دائماً.. كما جرت العادة.

فثمة من لم يعنهم يوماً اغتيال الآخرين إلا بقدر ما يمكنهم في
مناسبة كهذه، التذكير بوحشية الطرف الآخر.. وساديتة.

وبين لعبة الطرفين، كانت الأقلام تسقط رأساً بعد آخر، ضحية
الموت الإشهاري.

الآنني توهّمت دائماً أن الحالة الإبداعية تجعل الموت مختلفاً،
ذهبت إلى ذلك الماتم كما نذهب إلى موعد عاطفي؟

وكما كليووترا - التي وضعت كل زينتها، وتعطّرت، وارتدت
استعداداً لموتها، ذلك الثوب الذي راحا فيه أنطونيو لأول مرة، كي
يتعرّف عليها هناك.. حيث سيلتقيان بين ملايين البشر - مثلها،
تجمّلت، وضعت عطر ذلك الرجل نفسه، الذي بدأت به هذه القصة،
وارتديت ذلك الفستان الأسود نفسه ذا الأزوار الذهبية الكبيرة، التي
تعتدّ على طوله من الأمام، والذي تعودت أن اترك زرّه الأخير مفتوحاً،
واضع معه زئاراً أسود يشدّ الخصر ويرسم استدارات الأنوثة، وهو ما
كان يمنحني حياة «ممثلة إيطالية» حسب وصف ذلك الرجل الذي كان
يعبّ هذا الفستان بالذات.. ويقول كلما رآني به: «الأسود يليق بك».

فأجيبه بنبرة غائبة:

- جميل قولك هذا.. إنه يصلح عنواناً لرواية قادمة:

قطعاً، لم أكن ارتدي الأسود حداداً. كنت بانخة الحزن لا أكثر،
بانخة الإغراء، مفرطة التحدي.

لم اذهب إليه متكررة في عباءة العفة: حماقة أن تواجه الموت في
مثل هذا الثوب.

فقد اخترت هباتي، بنية إغراء رجلين، رايتهما معاً لأول مرة في
نلك المقهى، وأنا ارتدي هذا الفستان نفسه.

أحدهما لو حضر ليشتيع الثاني، للمنحني حتماً حيثما كان،
ولتعرّف إليّ في هذا الفستان، فأراه أخيراً.

أما الثاني..

فلا يهمني أن أراه، بقدر ما يهمني أن يراني. وكأنتي لا أريد أن أبدو أمامه أقلّ تألقاً مما يجب أن أكون في موعد أول.

يسعدني حقاً أن ألفت نظره، وأشغله عن موته بمفاجأة حضوري. أتوقع أن يلمحني. فوحدي أحمل في يدي دفترًا، في مكان تاليه النساء عادة محملات بالأرغفة، والقمر للصدقة

وحدي أيضًا فكرت في أن أحضر له علبة سجائر لليلة الأولى. بعد ذلك، سيكون عليه أن يتوقف عن التدخين، لا لأنّ التدخين يضرّ بالصحة، وإنما لأنّه لن يكون بإمكانني أن أزوده بالسجائر دائمًا.

عندما توقفت في طريقي لأشتري هذه العلبة منذ قليل، نظر إليّ البائع شزراً، حتّى توقفت أن يطردني من محله.

امرأة تجرّ على اشتراء سجائر في قسنطينة، لابدّ أنّها على قدر من سوء الأخلاق.. أو على قدر من الجنون.

وبرغم كوني لم أدخّن سيجارة في حياتي، وجدت من الحماقة أن أتبرأ من تلك التهمة، وأشرح له أنّ علبة السجائر ليست لي.. وإنما لرجل سيدفن بعد قليل.. وسيحتاجها إذا أراد أن يكتب شيئاً هذا المساء. فانا أتوقع أن لا يستطيع اليوم بالذات.. أن يمتنع عن الكتابة.

في الواقع، أحببت دائماً الكتاب الذين تكمن عظمتهم، في كونهم يقولون لنا الأشياء الأكثر ألماً وجديّة.. باستخفاف يذهلنا.

تمنيت دائماً أن أشبههم، أولئك الرائعين، الذين يأخذون كلّ شيء

مالخذ عكسه، فيتصرفون هم وأبطالهم بطريقة تصدم منطقنا في التعامل مع الموت والحب.. والخيانة.. والنجاح.. والفشل.. والفجائع.. والمكاسب.. والخسارة. ولذا أحببت زوريا، الذي راح يرقص، عندما كان عليه أن يبكي.

وأحببت ذلك البطل في رواية «الغريب» لألبير كامو، الذي حكم عليه القاضي بالإعدام، لأنه لم يستطع أن يبرّر عدم بكانه، عند دفن أمه. بل إنه يوم ماتها، ذهب ليشاهد فيلمًا.. ويمارس الحب رفقة صديقة جديدة.

وربما كنت، منذ البدء، أبحث عن مناسبة كهذه، تمنحني فيها الحياة فرصة الذهاب بجنوني عكس المنطق، وتهدني إلى إمكانية فريدة لأن أجرب في الحياة بعض المشاهد التي تمنيت بحنون الكتابة أن أعيشها.. لنتعة كتابتها بعد ذلك.

لا سبب أجعله، ليس الحزن هو الذي كان يسكنني يومها، وإنما شعور عارم بالتحدي، لم تكن زيتني وأناقتي سوى بعض مظاهره الخارجية.

لا أظن أنني ذهبت كذلك لاتحدى الموت. الموت قدور من الله نتساوى أمامه جميعًا. ولا أظن أيضًا.. أنني كنت امرأة بطلة؛ فقط.. كنت اتحدى القطة، شاهرة التهمتين اللتين جمعتهما: تهمة الأنوثة وتهمة الكتابة، تلك التي كانت تحديًا صامتًا في يدي، وبغترًا مغلًا على قصة، الكتابة فيها هي البطل الرئيسي.

في الواقع، في مواجهة الموت، الأنوثة كما الكتابة، ليست عزاء

على الإطلاق. لأنهما تذكير دائم به. ولكن في مواجهة الجريمة.. ماذا يملك الكاتب عدا كلماته.. وملك الحياة التي مذبذبا للكتابة.. لم تعد في جميع الحالات حياته؟

تمنيت أن أقول كل هذا صمعا، لذلك الرجل لو أنه جاء. أو ربما، تمنيت أن يأتي.. كي نواصل كتابة هذه القصة هنا..

هو الذي أراد في آخر موعدنا.. أن نتساوى بالعشاق المفسدين. ورفض أن نلتقي في شقة عبد الحق. بإمكاننا الآن أن نلتقي في جنازته، ونتساوى حقاً.. بعشاق هذه المدينة الذين ضاقت بهم الحياة يوماً بعد آخر. فاصبحوا يلتقون في المقابر، متنكرين في زي الحزن، جالسين على أي قبر يصنفونه، ليتبادلوا ما شاؤوا من حديث الوجد. فوحده الحب يملك هذه القدرة الضاربة، على جعل كل شيء جميلاً، حتى لقاء عاشقين في مقبرة!

وبرغم هذا.. فحتى موعد عاطفي على هذا القدر من الألم، لم يكن ينتظرنى هناك، حيث وقفت بعيداً بين القبور، على مسافة وسطية، بين الألم، وما يلزم من الجاش للتدقيق في وجوه عشرات الرجال، الذين وحدهم دون النساء، يملكون حق مرافقة الموتى، والذين رحت أبحث بينهم عن رجل لا يشبه أحداً.. ولا يشبه شيئاً، ولا يمكن له أن يخلف موعداً كهذا.

ثم انسحب الجميع، بعد أن أودعوا حملهم جوف التراب ورحلوا، لأجد نفسي في موقف عجيب، شبيه بمشهد سينمائي صامت لفيلم

بالأسود والأبيض. وأنا في كلّ تألّقي الأسود، أقف وحيدة، وسط ذلك
الديكور الرّخاميّ الفُتّاسع البياض، وذلك الدّقتر الأسود في يدي.
صلى ذلك الرّجل، إن جاء.. أن يستدلّ به عليّ.
ولكنّه لم يات.

وكلماء تقدّم بي الانتظار، تحوّل إحساسي بالتحديّ، إلى إحساس
عبارم بالحزن والخيبة. فانا كنت أريد أن اتحدّى به.. ومن أجله. أترأه
تغيّب ليتحدّاني بغيابه؟ وكيف له أن يخلف موعداً كهذا، وعبد الحقّ أقرب
صديق إليه؟ أترأه مسافراً، ولم يعد بعد؟ أم أترأه مازال في هذه المدينة
مسافراً عن نفسه داخل الوطن.. وقد يعود ليزور هذا القبر على انفراد؟
أم.. أترأه الآن يمارس الحبّ مع امرأة أخرى، ليشيّع فيها عبد
الحقّ على طريقته؟

لا أدري كيف، قبراً بعد آخر، كانت الاسئلة تتقدّم بي نحو الرّجل
الأخر. حتّى تلك الخطوة الأخيرة، التي أوصلتني إليه.
كان جنة أحلام.. تنام تحت كومة من التراب الذي تغطّيه باقات
الورد.

الأغرب أنّني لم أبك.
فقد كنت لحظتها أوصل الكتابة، وأبحث عن الكلمات المناسبة
لأصف هذا الموعد العجيب. أستعيد في ذهني بعض المقاطع
والخواطر من كتاب هنري ميشو تلك التي وضع هذا الرّجل تحتها
خطاً.. أو كتب جوارها تعليقاته.

واستعيد تلك القصيدة التي كتبها في رثاء (الطاهر جعوط) والتي
نشرت البارحة من جديد جواز صورته وخبر نعيه، والتي اقتطعتها،
وخبأتها في هذا الدفتر الأسود..

فاجأتني رغبة في قراتها من جديد. فأخرجتها ورحلت أكتشف
وقعها عليّ هنا.

اكنت اقرأها لنفسى ام له، بصوت خافت يسمعه لأول مرة، منذ
ذلك اليوم الذي جلست فيه جواره في قاعة سينما، ولم نتبادل سوى
كلمتين؟!

ها هو.. مازال الصامت الاكبر، حتى في دوره الأخير، ومازلت
وحدى اواصل الحديث إليه.

«مذهول به التراب

خرج ذلك الصباح

كي يشتري ورقاً وجريدة

لن يدري احد ماذا كان سيكتب

لحظة ذهب به الحبر إلى مثواه الأخير

كان في حوزته نفوس أقلام

وفي رأسه رصاصه

ولذا.. لم يضعوا ورداً على قبره

وضعوا ما اشترى من أقلام

ولذا لم يكتبوا شيئاً على قبره

تركوا له كثيرًا من بياض الرخام

ولذا... لن تتعرفوا إليه

هناك، حيث كل القبور

لا شهادة لها سوى قلم

وحيث كل مساء

تستيقظ أيدٍ لتواصل الكتابة..

اعتقد أن صوتي قد مات مع آخر بيت، وأنتي عندما أغلقت الدفتر
على تلك القضية، بدا لي وكأنني أصبحت جزءًا من مشهد
سينمائي.

الهذا لم أبك، وأنا أضع ذلك الدفتر على كومة الثراب وأمضي؟
بل لم أحاول بعد ذلك أن ألتفت خلفي لأشاهد لأخر مرة ذلك المنظر
الذي لن يتكرر بعد ذلك أبدًا، والذي بإمكانني بعد الآن أن أصف في
روايات قادمة، وقعه على نفسي. لأنه حدث بالفعل.

منذ سنتين، وأنا أريد أن أختبر مرة واحدة، هذا الشعور الذي
ينتابك عندما تضع مخطوطًا على قبر وتمضي، غير متحسر على
شيء.

وها أنا قد فعلت، دون أن أحطط للأمر تمامًا، ودون أن أتوقعه
أصلاً. فهذا الدفتر أحضرته كي أعطيه للرجل الآخر. ولكن وقد
غاب، لم أقاوم فكرة جنونية راودتني.

أمام المواقف غير المتوقعة التي تضعنا فيها الحياة، أحب أن يتبع

المرء مزاجه السريّ، ويستسلم لأوّل فكرة تخطر بذهنه، دون
مفاضلتها أو مقارنتها بأخرى. فالفكرة الأولى دائماً على حقّ، مهما
كانت شاذّةً وغريبةً، لأنّها وحدها تشبهنا.

وكانت تلك الفكرة، تشبه كاتبه عرفتها.

تشبهها إلى درجة جعلتني أعتقد أنّي أثار لها من زمن بعيد،
كانت تتسلّى فيه بخلق أبطال من ورق، وقتلهم في كتب، مطابقة لمنطق
الحياة في الحبّ والقتل دون سبب.

حتّى راحت الحياة بدورها، تلعب معها، لعبة تحويل كلّ ما تكتبه
إلى حقيقة.

أكانت تتحرّش بالحياة؟ وإذ بالحياة تعيد إصدار كتابها، في
طبعة واقعيّة، وإذ بها القارئة الوحيدة لنسخة منوّرة، تكفل للقدر
بنقلها طبق الأصل عن روايتها، بعد أن أسخل عليها بعض التفسيرات
الطّيفة في الأسماء، أو في تسلسل الأحداث، كما في كلّ السرقات
الادبيّة!

أغرب ما يمكن أن يحدث لكاتب، أن يكتشف أنّه مع كلّ صفحة
يكتبها، يكتب عمره الآتي. وأنّه برغم ذلك لا يستطيع رفع دعوى على
الحياة لأنها طابقت خياله، ولقد قصّته تقليدًا فاضحًا.. فعادة
يحدث العكس!

ذات يوم، كتبت تلك الكاتبة رواية، بنية استباق الألم، فقتلت أحبّ
النّاس إليها.

طبعًا، لم تكن تتوقّع أنّها تكتب قدرها. ومثل بطلها ستعود إلى

الجزائر على عجل، على متن طائرة للحزن، بتوقيت حظر التجول،
محملة بمخطوط تلك الرواية نفسها. أمام ذلك الجمركي العصبي
نفسه، الذي سينبش في حقيبتها بالإصرار نفسه، لن تجد شيئاً
تصرّح به سوى مخطوطها، وتلك الذاكرة التي جاءت لتدفنها.. وهي
تدفن أباه.

امام قبره لم تترك.

كانت مشغولة بالتساؤل: لماذا مات الآن؟ لماذا مات اليوم؟ لماذا
بعد بوضياف بثلاثة أشهر؟

لماذا قبل صدور الكتاب بأسبوعين.. وقد انتظره عدة سنوات، كل
تلك السنوات التي كان يزودها فيها بالمعلومات عن مدينة لم تزرها،
اسمها قسنطينة، وبذاكرة أجبه حملها بمفرده؟
أرحل كي يترك مكاناً أكبر لذلك الكتاب، وكأن الحياة لا يمكن أن
تسعهما معاً؟

أو كائنّه وهو الشاعر، رحل كي يصبح ذلك النصّ بموته أجمل؟
أم فقط لأنهم في زمن الميتات الملققة، والسيارات المفخخة،
فخّخوا أحلامه، وأطلقوا الرصاص على ذاكرته أمامه، فدخل عمر
الذهول، لا عن شيخوخة، ولكن لأن الوطن كان يدخل سنّ اليأس،
وهو لم يكن له من عمر يوماً، سوى عمر الوطن.
حتمًا.. كان عليه وهو رجل التاريخ أن لا يخطئ في اختيار تاريخ
موته.

وهي تذكر صباح أول نوفمبر..

وذلك النشيد الوطني الذي كان يدوي في كل المستشفيات
العسكري، وهم يخرجون جثمانه. حتى بدا لها وكأنهم يعزفونه من
أجله.. أو كأنه يستوقف حامله لسمعه للمرة الأخيرة:

قسماً بالفازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللأمعات الخافقات في الجبال الشامخات الشامقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

كانت سيارات الإسعاف العسكرية تغطي لحظتها على النشيد
الوطني، وتشق الطريق بصفاراتها، لتلقي على الأسيرة المتحركة
جنوداً جزائريين سقطوا بسلاح جزائري. بعضهم جرحى، وبعضهم
جاؤوا مشوهي الجثث، لينتظروا أهله في براد.
ولذا نسيت يومها أن تبكي أباه، وراحت تبكي النظرات الفارغة
لجنود لن يدركوا يوماً لماذا ماتوا.

عندما زارت قبره في اليوم التالي، حاولت أن تكون جميلة. تزينت
كفادتها كي تتميز بمظهرها عن جميع النساء من حوله، وكي تمنحه
- كفادته - زهو المفخرة بها في مجلسه الأخير.

كانت ترفض، وهي أحب مخلوق إليه، أن تتساوى بمن جئن
ليبكيه يوماً.. ويذهبن.

ثمة حزن يصيب معه البكاء مبتدلاً، حتى لكأنه إهانة لمن يبكيه.

فَلِمَ البكاء، مادام الذين يذهبون يأخذون دائماً مساحةً منا، دون
أن يدركوا، هناك حيث هم، أننا، موتاً بعد آخر، نصبح أولى منهم
بالركاء، وأن رحيلهم كسر ساعتنا الجدارية، وأعاد عقارب ساعة
الوطن.. عصوراً إلى الوراء؟

الأغرب يومها، أنها تركت الجميع متعلقين حول قبره، وذهبت
أمام دهشتهم، تبحث عن قبر آخر.

في تلك الباحة الشرفية للموت. حيث ينام كبار شهداء الجزائر.
تحت باقات الورود الرسمية، التي وضعت تواً على قبورهم بمناسبة
أول نوفمبر، توقفت أمام قبر بوضياف.

غير أن قبراً صغيراً، أثار فضولها بتواضعه، ووجوده على يمينه،
ببساطةٍ من يعتذر عن المساحة التي يشغلها هناك.

هوذا إذن.. سليمان عميرات، الرجل الذي لم تسمع باسمه قبل
ذلك اليوم، الذي أفردت له الجرائد صفحاتها، لتتعاذ في موته
الغريب، المروع.

لم تتوقع أن يكونوا أهدوا إليه قبراً صغيراً جوار بوضياف، وأنه
منذ ذلك اليوم الذي سقط فيه ميتاً بسكتة قلبية، عند أقدام جثمانه، لم
يفترقا.

انتهى به المشوار هنا.

من عامه السابع عشر إلى عامه السبعين، وهو متورط مع الوطن،
منخرط في حب الجزائر، حتى الموت. عرفتة سجون فرنسا، وسجون

الجزائر «الثورية». حيث بقي عدة سنوات متَّهماً بجرم المطالبة بالديمقراطية..

أما في آخر مقابلة تلفزيونية له، وكان قد أدرك خطر وقوع سلاح الديمقراطية في يد من لا يؤمنون بها إلا مطية، فقد صرَّح: «لو خيَّرت بين الجزائر والديمقراطية.. لاخترت الجزائر».

وما هوذا اختار.. الموت قهراً عند أقدام الوطن.
الوطن؟ كيف أسميناه وطناً.. هذا الذي في كلِّ قبر له جريمة..
وفي كلِّ خبر لنا فيه فجيرة؟

وطن؟ أيّ وطن هذا الذي كنّا نحلم أن نموت من أجله.. وإذ بنا نموت على يده.

وطن هو.. هذا الذي كنّا انحنينا لنُبوس ترابه، باعنا بسكين،
وذبحنا كالنعاج بين أقدامه؟! وما نحن جيئة بعد أخرى نفرش أرضه
بسجاد من رجال، كانت لهم قامة أحلامنا.. وعنفوان غرورنا!

بين قبرين، لا تميّز أحدهما عن الآخر سوى بعض الوجاهة
الرخامية، رأيت تلك المرأة تجهش بالبكاء، فتنغيّر مياثها وتصبغ
امرأة ككلِّ النساء المنتحبات هنا.

لم استطع أن أفعل شيئاً من أجلها. فقد أصبحت في لحظة امرأة
لا أعرفها، حوكتها الفجيرة إلى امرأة أمّية، بطفوس حزن بدائية،
وينحيب مفاجئ مرقّ الصمّت حولها. وكأنّها كانت تريد أن تقلّد ذلك
الرجل في موته. وتختبر حالة يمكن فيها، من البكاء، الموت قهراً أمام
قبر.

هكذا ماتت الخنساء وهي تبكي أخاها؟ ولم هي تبكي هكذا على كل قبر تصادفه خطأها، أفي كل قبر لها صخر؟

لم يكن بإمكانني أن أسألها لماذا الآن؟ لماذا هنا؟ لماذا هما؟
هذه المرأة الغريبة الأطوار، لا تملك أجوبة عن أسئلة بديهية، وإلا لما تركت الناس ليكون أباه.. وراحت لتبكي غيره.
شيء فيها، أصبح فجأة يخيفني، ويصيبني بالذعر. فتركناها
يومها عند قبر بوضياف تنتحب، وغادرت المكان على عجل.

هذه الذكريات التي فاجأتني. فقط لأنني وضعت ذلك الدفتر على قبر ومضيت، لم تغير مزاجي، أو على الأقل، لم تغيره جذاً
استدراجي إلى البكاء.

في الواقع، لم أكن أشعر بشيء.. لا شيء على الإطلاق.
فجأة، كما في انقطاع كهربائي، إثر ضغط عالٍ، توقفت داخلي
الاحاسيس، وأصبحت الأشياء حولي تحدث لامرأة أخرى غيري.

أما أنا، فكنت أشعر بخفة، وشي رشبيه بالسعادة، التي لم أجد
لها من تفسير، إلا عندما تذكرت أن سببها ذلك الدفتر الذي تركته
خلفي، غير معنية بمصيره.. ولا بتلك المكاسب الأدبية التي كان يمكن
أن أجنيتها من وراء نشره.. بعد أن قضيت عاماً كاملاً في كتابته.

الحقيقة، هي كوني خفت إن أنا احتفظت به، أن يحل بي ما حل
بتلك الكاتبة، التي لم تغفر لنفسها أبداً تردها في وضع مخطوط
روايتها على قبر أبيها.. والعودة إلى مناهما.

هي التي حملته إليه يوم موته، لنقول له كمن يعتذر عن غياب: إنها خلال السنوات الطويلة التي لم تحضر لزيارته، ولم تره فيها، كانت مشغولة عنه بالكتابة إليه.. ومن أجله.

طبعاً.. كانت تكذب. هي كانت تكتب من أجلها. والآن لكانت يومها، تركت ذلك المخطوط على قبره.. ومضت.

ولأنها لم تجرؤ على ذلك، لم تستطع بعدها أن تكتب شيئاً. أعوام من الصمت، لتعاقب نفسها على جريمة تفضيلها آلاف القراء، على قارئ واحد، لن يقرأها، ووحده يعنيها.

ربما بسبب جبنها في ذلك اليوم، تغيرت نظرتي إلى الكتابة، وإلى وجاعتها، وإلى زهو شهرة تنزل عليك مصادفة بسبب كتاب، والتي ليست إلا تذكيراً بخيانة لقارئ واحد. نسرق منه بذريعة أو بأخرى مخطوطة كتب له. كي نصنع منه آلاف النسخ المزورة، لقراء لا يعينهم أمرنا. قطعاً.. في كل نجاح لكتاب، خيانة لشخص.

* * *

هي الحياة إذن..

قطعاً.. «لا يحدث للإنسان ما يستحقه.. بل ما يشبهه».

فلَمْ الألم؟ ما دامت تلك النهايات تشبهنا.. حتى لكانما الموت يجعلنا أجمل؟

رحم تقذفنا إلى رحم. ونحن الذين تساوينا في المجيء، لن نسأل لم يكن الميلاد واحداً.. ويتعدد الموت إلى هذا الحد؟

مع غارات الحزن الليلية، اغتالني عطر رجل مات توأ، تاركًا لي..
رائحة الوقت.. ومدينة جبلية يطولها أن تخيفك بجسور الاستفهام..
وأودية شاهقة الفجيرة.

في كمانن المواعيد التي نصبتها لي الحياة، راح القدر عروء..
عروء، يفكّ بذلك البطل المتعمّد أضرار الوهم.

ذاك الذي حصل.. أكان حبًا بصيفة الافتراض؟

كان يعرف عنها ما يكفي ليحبّها..

كانت تعرف عنه ما يكفي لتحبّه..

قطعًا.. لم يكن أحدهما يعرف الآخر بما فيه الكفاية!

برغم حزني.. غادرت المقبرة شبة سعيدة.

إذا كان كلّ فرح يحمل قدرًا من الحزن، فلا عجب أن يحمل
الحزن أيضًا شيئًا من فرح نستحي أن نسمّيه، ولكن يعرفه المبدعون
تمامًا.

أجل، كانت تسعدني فكرة التخلّص من ذلك الدفتر، فقد أتعبني
البقاء عامًا على قيد الكتابة، بحجة أنّها وسيلتي الوحيدة للبقاء على
قيد الحياة.

حتمًا.. ليس هذا صحيحًا. ليس فقط لأنّ الكتابة هي الوصفة
المثلى لإنفاق حياتك خارج الحياة، ولكنّها في هذا البلد بالذات، هي
التّهمة الأولى التي قد تفقد بسببها حياتك.

ولذا، قرّرت بعد هذا الدفتر، أن أقوم بمحاولة اكتشاف فضائل

الجهل، ونعمة أن تكون أميًّا، في مواجهة الحب، وفي مواجهة الموت..
وفي مواجهة العالم.

لا أدري إذا كان انحداري نحو الجهل، سيكون سهلاً. ولكن
لطالما بصنّعت مقولة جبراً إبراهيم جبراً «الكاتب.. هو الذي يستطيع
الصعود والنزول على سلّم الحياة بسهولة تامة».

ربّما، لأنّني قضيت حياتي على درجات ذلك السلّم، صاعدةً نازلةً.
دون أن أعطي انطباعاً للآخرين بأنّني لاهة.

في الواقع، وحدها الكلمات كانت تلهث داخلي.. ولهذا أنا كاتبة.

عدت إلى البيت، امرأة منزوعة الشّهوات. لم يبق لها من تلك
القصة سوى عطر اختزنه جسدها. ومازالت تتعطر به لتتحرّش
بالذاكرة.

الرائحة.. هي آخر ما يتركه لنا الذين يرحلون.
وأول ما يطالبنا به العاندون.

وكلّ ما يمكن أن نهدي إليهم، لنقول لهم إنّنا انتظرناهم.
ولذا، لم يخطئ ذلك العاشق الرائع، الذي يدعى نابليون، عندما بعث
يزفّ خبر نصره إلى زوجته طالباً منها أن تحتفظ له برائعتها، قائلاً:
«جوزفين.. لا تستحمي.. إنّني قادم بعد ثلاثة أيام!».

منذ نابليون، لم يوجد قائد عسكري يتقن الحديث إلى النساء..
وينهزم أمام الانوثة.. بالعظمة نفسها التي يهزم بها الأعداء..

ولذا... سأخذ حمامًا.. وأنام هذا المساء!

وربما جلست إلى أمي، بعد أن أهملتها كل هذه الفترة، وأهملت
أيضًا ناصر، الذي لا تنفك أمي تطلبني بالكتابة إليه. ولكنني لا أفعل،
لأنشغالي بذلك الدفتر.. وبذلك الحياة الوهمية.

ما كنت أتخلص من عبودية الكتابة، حتى عاودني الشوق إلى
ناصر. شوق مخيف في مبالغته وفي تأنيبه.

كيف تخليت عنه كل هذا الوقت، دون أن أفكر في ما قد ينتظره
هناك من مقالب أخرى للحياة؟

كيف استطعت أن أعيش كل هذا الوقت دونه ودون نبضه
المتذبذبة.. وتعليقاته الساخرة.. وحنانه المكابر الذي لا يمكن لكل
كلمات العشق الرجالية أن تعرضه لدي.

قررت أن أكتب له رسالة طويلة.. جميلة.. موجعة.. مريكة.. كنص
عشقي. أردت أن أجرب عليه نزعاتي الإجرامية.. أن أسعده.. أن
أبكيه.. عساني استعيده برسالة. حتى أنني قلت له إنني أفكر في
الطلاق، إن كان هذا الأمر يرضيه..

كنت أريد أن أحتفي بعودتي إلى الحياة، وأعطي إشعارًا لمن
حولي بذلك. أن انقسام معهم حياتهم العادية، بمشاغلها ونفاساتها
اليومية، بأحاديثها وضجرتها.. بأفراحها وحزنها ومخاطرها، أن
أعود أخيرًا امرأة طبيعية بعائلة وبيت.

زوجي استفاد من اهتمامي المفاجئ به، لينفذ علاقة اجتاحتها

فتور لم يجد له سبباً. فراح يحاول استعادتي بالتفاتات صغيرة.
أمي كعادتها، لم تفهم شيئاً مما حلّ بي، واكتفت باجتناح كلّ
برنامجي.

البارحة مثلاً.. قضت النهار وهي تُبلي عليّ رسالةً إلى ناصر.
وهذا الصّباح، ما كادت تستيقظ حتّى طلبتني لتذكّرني بإرسالها.
كدت أسلمها إلى زوجي، ليتكلّم بها. ولكنّي انتبهت أنّي لا بدّ أن
أخفي عنه العنوان الذي يقيم فيه ناصر.
وهكذا لم يكن أمامي، إلّا أن ارتدي ثيابي، وأذهب لأشتري من
محلّ القرطاسية ظرفاً وطابع بريديّة.

كنت أغادر البيت لأول مرّة منذ أسبوعين. عندما أشعلتني الرياح
الخريفية التي لم أحسب لها حساباً. وفاجاني الحزن القادم، كما
المطر هنا سابقاً بموسم.

وأجهات تعرض الشتاء المقبل في بفه معطف. ومكتبات تعرض
الكتب.. والدفاتر.. والأقلام.

«قطعاً».. كانت الحياة تستعدّ لإنهاء دورة الفصول، والبدء من جديد.
تذكّرت وأنا أرى الأطفال يركضون بحقائقهم متوجّهين إلى
المدارس، أنّ آخر مرّة ذهبت فيها إلى هذا المحلّ، كانت منذ سنةٍ
تماماً، لأشتري الأشياء نفسها.

كما اليوم، كان الطّقس خريفياً يفري بشيء ما. ولكنّي اليوم، لا
أحاول أن أسأل نفسي، بماذا هو يفري بالتحديد.

فمنذ أسبوعين، وأنا امرأة أمّية تتحاشى الأسئلة، خشية أن
تباغتها أعراض كتابة.

كنا في بداية الموسم الدراسي. أنكر...
«بدءاً» كانت سماء تجدد هياتها بين فصلين. وكانت تجدد خبرها
بين كتابين.

وكما اليوم، البائع نفسه كان منهمكاً في ترتيب ما وصله من
لوازم مدرسية. فاردّاً دفاتره وأقلامه أمامي.

كما منذ سنة، ها هو يتوقف قليلاً. يتّجه نحوي... يضع حملته
من الدفاتر الجديدة، على تلك الطاولة التي تفصلنا.. ويسألني
مستعجلاً ماذا أريد.

كنت سأطلب منه ظروفًا وطوايع بريديّة، عندما...

١٩ ديسمبر ١٩٩٧



أحلام مستغانمي

كاتبة جزائرية

«فوضى الحواس» الجزء الثاني من

روايتها الشهيرة «ذاكرة الجسد».



هو قال : «أجمل الحب هو الذي نمثر عليه أثناء بحثنا عن شيء آخر» .

هو ، رجل الوقت ليلاً ، يأتي في ساعة متأخرة من الذكرى .
ياغتها بين نسيان وآخر . يضرم الرغبة في ليلاها . . ويرحل .
تمنطلي إليه جنونها ، وتدري : للرغبة سهيل داخلي لا يعترضه
منطق . فتشوق ، ويحول الشوق الوحشية تأخذها إليه .

هو رجل الوقت سهواً . حبه حالة ضوئية . في عتمة الحواس
يأتي . يدخل الكهرباء إلى دهايز نفسها . يوقف رغباتها المسترة .
يشعل كل شيء في داخلها . . ويمضي .

فتجلس ، في المقعد المواجه لغيابه ، هناك . . حيث جلس يوماً
مقابلاً لدعشتها . تستعيد به اتبهارها الأول .

